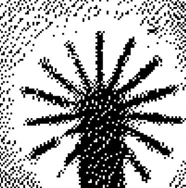
أ.د. حسّان حلّاق
د. أحمد علم الدين

# الإسلام والغرب

## صفحات من تاريخ الاستشراق والتبشير والصهيونية والمشاريع الغربية وأخطارها في العالمين العربي والإسلامي



دار بيروت المحروسة للطباعة والنشر

إهـــــداء ٢٠٠٨

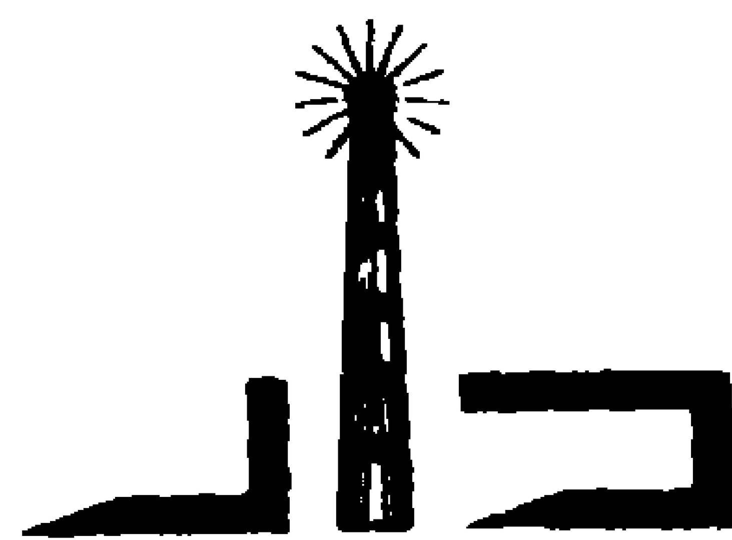
الاستاذ/الدكتور حسان حلاق

لبنان

# الإسلام والغرب

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



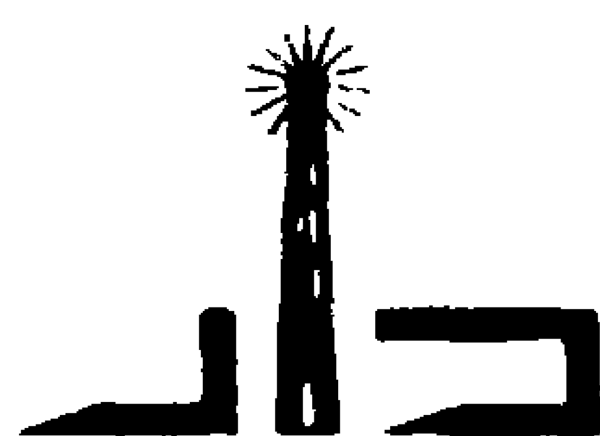
بيروت المحروسة
للطباعة والنشر

العنوان: لبنان - بيروت - ص.ب: ٦٢٥٠/١١٣ - هاتف: ٠١/٨١٠١٣٧ - ٠٣/٢٣١٠٠٨

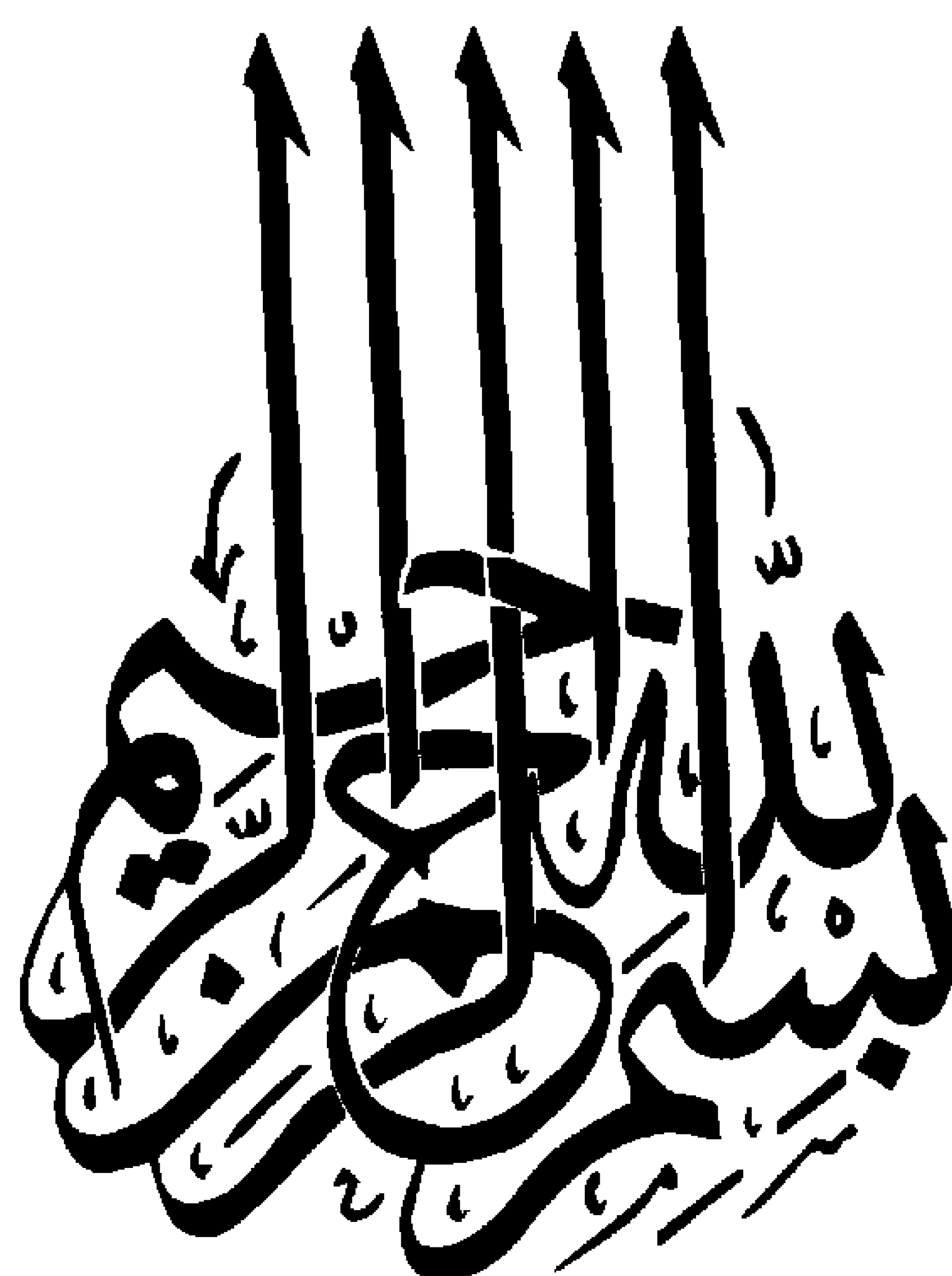
# الإسلام والغرب

صفحات من تاريخ الاستشراق والتبشير والصهيونية
والمشاريع الغربية وأخطارها في العالمين العربي والإسلامي

أ.د. حسّان حلّاق          د. أحمد علم الدين




بيروت المحروسة
للطباعة والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

## الإهداء

إلى الأخ الكبير الفاضل رفيق العمر **الحاج توفيق راشد الحوري** رئيس مجلس أمناء المركز الإسلامي للتربية في بيروت القيّم على كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية وكلية إدارة الأعمال الإسلامية، عربون وفاء ومحبة وتقدير، لما قام به ـ وما يزال ـ في سبيل رفع لواء العلم والعلماء، وتشجيعه لطلاب العلم، ورفع راية الإسلام والمسلمين، ولإسهاماته القيّمة في نشر العلم والثقافة بين الأجيال الصاعدة.

**حسان حلاق** **أحمد علم الدين**

# مقدمة

تعرض الإسلام منذ انطلاقته الأولى لمؤامرات القوى المحلية والإقليمية والدولية، وفي مقدمتها بعض القبائل العربية الرافضة للإصلاح ولروح الدين الإسلامي الحنيف، انطلاقاً من الحفاظ على مصالحها التاريخية التقليدية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية.

كما تعرض الإسلام لمؤامرات الدول الكبرى آنذاك الممثلة لدولة الروم ومن ثم الدولة البيزنطية والدولة الفارسية بسبب تعاظم المد الإسلامي واليقظة الإسلامية، فانتشر الإسلام بتعاليمه السمحة في مصر وبلاد الشام والعراق والمغرب العربي، ومن ثم في الأندلس وفي صقلية، وفي الصين وفي شبه القارة الهندية ـ الباكستانية، وفي الشرق الأقصى وفي أوروبا الشرقية، وها هو اليوم يتقدم بخطوات ثابتة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية.

لقد أدركت القوى المعادية للإسلام وللعرب من قوى استشراقية وتبشيرية واستعمارية وصهيونية وماسونية، أن الدين الإسلامي ليس ديناً للماضي فحسب، بل هو دين الحاضر والمستقبل، لهذا حرصت تلك القوى المعادية على محاربته ومحاربة إسهاماته الحضارية تخوفاً من توسعه وامتداداته التي لا حد لها، لذا فإن الحروب ضد الإسلام منذ فجر التاريخ الإسلامي، وفي العصور الوسطى، وفي التاريخ الحديث والمعاصر ما تزال مستمرة بأساليب تقليدية وأساليب مبتكرة حديثة في جميع الميادين، وفي جميع البلدان العربية والإسلامية، وفي بلاد الغرب.

لقد حرص المؤلفان على اختيار نماذج من العلاقة بين الإسلام والغرب، وذلك من خلال الاستشراق والتبشير والاستعمار والصهيونية، وذكر أخطارها على البلاد العربية والإسلامية، حتى تتنبه الأجيال العربية والإسلامية المعاصرة إلى خطورة المؤامرات التي حيكت للأجيال السابقة، والتي تحاك اليوم، كي نستفيد من الماضي لبناء الحاضر والمستقبل.

كتب الدكتور **حسان حلاق**:

الفصل الأول: مقدمة في الحروب الصليبية وأبعادها الدينية والاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والعسكرية.

الفصل الرابع: دور القوى الاستعمارية والصهيونية والماسونية في تهويد فلسطين.

الفصل الخامس: المؤامرات الاستعمارية والتبشيرية ضد مسلمي أندونيسيا.

الفصل السادس: المؤامرات الاستعمارية والتبشيرية ضد مسلمي الفليبين.

الفصل السابع: قضايا ومشكلات عنصرية واستعمارية ضد العرب والمسلمين في الشرق والغرب.

الفصل الثامن: المشاريع الأميركية والغربية في العالمين العربي والإسلامي، ومشروع الشرق الأوسط الكبير.

في حين كتب **الدكتور أحمد علم الدين**:

الفصل الثاني: الاستشراق: نشأته، مفهومه، أهدافه، أدواره في بلاد العرب والمسلمين.

الفصل الثالث: الاستشراق وعلاقته بالتبشير والاستعمار والصهيونية.

إننا نتمنى أن نكون قد أدينا قسطاً من واجبنا تجاه أمتنا الإسلامية والعربية، متمنين في الوقت نفسه، أن تتنبه الأجيال المعاصرة لخطورة المؤامرات التي تحاك ضد الأمة، والعمل على إفشالها والقضاء عليها.

**بيروت المحروسة في الأول من محرم ١٤٢٨هـ**
**الموافق في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٧م**

# الفصل الأول

# مقدمة في
# الحروب الصليبية وأبعادها الدينية
# والاقتصادية والاجتماعية
# والسياسية والعسكرية

# الفصل الأول

## مقدمة في الحروب الصليبية وأبعادها الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية

تعتبر بلاد الشام من أهم المناطق الاستراتيجية منذ فجر التاريخ، ومنذ قيام الحضارات القديمة، وقد حاولت الإمبراطوريات القديمة السيطرة عليها تبعاً لأهميتها على مختلف الأصعدة، وكان الرأي متفقاً على أن من يحتل بلاد الشام باستطاعته احتلال مصر وأفريقيا ومناطق عديدة في المنطقة. واستمر هذا الواقع وتنازع القوى الخارجية على هذه البلاد، إلى قيام الدولة الإسلامية العربية التي استطاعت القضاء على الدولتين الفارسية والبيزنطية. غير أن القضاء على الدولتين لم يكن يعني انتهاء الأطماع ببلاد الشام، بل استمر العالم الغربي يتطلع إليها محاولاً، بين الفترة والفترة السيطرة عليها، إلى أن جاءت فترة الحروب الصليبية في العصور الوسطى وتحديداً منذ ما قبل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام عام (١٠٩٨م). ولعل البواعث التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية كثيرة ومتنوعة يمكن تلخيصها بما يلي[١]:

١ ـ **الباعث الديني**، ادّعت القوى السياسية في أوروبا بسوء أحوال المسيحيين في البلاد الإسلامية، وسوء معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها قد أثاروا هذه الأمور، غير أن البابا أوربان الثاني كان له الأثر الأكبر في إثارة روح التعصب ضد المسلمين، والادعاء بضرورة إنقاذ المسيحية من الإسلام في بلاد الشرق.

---

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص١٧ ـ ٣٣. أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص١٤ ـ ٢٤. د. جوزف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٧ ـ ٣٢.

**Runciman, S, A History of the Crusades, vol. I, pp.104 - 113, 198 - 200.**

وصفحات متفرقة...

٢ ـ **الباعث الاقتصادي**، كانت أوروبا تعاني من سوء الأوضاع الاقتصادية، كما تعاني من المجاعات لا سيما في فرنسا، وكثرة الحروب بين الإقطاعيين، مما أفرز الكثير من المعدمين والفقراء. أضف إلى ذلك أن جمهرة من التجار الإيطاليين لا سيما تجّار البندقية وجنوى وبيزا، كانوا يشجعون على قيام الحروب في الشرق لأهداف تتعلق بمصالحهم الاقتصادية والتجارية. وقد أكد هؤلاء التجار أن تشجيعهم لقيام الحروب لم يكن خدمة للصليب أو حرباً ضد المسلمين، وإنما لتحقيق مصالحهم الاقتصادية بوسائل عسكرية.

٣ ـ **الباعث الاجتماعي**، كانت طبقة رجال الدين وطبقة النبلاء، والفرسان والمحاربون من الطبقات الأساسية والحاكمة في المجتمعات الأوروبية، والتي كانت تستغل الطبقات الدنيا، ومنها طبقة الفلاحين، الذين كانوا يعيشون حياة ملؤها الشقاء والتعاسة في ظل الاستغلال الإقطاعي وفي مقابل التزامات الفلاحين الإلزامية لرجال الإقطاع. وقد كان الفلاح مع الأقنان والعبيد (رقيق الأرض) يفضلون الحياة والإقامة في أية منطقة في العالم، على الإقامة في ظل الشقاء والعبودية، وقد رأت هذه الطبقات الدنيا في الدعوة للحملات الصليبية متنفساً لها للخلاص مما تحيا فيه من ذل وعبودية. كما تمَّ تشجيع شذاذ الآفاق وقطاع الطرق على المشاركة في هذه الحروب لتتخلص أوروبا منهم، في وقت طمعوا هم بالارتزاق والغنى في الشرق الثري الساحر.

٤ ـ **الباعث السياسي**، كانت الأوضاع السياسية التي يعيشها ملوك وأباطرة أوروبا تحتم عليهم الخضوع للفكر الديني المسيحي ومن الثابت أن فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس وفريدريك الثاني لم يشتركوا في الحروب الصليبية إلا بضغط من البابوية باستثناء لويس التاسع ملك فرنسا المشهور بتديّنه وتعصبه واقتناعه بضرورة محاربة المسلمين. ثم إن بقية الأمراء كانت لهم أهداف سياسية من وراء اشتراكهم في هذه الحملات، تتلخص في سيطرتهم على الأراضي والإقطاعات التي حرم بعضهم من امتلاكها في الغرب. ومما يدل على ذلك الصراعات التي وقعت بين الأمراء أنفسهم بسبب الاقطاعات وامتلاكها في الشرق، كما دبّت الخلافات حول حكم الإمارات والمدن.

وفي المقابل، فإن بلاد الشام وأوضاع العالم الإسلامي، لم تكن قبيل هذه الفترة أوضاعاً طبيعية أو قوية، بل كانت الجبهات الإسلامية متناحرة ومفككة،

فالدولة العباسية شهدت صراعات فارسية - تركية - عربية وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأتراك مما أدى إلى اضطراب الأوضاع السياسية وإشاعة الفتن وطمع العدو في البلاد. ومن ثم نشوء دويلات مستقلة في مراكش منذ (٧٨٨ - ٩٧٤م)، ودولة الأغالبة في تونس (٨٠٠ - ٩٠٩م)، ومن ثم الدولة الفاطمية (٩٠٩ - ٩٦٩م). أما في مصر فقد قامت الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥م)، ثم قامت على أنقاضها الدولة الأخشيدية (٩٣٥ - ٩٦٩م). وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ظهرت قوة السلاجقة الذين وضعوا أيديهم منذ عام (١٠٣٧م) على بعض ممتلكات الدولة الغزنوية ثم أصبحوا أكبر قوة في الشرق الإسلامي لا سيما في الفترة الممتدة بين (١٠٥٥م - ١٠٩٢م)، حيث قاموا بتوحيد العالم الإسلامي تحت رايتهم، واستطاعوا إنزال الهزائم بالدولة البيزنطية في أكثر من موقع وفي أكثر من منطقة حتى في داخل أراضي البيزنطيين مثل قبادوقيا وملطية وسيواس. غير أن عودة التفكك إلى الدولة السلجوقية في الشرق والدولة الفاطمية في مصر، ومن ثم الصراع بين الدولتين السلجوقية والفاطمية من جهة والصراع بين الفاطميين والعباسيين من جهة أخرى كل ذلك أدى إلى تحضير الأجواء المناسبة للقوى الصليبية للزحف نحو الشرق الإسلامي للسيطرة عليه.

ويصف المقدسي الشام بقوله: «إقليم الشام جليل الشان، ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلا، ومطلب الفضلا، به القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة...»[1].

كما يصف لنا ابن حوقل بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية بمناطقها ومدنها وأوضاعها فيقول: «وأما الشام فإن غربيّها بحر الروم، وشرقيّها البادية من أيلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم وجنوبيها مصر

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٥١. ومما يلاحظ ما أورده المقدسي من أن بيروت وبعض المدن الداخلة اليوم في نطاق لبنان إنما كانت تابعة تحديداً لعقبة دمشق. وقد ذكر ذلك في أكثر من موقع. ومنها قوله في ص١٥٤: «... وأما دمشق فاسم العقبة أيضاً ومدنها بانياس، صيدا، بيروت، أطرابلس، عرقة، وناحية البقاع مدينتها بعلبك، ولها كامد عرجموش، الزبداني...».

وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر ورفح ومما يلي الروم الثغور المعروفة قديماً بثغور الجزيرة وهي: ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وإذانة وطرسوس.. وكور الشأم فهي جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم والثغور... وفلسطين أزكى بلدان الشام ربوعاً ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس تليها في الكبر... وبيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه.. وكانت مدينة ملطية مدينة كبيرة من أجل الثغور وأشهرها وأكثرها سلاحاً.. وهي من أقوى بلد للروم في هذا الوقت، يسكنها الأرمن، فكانت أول مصيبة دخلت على الإسلام من جهة الثغور.. وكانت الحدث ومرعش مدينتين صغيرتين افتتحها الروم قبل هذا الحين وأعادهما سيف الدولة علي بن عبد الله، وعاد الروم فانتزعوهما ثانياً من المسلمين، وعاد المسلمون ففتحوها وكان فتحها مسعود ابن قلج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم سنة خمس وأربعين وخمسماية وهي بيد المسلمين الآن...»[1]. وبعد أن عدّد ابن حوقل مناطق شامية عديدة قال:

«.. والباقي من الشام في أيدي المسلمين وحكمهم فيه نافذ وأمرهم فيه ماض، فهو ما كان على ساحل بحر الروم من حد طرابلس وأنفه إلى نواحي يافا وعسقلان، لأن اللاذقية وما نزل عنها وحاذاها تحت جزيتهم ومقاطعتهم. وما عدا ذلك فللروم وقبضتهم وحوزتهم قد استولت عليهم أسيافهم والحكم فيه إليهم. وقد أقام كثير من أهلها فيما رضوا منهم فيه بالجزية، وأظنهم بآخرة صائرين إلى النصرانية آنفة من ذلة الجزية ورغبة مع حذق المؤونة في العز والراحة. فأما تقدير ما بقي منها لم أذكره، فمذ سنون كثيرة لم يقع لها قانون صحيح ولا استخراج على طريقته وصحته، وذلك أنها مذ سنة أربعين بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر وأكثرهم غرضه ما احتلبه في يومه وحصله لوقته لا يرغب في عمارة ولا يلتفت إليها برؤية ولا إشارة...»[2].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٣ ـ ١٧٣. انظر أيضاً: المقدسي، المصدر السابق، ص١٥٣ ـ ١٧٩.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص١٧٢.

٥ ـ **الباعث العسكري**، بشيء من المقارنة الموجزة يمكن التعرف إلى الأوضاع التي كانت سائدة في الغرب والشرق قبيل الحروب الصليبية. وهكذا بدأت الحملات الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الأولى التي وصلت إلى بلاد الشام عام (١٠٩٨م)، وكان عددها الإجمالي ثماني حملات أساسية بالإضافة إلى حملات فرعية حملت مجموعات من الغربيين إلى الشرق. فالحملات الأولى والثاينة والثالثة والسادسة اتجهت إلى بلاد الشام، بينما اتجهت اثنتان إلى مصر وهما الخامسة والسابعة، في حين اتجهت الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، بينما اتجهت الثامنة إلى أفريقيا، وقد استمرت هذه الحملات من الناحية العسكرية إلى حين سقوط مدينة عكا في فلسطين عام (١٢٩١م)، بالرغم من أن هذا التاريخ لا يعني انتهاء حاسماً للحركة الصليبية.

بدأت الحروب الصليبية ـ أو بالأحرى تجددت ـ عندما دعا البابا أوربان الثاني سنة (١٠٩٥م) في مجمع كليرمونت للقيام بحملة على الشرق الإسلامي، وقد عرفت هذه الحملة في التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى. وقد نشط البابا مع ملوك أوروبا لتنفيذ هذه الحملة بدعوى تخليص المسيحيين والحجاج من اضطهاد مزعوم من الأترك السلاجقة، والعمل على طرد المسلمين من آسيا بالجهد والعزيمة نفسها التي يجري بها طردهم من أسبانيا، لا سيما بعد اتفاق البابا مع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كوفين، وبعد موافقة أدهمار ـ أسقف بوي Puy ـ الذي أصبح المندوب البابوي في الحملة الأولى. كما وافق على مشروع الحملة الصليبية ريموند الرابع أمير تولوز وبروڤانس (١٠٨٨ ـ ١١٠٥م). وكرّس بطرس الناسك نفسه للدعوة لهذه الحملة بين الطبقة العامة، وكان أحد أوائل متقدمي الحملة باتجاه الشرق بعد أن استطاع تجميع الكثير من المسيحيين وإقناعهم بضرورة المشاركة بالحرب ضد المسلمين.

في عام ١٠٩٦م، وبعد وصول طلائع الحملة إلى البوسفور، قرّر قادتها الزحف على نيقية قاعدة السلطان قلج أرسلان. وكان عدد أفراد الحملة ما يقارب خمسة وعشرين ألفاً، ولكن استطاع السلاجقة مباغتتهم والقضاء عليهم، ومن بقي منهم على قيد الحياة عادوا إلى القسطنطينية، وظلوا تحت رعاية الإمبراطور الكسيوس حتى وصول حملة الأمراء.

وفي نيسان (أبريل) ١٠٩٦م تجمع في حوض الراين جمع كبير من الصليبيين

الألمان قدر عددهم بأكثر من عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة فولكمار (Volkmar). وفي الوقت نفسه تجمعت قوى أخرى في حوض الراين بزعامة الأمير إميخ (Emich). وكانت المجموعة الأولى من حملة الأمراء برئاسة «جودفري أف بوايون» (Godfrey of Bouillon) أمير لوثر نجيا وبرفقته شقيقه بلدوين البولوني. وفي الوقت نفسه اتجه إلى الشرق «بوهيموند النورماني» (Bohemond) على رأس حملة نورمانية كبرى وبصحبته ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية. كما وفدت مجموعة بروفانسية بقيادة ريموند الرابع، ومجموعة صليبية أخرى تألفت من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمنديا. ابن وليم الفاتح(١).

تجمعت قوات الحملة الصليبية كلها على الشاطئ الآسيوي قرب أزمير، وتم الاتفاق على بدء الهجوم على مدينة نيقية القاعدة الأساسية لقلج أرسلان ومقر حكمه في أواخر نيسان (إبريل) سنة (١٠٩٧م). وبالفعل ففي ٦ أيار (مايو) (١٠٩٧م) أدرك الصليبيون نيقية، وبدأوا بمحاصرتها ومهاجمتها ومن ثم انتصروا على قلج أرسلان وحاميته. وكان سقوط نيقية مشجعاً للصليبيين للتقدم نحو ضورليوم حيث جرت فيها معركة في أول تموز (يوليو) (١٠٩٧م) كانت نتيجتها أيضاً لمصلحة الصليبيين ضد الأتراك (السلاجقة وبنو دانشمند).

بدأ الصليبيون زحفهم تباعاً، بالاستيلاء على المناطق التي كانوا يمرون فيها مثل: هرقلة وقيصرية، وبلاكنتيا، والرها، وبعض المناطق الأرمنية وفي مقدمتها مرعش. ومنها توجهوا إلى بلاد الشام، ووصلوا جسر الحديد على نهر العاصي في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) (١٠٩٧م). والأمر اللافت للنظر هو أن بعض القيادات الإسلامية لم تدرك تماماً طبيعة وخطورة الحركة الصليبية على مصير المنطقة، بحيث إن الفاطميين في مصر لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٨٢ ـ ١١٣.

Runcima, Op.cit.; vol.I, pp.101 - 102, 108 - 109, Grousset; Histoire des Croisades et de Royaume France de Jerusalem, vol.I, p.4. Foucher de chartres; Histoire occid. T.3. pp.331 - 332.

خصومهم العباسيين في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام، على قاعدة أن تكون أنطاكية للصليبيين ويكون بيت المقدس للفاطميين. ولم يعلم الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ ـ ١١٠١م) ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، بأن أنطاكية لم تكن الهدف الحقيقي للصليبيين، بينما كان بيت المقدس أحد أهم توجهاتهم.

وفي العام (١٠٩٨م) جرت معارك عسكرية كثيرة بين الصليبيين والأتراك، توجت بإعلان إمارة أنطاكية إمارة صليبية. وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) (١٠٩٨م) عقد الصليبيون اجتماعاً في كنيسة القديس بطرس، وأجمعوا على قرار بضرورة استئناف الزحف نحو بيت المقدس. وبالفعل ففي ١٣ كانون الثاني (يناير) (١٠٩٩م) خرج ريموند من معرة النعمان على رأس جيوشه معلناً الزحف نحو الأراضي المقدسة. وتحركت الحملة الصليبية بعد أن ظلت خمسة عشر شهراً في شمال الشام من تشرين الأول (أكتوبر) (١٠٩٧م) لغاية كانون الأول (ديسمبر) (١٠٩٨م)[١].

وبعد السيطرة على مدن الشام، اتجه الصليبيون نحو البقاع فسيطروا عليه، كما سيطروا على حصن الأكراد، وعرقة شمالي طرابلس وطرطوس. ثم سيطروا على طرابلس ذاتها وعلى بيروت وصيدا وصور وقيسارية والرملة واللد. وفي ٦ حزيران (يونيه) سنة (١٠٩٩م) زحف الصليبيون مباشرة نحو بيت المقدس، بعد صدمة تلقاها الفاطميون من فشلهم في إقناع الصليبيين بالتحالف معهم دون انتزاع بيت المقدس منهم. وبعدما يقارب الأربعين يوماً ـ بين ٧ حزيران (يونيه) (١٠٩٩م) ١٤ تموز (يوليو) (١٠٩٩م) ـ وبعد ارتكاب مجزرة رهيبة داخل المسجد الأقصى، استطاع الصليبيون الاستيلاء على القدس الشريف واخضاعه لهم مباشرة.

بعد سقوط بيت المقدس قام الصليبيون باحتلال نابلس وعسقلان والجليل وطبريا[٢]. وكان من الطبيعي أن تكون الخطوة التالية للعمل الحربي الصليبي هي

---

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص١٧٧.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول العلاقات الحربية بين المسلمين والصليبيين يمكن العودة إلى بعض المصادر القديمة، ومنها: أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جا، جـ٢. =

العمل الإداري. لهذا عقد الصليبيون اجتماعات عديدة في بيت المقدس للنظر في تنظيم الدولة التي أقاموها في الشرق الأدنى وبعد منازعات وقع اختيارهم على الدوق الفرنسي «جودفري أُف بوايون» (Godfrey of Bouillon) ليكون ملكاً على بيت المقدس ثم عندما مات هذا الملك إثر إصابته بسهم أمام أسوار عكا سنة (١١٠٠م) اختار الصليبيون أخاه «بلدوين» الأول ليحل محله ولقّب بالملك، وصارت دولة بيت المقدس تعرف بمملكة بيت المقدس أو المملكة اللاتينية، ولقد حول الصليبيون جميع مساجد القدس إلى كنائس وخاصة مسجد قبة الصخرة الذي كان عبد الملك بن مروان قد بناه على أنقاض مسجد عمر بن الخطاب ولقد أقام (فرسان تامبلا) «فرسان الداوية» (Temples) في المسجد الأقصى بعد أن حولوه إلى كنيسة وأطلقوا عليه اسم معبد سليمان. ومن ثم عرف هؤلاء باسم فرسان المعبد أما تسميتهم بالداوية فهي كلمة سريانية تعني الفقراء. أما عن الوسائل الدفاعية الخاصة بتنظيم الدفاع عن «مملكة بيت للقدس» فقد طبق فيها نظام الإقطاع الحربي السائد في العصور الوسطى الذي يقوم على استثمار الأراضي في مقابل الدفاع عن البلاد والاشتراك في جيوش الدولة. وإلى جانب هذا النظام الإقطاعي كان يوجد جيش يتقاضى عناصره رواتب مالية. ومن بين التنظيمات العسكرية الأخرى في مملكة بيت المقدس الأنظمة العسكرية القائمة على أسس دينية، وقد قامت على أكتاف جماعة الفرسان الداوية والاسبتارية وهم من الجنود الرهبان الفقراء الذين نذروا أنفسهم وأرواحهم لخدمة الدين والدفاع عن الأراضي المقدسة. أما المناطق الساحلية فقد كان الدفاع عنها في أيدي الجاليات الإيطالية مثل أهالي البندقية وجنوى وبيزا وكان لديها من الأساطيل والمعدات الحربية ما يمكّنها من الدفاع عن هذه المناطق حرصاً على مناطقها التجارية، وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتم الصليبيون ببناء الحصون حول بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى وأهمها الحصون الواقعة عبر الأردن حيث تمر طريق القوافل والحج بين مصر والشام والحجاز، ومن أشهر هذه الحصون حصن الكرك في جنوب فلسطين ويتبعه ميناء أيلات في العقبة، ويمكن القول بأن

= وكتاب ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، وكتاب: الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي وسواها من المصادر الأخرى.

انتصار الصليبيين على المسلمين أدى إلى إقامة عدد من الإمارات والممالك الصليبية، ومنها: إمارة الرها على الفرات، وإمارة أنطاكية في شمالي الشام، وإمارة طرابلس على البحر المتوسط، ثم كان أقواها مملكة بيت المقدس.

والحقيقة فإن وجود هذه الممالك أدى إلى إثارة الوعي واليقظة الإسلامية للعمل على التخلص من العناصر التي جاءت من الخارج للسيطرة على المناطق العربية والإسلامية، وقد تيسر للمسلمين بعد هذه الفترة رجال عملوا على القضاء على المخطط الصليبي، وبين هؤلاء عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي[(١)].

أما فيما يختص بعماد الدين زنكي الذي حكم من (١١٢٧ حتى ١١٤٦م) فهو من مشاهير الأمراء الأتراك سلمه السلطان محمود السلجوقي أتابكية إمارة الموصل وحلب سنة (١١٢٧م). وكانت شهرته قد تزايدت منذ العام (٥٠٦هـ ـ ١١١٢م)، حين اشترك في الهجوم على طبرية[(٢)]. ومعنى ذلك مجاورته لأمارتي الرها وأنطاكيا الصليبيتين، ورأى عماد الدين زنكي ضرورة القضاء على إمارة الرها خاصة؛ لأنها تحول دون الاتصال بين إمارتي الموصل وحلب ومن أجل ذلك بدأ بتقوية جيشه وحصونه وجواسيسه، وقد استغل عماد الدين زنكي أيضاً الخلاف الواقع بين أمير الرها (جوسلين) وبين أمير أنطاكية (بوهمند) أو يموند، فبدأ بشن الغارات عليها فاستطاع أن يستنزف قوة الجيش في إمارة الرها مما اضطر أمير الرها وجنودها إلى مغادرة إمارتهم، وبالتالي تمَّ استيلاء عماد الدين زنكي عليها سنة (١١٤٤م)، ولقد أثار هذا الانتصار الإسلامي على الصليبيين وجهاً من الحماس بين المسلمين فأقبلوا على الجهاد[(٣)]. غير أن عماد الدين زنكي لم يعش طويلاً بعد استيلائه على إمارة الرها، فقد اغتيل أثناء نومه بيد بعض غلمانه سنة (٥٤١هـ ـ ١١٤٦م)، وخلفه على حكم إمارة حلب ابنه الملك العادل نور الدين محمود زنكي، أما حكم منطقتي الموصل والرها، فقد آلت لابنه البكر سيف الدين غازي بن زنكي.

---

(١) Lane-Poole; Saladine... p.34.

(٢) Lane-Poole; Ibid. p.35.

(٣) للمزيد من التفصيلات عن نشاط عماد الدين زنكي انظر: Lane-Poole; Op. Cit; pp.42-49, 55-57.

وكان نور الدين محمود (٥٤٠هـ ـ ١١٤٦م/ ٥٦٩هـ ـ ١١٧٤) قد حكم في حلب بإمكانيات ضعيفة لهذا رأى ضرورة التسامح مع المذاهب الإسلامية كلها، وقد ساعده ذلك على تهيئة المسلمين للجهاد ضد الصليبيين، ولم يستطع نور الدين في بادئ الأمر القيام بأي عمل حربي ضد إمارة أنطاكية القريبة منه، وقد فضّل البقاء في إطار مملكته الصغيرة والدفاع عنها ضد الخطر الصليبي الجديد الذي ظهر في الأفق في إطار الحملة الصليبية الثانية التي كان سببها استرداد إمارة الرها التي سبق أن استولى عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين.

**الحملة الصليبية الثانية**[1] (٥٥٢هـ ـ ١١٤٨م): من أهم الشخصيات التي اشتركت بالحملة الصليبية الثانية الامبرطور الألماني كورات الثالث، وملك فرنسا لويس السابع، غير أن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً فقد تمكن الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى من صدها والانتصار عليها واضطر الملكان الألماني والفرنسي إلى اتخاذ طريق البحر إلى إمارة أنطاكية الصليبية وعوضاً من أن يهاجم الصليبيون ممتلكات نور الدين وشقيقه سيف الدين لاستعادة الرها إذا بهم يستجلبون اقتراح بيت المقدس بمهاجمة دمشق لأنها قريبة من المدينة المقدسة، ولأنها تشكل خطراً على الصليبيين. وبالفعل فقد اتجه الملكان إليها وحاصراها بواسطة بعض ما لديهما من جيوش ومعدات في عام (١١٤٨م)، غير أن الجيش في دمشق استطاع المقاومة وإفشال حصار المدينة، الأمر الذي اضطر الملكين الألماني والفرنسي إلى الانسحاب والسفر إلى بلديهما، وكان فشل الحملة الصليبية الثانية قد ضاعف أيضاً من حماس المسلمين، فاستغل السلطان نور الدين محمود هذه الروح الإسلامية فهاجم إمارة أنطاكية وانتصر على أميرها بوهمند واستولى على جميع المراكز الصليبية الواقعة بين حلب وأنطاكية، وبالرغم من أن نور الدين لم يستطع دخول أنطاكية غير أنه بهذه الانتصارات جعل أميرها مشلول الحركة داخل مدينته لا يستطيع القيام بأي عمل هجومي، وأخذ نور الدين يعمل على توحيد الإمارات الإسلامية، وقد ساعد على ذلك وفاة شقيقه سيف الدين غازي ملك الموصل والأمير معين الدين صاحب دمشق معاً، في سنة واحدة (١١٤٩م)، وقد أتيحت له الفرصة لضم الموصل ودمشق إلى مملكته، وكان معنى ذلك قيام دولة إسلامية

---

(١) عن جميع هذه الحملات الصليبية انظر: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص٢٥ ـ ١١٩.

متحدة تمتد من الموصل وحلب شمالاً إلى دمشق جنوباً، وكان قيامها نوعاً من التوازن بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية في الشرق العربي.

وفي هذه الأثناء حدث نوع من التسابق بين نور الدين وبين الصليبيين لاحتلال مصر نظراً لأهميتها وموقعها المهم بالنسبة إلى بيت المقدس وإلى بلاد الشام معاً وقد حدثت معارك بين الصليبيين والمسلمين من أجل السيطرة على مصر انتهت هذه المعارك باتفاق على الانسحاب سوياً من مصر، غير أن هذه المعارك لم تلبث أن عادت وتكررت وانتهى الأمر إلى احتلال جيوش نور الدين زنكي لمصر وانسحاب الصليبيين منها، وكان انتصار المسلمين وضمهم مصر بمثابة عامل هام لتوحيد الجبهة الإسلامية، فقد أصبحت المملكة الصليبية ولأول مرة بعد وجودها تواجه وحدة مصرية شامية. ومن الشخصيات التي قامت بدور بارز في بعث الحركة التوحيدية الإسلامية شخصية الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو من أصل كردي والده نجم الدين أيوب قائد قلعة تكريت شمالي بغداد، وكان صلاح الدين قد خلف عمه في وزارة مصر وفي قيادة جيش نور الدين فيها[1]. وواجهت صلاح الدين بعض الصعوبات في مصر من جانب بعض المصريين الذين رفضو السيطرة الشامية، ومن جانب الصليبيين الذين كانوا يطمعون في احتلال مصر، ثم من جانب نور الدين نفسه الذي كان يخشى أن يستقل صلاح الدين بحكم مصر ولكن صلاح الدين استطاع بفضل حكمته ومساعدة والده نجم الدين أيوب وأخوته أن يتغلب على الكثير من الصعاب، وقد ساعده أيضاً وفاة الملك العادل نور الدين سنة (١١٧٤م) تاركاً وراءه ابنه إسماعيل الذي كان في الحادية عشرة من عمره، وكذلك توفي في السنة نفسها ملك المملكة اللاتينية في فلسطين الذي ترك بدوره ابناً مريضاً وعاجزاً لم يبلغ سن الرشد بعد وهو بودوان الرابع الملقب بالأبرص، وكانت فرصة لصلاح الدين

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن حياته انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٤١ ـ ٤٤. وقد انتشر في دمشق أقوال مأثورة عن صلاح الدين منذ عهد الملك نور الدين، وتلك الأقوال هي: «الناصر للصليب كاسر، وللفرنج خاسر، وللقدس طاهر، من كل رجس فاجر، الظاهر بالله ظاهر، قاتل كل كافر، وللتتار قاهر، من كل فاجر وعاهر، الناصر النور الباصر، بالشرق ظافر، يطيها بالخف والحافر، بعد ثلاثة تواتر». وقد ورد ذلك في الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٨، ص٢٧٥.

أن يخطط لمستقبل العلاقات العسكرية مع الصليبيين على النحو التالي:

١ - فترة الاستعداد وتوحيد المشرق العربي.

٢ - العمل على استرداد بيت المقدس ومحاولة الانتصار على الصليبيين.

٣ - العمل على مواجهة ملوك غربي أوروبا لا سيما في حملتهم الثالثة.

## ➢ الفترة الأولى:

وهي فترة الاستعداد امتدت نحو ١٥ سنة (٥٦٧هـ - ٥٨٢هـ)، وقد استطاع صلاح الدين خلال هذه الفترة أن يسيطر على بلاد النوبة واليمن الجنوبي وعلى بلاد الشام والجزيرة وأن يكوّن جبهة إسلامية موحدة أحاطت بالمملكة الصليبية في فلسطين في كل جانب، وفي هذه الفترة أيضاً اهتم صلاح الدين بتقوية الجيش والأسطول وتحصين الثغور، ولم يأت عام (٥٨٢هـ - ١١٨٦م) إلا وكان قد تمكن من تحقيق الوحدة التي كان ينشدها.

## ➢ الفترة الثانية:

وتمثلت بعد عملية الوحدة، بالقيام بهجوم إسلامي على مملكة الصليبيين عام (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) وكان صلاح الدين قد اتخذ من ممارسات بعض الأمراء الصليبيين الاستفزازية سبباً مباشراً لهجماته مثل: ممارسات أحد فرسان مملكة بيت المقدس المعروف باسم رينو دي شاتيو. وفي أواخر عام (١١٨٦م) قام صلاح الدين بهجمات على بعض المناطق الصليبية التي كانت تتعرض للقوافل الإسلامية والتي كانت تسافر من مصر إلى بلاد الشام[١]. وفيما بعد هاجم مدينة طبريا مما أثار حفيظة الصليبيين فتداعوا لمجلس حربي عقد في عكا قرروا فيه الزحف إلى طبريا. وبالفعل فقد بدأ الصليبيون بالهجوم بينما حرص صلاح الدين على أن يعزل الصليبيين في تل صخري قاحل لا توجد فيه المياه وهو تل حطين[٢]. ولما ابتدأ القتال بين الجانبين تبين بأن موقف المسلمين كان أقوى من موقف الصليبيين الذين حوصروا في هذا التل وانتهت المعركة بانتصار المسلمين

---

(١) انظر: Grousset; Histoire des Croisades. 11, p.116.

(٢) انظر: د. الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ١ (الأيوبيون)، ص٧٦ - ٩٠.

واستسلام الصليبيين وفرار زعيمهم ريموند الثالث. وعلّق المؤرخ ابن الأثير المعاصر لتلك الفترة على موقعة حطين بالقول: «كل من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى». فيما أشار المقريزي بأخذ المسلمين صليب الصلبوت «وأسروا الإبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وعدة ملوك آخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة. ثم قدم الإبرنس أرناط وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاسبتارية...»[١].

وبعد هذه الموقعة بدأ صلاح الدين يسيطر على المدن الصليبية التي عاملها معاملة حسنة، وقد استولى على عكا ويافا وحيفا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغزة. وبذلك تهيأ له اتصال بحري سريع وسهل بين قسمي دولته؛ أي بين الشام ومصر[٢]. ولم تستعص عليه سوى صور بسبب موقعها الجغرافي، ثم اتجه صلاح الدين إلى الداخل لمحاصرة مدينة القدس فاضطرت إلى التسليم يوم الجمعة ليلة الإسراء في ١٧ رجب سنة (٥٨٣هـ ـ ١١٨٧م)[٣] وكانت الشروط التي فرضها صلاح الدين على المدينة في غاية التسامح والكرم، مما دعا بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين للقول: لم تتجل عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة، فقد سمح لمن يحب أن يغادر المدينة حاملاً أمتعته وأمواله، أما النصارى الشرقيون فقد اعتبروا من أهل البلاد وعوملوا معاملة المواطنين. كما أن صلاح الدين لم يحاول أن يهدم الكنائس، بل تركها وكان على رأسها كنيسة القيامة، واكتفى بإعادة المساجد التي حولت إلى كنائس لا سيما المسجد الأقصى، ولقد واصل صلاح الدين فتوحاته فاسترد بقية المدن الشامية باستثناء أنطاكية وطرابلس وصور، وقد عبّر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة إلى أخيه توران شاه باليمن: «إن بلاد الشام لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً».

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، ص٩٣.

(٢) **Stevenson; The Crusaders in the East, p.249.**

(٣) انظر: المقريزي، المصدر السابق، جـ١، ص٩٦.

## ➢ الفترة الثالثة:

كان لانتصارات صلاح الدين الأيوبي ردود فعل خطيرة في غربي أوروبا الأمر الذي دعا البابوية والملوك والأمراء للدعوة للقيام بحملة صليبية ثالثة، وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غربي أوروبا هم:

١ ـ فريدريك بربروسا إمبراطور ألمانية.

٢ ـ رتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا.

٣ ـ فيليب أغسطس أو الثاني ملك فرنسا.

وقد دامت هذه الحملة الصليبية بالمشرق ثلاث سنوات (١١٨٩ ـ ١١٩٢م) وكان الإمبراطور فريدريك ملك ألمانيا أول من اتجه إلى بلاد الشام ولكن عندما اقترب من هذه المنطقة انتشر الطاعون بجيشه وفتك بجنوده، ثم لم يلبث الأمبراطور نفسه أن غرق في نهر بالقرب من أنطاكية. وعلى أثر ذلك اضطر أتباعه إلى العودة إلى بلادهم. أما فيليب الثاني ورتشارد قلب الأسد فقد وصلا إلى الشام عن طريق البحر في وقت واحد تقريباً وبدءا بمحاصرة مدينة عكا براً وبحراً وركزا في هذا الحصار جميع قواتهما، وقد حاول صلاح الدين إنقاذ هذه المدينة ولكنه لم ينجح، فاستسلمت المدينة في عام (٥٨٧هـ ـ ١١٩١م) بعد حصار دام سنتين تقريباً، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدينة عكا أهم قاعدة للصليبيين في بلاد الشام، وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين فيليب الثاني ورتشارد قلب الأسد، الذي حاول استرجاع بيت المقدس ولكنه فشل في محاولته أمام قوات صلاح الدين، غير أن قلب الأسد استطاع السيطرة على بعض المدن الساحلية الجنوبية من عكا إلى يافا ونظراً للخلافات الداخلية في إنكلترا اضطر ريتشارد للعودة إليها بعد أن عرض الصلح على صلاح الدين عرف بصلح الرملة في شعبان (٥٨٨هـ) أيلول (١١٩٢م)، ومن أهم شروطه:

١ ـ احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلة من عكا إلى يافا.

٢ ـ أن تكون منطقة مدينة عسقلان منطقة حيادية وأن لا يستكمل تحصينها من جديد من قبل الصليبيين.

٣ ـ تبقى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الإسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها.

٤ ـ يسيطر المسلمون على منطقة ساحلية على البحر المتوسط تشمل صيدا ـ بيروت.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة (١١٩٢م) رحل رتشارد إلى بلاده وانتهت بذلك **الحملة الصليبية الثالثة** التي اعتبرها البابا حملة فاشلة، لأنها لم تحقق الغرض الذي قامت من أجله وهو استعادة بيت المقدس، غير أنّ صلح الرملة أقر لأول مرة مبدأ التعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين، ولكن لا يعني ذلك أن الحملات الصليبية توقفت على أراضي المسلمين وإنما استمرت بين الفترة والفترة.

**الحملة الصليبية الرابعة**: كان من المقرر أن تتجه إلى مصر ولكنها اتجهت نحو القسطنطينية عام (١٢٠٤م) للانتقام من ملكها الأكسيوس الثالث.

أما **الحملة الصليبية الخامسة**(١): فهي الحملة التي قام بها الملك السابق لبيت المقدس على دمياط عام (١٢١٨م) بغية احتلال مصر وحرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة العسكرية المهمة. غير أن هذه الحملة انتهت بالفشل بعد مقاومة السلطان الكامل ناصر الدين محمد(٢).

أما **الحملة الصليبية السادسة**: فهي الحملة التي خرج بها الإمبراطور فريدريك الثاني من صقلية إلى فلسطين عام (٦١٨هـ ـ ١٢٢١م) في عهد السلطان الكامل محمد.

أما **الحملة الصليبية السابعة**: فهي الحملة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع على مصر سنة (١٢٤٨م).

استمر الصراع بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في عهد دولة المماليك أيضاً لا سيما في عهود الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وابنيه الأشرف خليل والناصر محمد، وبعد سقوط عكا آخر معقل صليبي في بلاد الشام عام (١٢٩١م)، انتقل الصراع بين المسلمين والصليبيين إلى جزر البحر الأبيض

---

(١) انظر: Grousset; Histoire des Croisades. 111, p.211.
وهناك دراسة قيمة متخصصة عن هذه الحملة للدكتور سعيد محمود عمران تحت عنوان: الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي برين على مصر ١٢١٨ ـ ١٢٢١م، ٦١٥ ـ ٦١٨هـ).

(٢) للمزيد من التفصيلات العسكرية انظر: المقريزي: السلوك، جا، ص١٩٤ ـ ٢٠٩.

المتوسط وعلى رأسها جزيرة قبرص التي صارت مركزاً للعدوان الصليبي على سواحل المسلمين وتجارتهم في مصر والشام، وانتهى الصراع بين المسلمين والصليبيين باحتلال المسلمين لجزيرة قبرص في عهد السلطان الأشرف برسباي عام (١٤٢٦م)، ويرى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية لم تنته بسقوط دولة المماليك في مصر والشام بل استمرت هذه الحروب بين الصليبيين والأتراك العثمانيين(١).

والحقيقة فإننا لسنا هنا بصدد الحديث عن الحملات الصليبية، بقدر ما يهمنا من هذه الدراسة التوصل إلى النتائج الحضارية، ودراسة العلاقات التي كانت قائمة بين الغربيين المسيحيين وبين الشرقيين من المسلمين والمسيحيين معاً.

وقد كانت العلاقات الحضارية والتمازج الثقافي والعلمي بين الإسلام والنصرانية في إسبانيا وصقلية أكثر أهمية وعمقاً مما كانت عليه في بلاد الشام، ومن أسباب ذلك أن إسبانيا وصقلية شهدت نشوء حواضر ومراكز علمية وحضارية أكثر مما شهدته بلاد الشام، ثم إن المملكة اللاتينية في القدس لم تكن مركزاً علمياً للمعارف والعلوم الإسلامية. وبالرغم من ذلك فقد شهدت بلاد الشام مؤثرات وعلاقات متبادلة بين المسيحيين والمسلمين وبين الحضارتين الغربية والإسلامية(٢)، خاصة وأن العلاقات بين الجانبين لم تكن كلها علاقات حربية مستمرة، بل قامت بينهما علاقات من الود والصداقة والتأثيرات المتبادلة، لأن إقامة الصليبيين في المنطقة لمدة مئتي سنة لا بد من أن يؤدي إلى نوع من التمازج البشري والفكري والعلمي والاقتصادي والاجتماعي والمعماري والطبي وسوى ذلك من المؤثرات الحياتية. ومما ساعد على توثيق العلاقات بين الجانبين أن المستعمرات الصليبية كانت قائمة وسط إمارات إسلامية في بلاد الشام مثال: حلب وحمص وحماه ودمشق. وقد سهّل ذلك اتصال الصليبيين بالمسلمين

---

(١) في عام (١٩١٨م) وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية وحلفائها، دخل الجنرال غورو إلى دمشق ووقف على قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي وقال: ها قد جئناك صلاح الدين، اليوم انتهت الحروب الصليبية!.

(٢) هناك دراسة قيمة حول حدود الالتقاء والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق، نشرها د. جوزف نسيم في كتابه: دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص١٢٨ ـ ١٥٤.

والقدرة على فهمهم عن كثب ودراية ومحو الصورة غير الصحيحة التي أخذوها عن المسلمين قبل مجيئهم إلى المنطقة[1]. وحول ذلك يقول أرنست باركر (Ernest Barker): إنه ينبغي أن ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها فصل من فصول تاريخ المدنية في الغرب، لا على أنها توسع وامتداد للسيطرة والديانة الغربية في الشرق. وأضاف بأن الغرب اتصل بالشرق، أو بالأحرى اتصل بشيء يخالفه ويغايره، غير أنه في أحوال كثيرة يسمو عليه، بل أنه لأسمى منه وأعلى. وبينما نشأ عن الحروب الصليبية روح جديدة اشتهرت بالتسامح والقدرة على الموازنة والتقدير، فما نجم عن الحروب الصليبية من المعرفة والخبرة الجديدة، هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشاعري في آن واحد[2].

وبالرغم من فضل الحضارة العربية والإسلامية على الغرب الأوروبي، غير أن الأوروبيين استمروا في أطماعهم للسيطرة على الشرق. فبعد اندحارهم عن بلاد الشام في عهد المماليك عام (١٢٩١م)، غير أن مؤامراتهم الاستعمارية استمرت ضد العرب والمسلمين في العهدين المملوكي والعثماني، فأرادوا أن يرثوا دولة الخلافة العثمانية وهي التي عرفت، في أواخر عهدها، باسم «الرجل المريض»، فتآمروا عليها إلى أن أسقطوها في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وعملوا على تقسيم البلاد العربية والإسلامية بين بريطانيا وفرنسا، كما قسموا العالم الإسلامي وسيطروا عليه وعلى خيراته، كما سنرى لاحقاً.

---

(١) انظر: د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص١١٩ ـ ١٢٩.

(٢) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص١٤٣ ـ ١٥٠.

# الفصل الثاني

## الاستشراق
## نشأته، مفهومه، أهدافه،
## أدواره في بلاد العرب والمسلمين

# الاستشراق نشأته، مفهومه، أهدافه، أدواره في بلاد العرب والمسلمين

## ➢ ظاهرة الشّرق السّياسي والجغرافي والتّاريخي والحضاري:

يجدر بنا في بداية هذا البحث التّعرّف على مفهوم الشّرق، وتطوّر دلالاته التّاريخيّة، وأبعاده الجغرافيّة، واختلافاته.

إنّ لفظة «الشّرق» رغم كثرة استعمالها منذ ألفي سنة على الأقل، ليس لها مفهوم واضح محدد ثابت. فهي تفيد أحياناً: مجموعة معيّنه من البلاد في آسيا الغربيّة، وأفريقيا الشماليّة؛ وهي أحياناً أخرى تشمل في نظر الأوروبيين، جميع أقطار آسيا ما عدا (سيبيريا). على أنّه كثيراً ما يطلق على (الصّين) و(اليابان) اسم خاص هو «الشّرق الأقصى». بينما هناك اختلاف في تحديد البلاد التي يتضمّنها مفهوم «الشّرق الأوسط» و«الشّرق الأدنى». فالشّرق الأدنى هو اصطلاح جغرافي حديث[1].

ولفظة «الشّرق» في الأصل، من المصطلحات الفلكيّة. وهي لا تدل، إلّا على الجهة التي تشرق منها الشّمس. فكلّ بقعة من الأرض، هي شرق وغرب، في وقت واحد، حسبما يكون موقع الشّخص الذي يتحدّث عن هذه البقعة، أمّا وصف قارّة (آسيا) خاصة، بأنّها الشّرق، وقارّة (أوروبا) بأنّها الغرب، فيرجع إلى زمن اليونان، عندما كان النّاس يعتقدون، بأنّ الأرض مسطّحة، وأنّ القسم المعمور منها محدود.

وإذا تأملنا في كتاب (هيرودوت)[2]، تبيّن لنا أنّ مفهومي الشّرق (آسيا)،

---

(١) الإسلام في المعترك الحضاري، ص١٢.

(٢) كتاب «التّاريخ» (Historia).

والغرب (أوروبا)، قد برزا لأوّل مرّة، خلال الحرب الفارسيّة. فإنّ الاصطدام بالفرس قد كوّن الوعي الذّاتي، لدى اليونانيين، الذين كانوا ينظرون إلى جميع الشّعوب الأخرى كبرابرة، رغم اعتراف كتّابهم بأنّ بعض هذه الشّعوب؛ كالمصريين والبابليين، كانوا يتقدّمونهم في الحضارة. وكانت (أوروبا) في نظر اليونانيين، تقتصر على العالم الهلليني[1]، بينما تعتبر بلاد السّكيت والجرمن والسَّلْت، من عالم البرابرة.

وفي عهد الرومان، عندما كانت (روما) تعتبر مركز المعمورة، أطلقت لفظة (الشّرق)، على البلاد الواقعة، في الجهة الشّرقيّة من إيطاليا. إلّا أنّ الرومان كانوا في بعض الحالات يقصدون بالشّرق، مملكة فارس القديمة، وفي ظروف أخرى الإمبراطوريّة المكدونيّة. ثم اكتَسَبَ اصطلاح (الشّرق)، مضموناً سياسيّاً محدوداً، في عهد (فيليب العربي)، إذْ سَمَّى هذا الإمبراطور أخاه، (يوليوس بريسقوس) حاكماً للشرق (Rector Orientis). وكانت لفظة الشّرق هنا تعني وحدة إداريّة، تشمل خمس ولايات، من الإمبراطوريّة الرّومانيّة هي:

١ ـ الشّرق بالمعنى الضّيّق (Oriens)، ويتألّف من مقاطعات: (ليبيا)، ومصر، والجزيرة العربيّة، وفلسطين، وفينيقيّة وسوريّة، والفرات، و(كيليكا) وقبرص وما بين النّهرين.

٢ ـ ولاية (بونتيكا)، الجسر الممتدة من قبادوسيا حتّى أرمينية.

٣ ـ (آسيانا) من فريجيا حتّى الدّردنيل.

٤ ـ (تراقيا).

٥ ـ (موزيا) من رومانيا حتّى اليونان وكريد.

وكانت عاصمة الولايات الشّرقيّة كلّها، هي أنطاكية، حيث كان يقيم الحاكم العام، (Praefectus Praeloris).

وقد ازداد الاختلاف السّياسي، بين الشّرق والغرب، منذ أن انقسمت الإمبراطوريّة الرومانيّة في سنة (٣٩٥م)، إلى الإمبراطوريّة الغربيّة، والإمبراطوريّة الشّرقيّة، التي كانت تسمّى أيضاً الشّرق (Oriens). وبالإضافة إلى ذلك نشأ في

---

(١) العالم الهيليني: بلاد اليونان، وشواطئ آسيا الصغرى، وصقلّية، وجنوب إيطاليا.

العصور التالية الخلاف المذهبي بين البابويّة في روما، وبين البطريركيّة في القسطنطينيّة، الذي أدّى إلى الانفصال، وإلى قيام الكنيسة الشّرقيّة (الأرثوذكسيّة).

ثم تبدّل مفهوم (الشّرق) بعد ظهور الإسلام، وتأسيس الدولة الإسلامية العربيّة، فأصبح يطلق بوجه عام على البلاد الإسلاميّة، وفي أثناء الحروب الصّليبيّة، صار الدّين الإسلامي رمزاً للشرق، والدّيانة المسيحيّة (الكاثوليكيّة) رمزاً للغرب.

ومرّة أخرى حصل تحوير طفيف في مضمون لفظة (الشّرق)، بعد قيام الأتراك العثمانيين، واتساع فتوحاتهم في أوروبا، فأصبح الشّرق في نظر الأوروبيين، مرادفاً للدولة العثمانيّة. ولذلك أطلقوا اسم (المسألة الشّرقيّة) على مجموعة المشكلات التي نجمت عن الاصطدام بين العثمانيين والأوروبيين، وعن التضارب في سياسة الدول الأوروبيّة، تجاه الدولة العثمانيّة، وتقرير مصيرها، بعدما ظهر عليها الانحطاط والتفسّخ والتّفتت. تبعاً لهذه التّقلّبات التّاريخيّة، كان يتغيّر مدلول (الشّرق والغرب)، ويختلف امتدادها الجغرافي. وبينما تقدّمت حدود أوروبة في عهد الإسكندر المقدوني، حتّى حوض السند، وتوقفت في عهد الرومان عند حوض الفرات، إذا بها تتقهقر بعد ظهور الإسلام وفتوحاته، وترجع حتّى أبواب (فينّا) سنة (١٥٢٩م) في عهد العثمانيين[١].

لقد كان للشرق الإسلامي أهميّة كبيرة على خريطة العالم السّياسيّة، ذلك لأنّه وطن أمم أدّت أكبر دور في التّاريخ الإنساني، لأنّه صلة بين الشّرق والغرب، وبين أوروبا وأمريكا، لأنّه قلب العالم النابض، روحيّاً ودينيّاً[٢].

يتبيّن من ذلك، أنّ لفظة (شرق)، عبارة عن اصطلاح سياسي جغرافي تاريخي، يشير إلى النزاع بين الفرس واليونان في القديم، وبين الإسلام والمسيحيّة في القرون الوسطى، وإلى الاصطدام بين الدّولة العثمانيّة، والدّول

---

(١) انظر: مجلّة المجتمع العلمي العربي، مقال للسيّد محمد كامل عيّاد، تحت عنوان: صفحات من تاريخ الاستشراق، مجلد رقم ٤٠ سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥م، ص١٦١ وما بعدها.

(٢) انظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ دار الكتاب العربي لبنان، (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م).

الأوروبيّة في العصور الحديثة، كما يتضمّن شعوراً بالفروق العقليّة والثقافية والحضارة بين شعوب أوروبا من جهة، وشعوب آسيا وأفريقية من جهة ثانية.

بسبب هذه النظرة الإجماليّة السطحية، غفل الكثيرون عن الفروق والتناقضات بين الشّعوب الأوروبيّة نفسها، فشاعت مصطلحات، مثل: الغرب، أو الحضارة الغربيّة، أو العقليّة الغربيّة. فهل يقصد بالغرب مثلاً، القارّة الأوروبيّة كلّها، بما في ذلك، البلقان وروسيا وسائر البلاد السّلافيّة، أم بعض أجزاء أوروبا فقط؛ كفرنسا وإنكلترا وإيطاليا، وبلجيكا وهولندا واسكندينافيا؟

ألم نشاهد في هذه السنوات تطوّراً جديداً لمفهومي الشّرق والغرب، إذ أصبحا يرمزان إلى الاتّحاد السوفياتي السّابق والدول الاشتراكية من جهة، ثمّ إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة ودول الحلف الأطلسي من جهة ثانية. فلفظة (الشّرق) في الصّحف والخطب السّياسيّة إنّما كانت تعني الاتحاد السوفياتي وحلفاءه. أمّا البلاد التي كانت تطلق عليها هذه اللفظة في السّابق، فلا بدّ من تحديدها باصطلاحات خاصة، مثل: الشّرق الأدنى، أو الشرق الأوسط، أو الشّرق الأقصى، أو جنوب شرق آسيا، أو الأقطار العربيّة، أو العالم الإسلامي.

هكذا، لا يمكننا إدراك المعاني التي تتضمنها لفظة (الشّرق)، إلّا إذا لاحظنا تطوّر العلاقات بين الشّعوب الأوروبيّة من جهة، وشعوب آسيا وأفريقيا من جهة ثانية. بذلك تتضح لنا أيضاً العوامل التي أدّت إلى نشأة (الاستشراق)، واهتمام الأمم الغربيّة بهذه الدراسات[١].

إنّ أهم ما يمكن قوله في هذا المجال هو: أن لفظة (شرق) حسب دلالتها التّاريخيّة القديمة أو المعاصرة، تعني مجموعة الأقطار المنتشرة في آسيا، وبعض الأقطار في أفريقيا، وهي الأقطار المطلّة على حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد يضاف إلى هذا أيضاً بعض أجزاء من أوروبا الشّرقيّة، وذلك لأنّ هذه الأقطار قد رَبَطت بينها روابط تاريخيّة كثيرة، فكثير من هذه الأقطار، يَرْتبط بعامل الدّين، وكثير آخر يرتبط برابط اللغة.. إلى غير ذلك من الرّوابط.

ولعلّ أحسن تفسير للفظتي الشّرق والغرب حضاريّاً، ما ذكره أحد الباحثين

---

(١) انظر: مجلة المجتمع العلمي العربي، للسيّد محمد كامل عيّاد، المرجع السابق.

حين قال: «أمّا الغرب، فهو اصطلاحٌ حديث، جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار، من تقسيم العالم إلى شرق وغرب، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشّرق أهل آسيا وأفريقيا، الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم، وجرينا على هذا الاستعمال. واللفظة وإن كانت حديثة اصطلاحاً واستعمالاً، فهي قديمة في مفهومها ودلالتها. فقد كان في العالم منذ زمن قديم قوّتان تصطرعان وتتنازعان السّيادة، إحداهما في الشّرق، والأخرى في الغرب، تَمثّل ذلك في الصراع بين الفرس والروم، ثمّ في الصراع بين المسلمين والروم، ثم الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم في الصراع بين العثمانيين والأوروبيين مدّاً وجزراً. ثم آخر فصول هذه الملحمة الصّلات بين الشّرق ممثلاً في آسيا وأفريقية، وبين الغرب ممثلاً في أوروبا وأمريكا[1].

يتبيّن لنا، أنّ هذا التفسير يجمع بين مدلول لفظة (الشّرق)، ونشأتها في العصور الحديثة، ثمّ يربط بين المدلول الحديث للفظة، وبين مدلولها الحضاري التّاريخي، ولذلك فإنّ هذا التّعريف لا يمكن أن يكون تعريفاً كاملاً لهذه اللفظة، انطلاقاً من المدلول التّاريخي لها، والذي يضع في حسابه وقوع العالم تحت سيطرة إحداهما شرقيّة والأخرى غربيّة[2].

## ➢ تحديد المصطلح الجغرافي للشّرق:

ويجدر بنا أن نسأل أنفسنا هل يمكن تحديد المصطلح الجغرافي للشرق، الذي انكب المستشرقون على دراسته؟ نجيب: إنّ تحديد هذا المصطلح جغرافياً غير ممكن، نظراً لاختلاف الجهة المُحَدَّد منها، فالشّرق بالنسبة للألماني مثلاً، هو غير الشّرق بالنسبة للأمريكي، وهو أيضاً غير الشّرق بالنّسبة للباكستاني، كذلك اختلف تحديد الشّرق جغرافياً تبعاً لاختلاف العصور، فقد كان حوض البحر المتوسّط، في ظلّ حضارة الإسلام، هو مركز الحياة في العالم، وكان هذا

---

(١) د. محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربيّة، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩م، ص١١.

(٢) انظر: مجلة رسالة الجهاد. مقال للأستاذ محمد فتح الله الزيادي تحت عنوان: الاستشراق في الميزان. العدد ٩٨، السنة العاشرة، رمضان ١٤٠٠هـ، من وفاة الرسول ﷺ، شهر إبريل ١٩٩١م، ص٨٨.

المركز، هو الذي يحدّد مفهوم لفظة شرق وغرب، ثمّ انتقل مركز الأحداث، بعد نهاية هذا العصر إلى شمال غربي أوروبا، ثم اتسعت حدود العالم بعد قيام حضارات كثيرة، في القارتين الأمريكيين، وأدّى هذا الاتساع الجغرافي والحضاري إلى تغيير مضمون ومفهوم لفظة الشّرق[1].

ونرى أنّ بعض الكتّاب قد تحرّج في تحديد المدلول الجغرافي في لفظة شرق، غير أنّ بعضهم الآخر، حاول أن يحدد جغرافيّاً معنى هذه اللفظة، وخاصة الكتّاب الغربيين، فمعنى (Orient) في دائرة معارف العالم: هو اسم يطلق على الأقطار والجزر الآسيويّة، وفي بعض الأحيان يطلق هذا المصطلح على القسم الغربي من آسيا، والتي تسمّى أيضاً الشّرق الأدنى[2].

وإنّ مصطلح (Orient)، يستعمل للأقطار التي تشرق منها الشّمس، في مقابل مصطلح (Occident)، الذي يستعمل للأقطار التي تغرب فيها الشّمس، ويتضمن أوروبا ونصف الكرة الغربي[3].

ويبدو أنّ مصطلح الشّرق، لم يقتصر على هذه الرقعة جغرافيّاً وحسب، بل تجاوزها إلى غربي الجزيرة العربيّة وشمالي أفريقيا، وذلك بعد الفتوحات الإسلاميّة، فعدّت كل من مصر والمغرب وشمالي أفريقيا، وما تَعَرَّبَ من سكان هذه الدول من الشّرق، فشملها هذا الاسم، باعتبار دينها الإسلام ولغتها العربيّة، كما تخطّى مصطلح الشّرق حدوده الجغرافيّة، إلى غربي الجزيرة العربيّة، ويشمل أفريقيا[4]، والأمر إلى هذا الحد واضح، ولكن ما معنى لفظة شرق في هذا المقام بالذات؟ وقد أشار العالم الألماني (رودي بارت Rody Part): «الظاهر أنّ اسم الشّرق تعرّض لتغيير في معناه، فالشّرق بالقياس إلينا نحن الألمان، يعني العالم السّلافي، العالم الواقع خلف الستار الحديدي، كما كان يُسَمَّى كذلك في الماضي، وهذه المنطقة يختصّ بها علماء بحوث شرق أوروبا (Osteuropaforschung)»[5].

---

(١) المستشرقون والتّاريخ الإسلامي، للدكتور علي حسني الخربوطلي، سلسلة المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، عدد ١١١، مطابع الأهرام التجاريّة، القاهرة، (١٩٧٠م).

(٢) The Word Book Encyclopedia-Vol ١٤ ـ ١٩٦٤ U.S.A.P : ٦٤٧.

(٣) The American Education Encyclopedia-Vol ١١ ـ ١٩٦٦ chicago P.o. ٨٦.

(٤) المستشرقون والدراسات القرآنيّة، للدكتور محمد حسين علي الصغير، ص١٢.

(٥) الدراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة (رودي بارت ـ Rody Part) ترجمة =

وأضاف قائلاً: «أمّا الشّرق الذي يختصّ به الاستشراق فمكانه جغرافيّاً من الناحية الجنوبيّة الشّرقيّة، بالقياس إلينا الألمان. وذلك الاصطلاح يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة التي كان فيها البحر المتوسّط يقع كما قيل في وسط العالم، وكانت الجهات الأصليّة تحدد بالنسبة إليه، فلمّا انتقل مركز الأحداث السّياسيّة بعد ذلك من البحر المتوسّط إلى الشمال، بقي مصطلح الشّرق برغم ذلك، على الدول الواقعة شرقي البحر المتوسّط، كذلك تعرّضت لفظة الشّرق في أعقاب الفتوحات العربيّة الإسلاميّة، لتغيير آخر في معناها، أو إذا شئنا دقّة أكثر، تعرّضت لاتساع في نطاق مدلولها، فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربيّة، لا إلى ناحية الشمال والشّرق وحسب، بل إلى ناحية الغرب كذلك، وزحفوا في غضون عشرات من السنين، إلى مصر وشمالي أفريقيا، وتعرّب السكّان تدريجيّاً، وهم الأقباط في مصر، والبرابرة في غربها، ومنذ ذلك الحين، تعتبر مصر وبلدان شمالي أفريقيا ضمن الشّرق[(1)].

ولقد اختلف الغربيّون اختلافاً كبيراً، في تصوّرهم لمفهوم الشّرق. فالأمريكيّون مثلاً، حين يتكلّمون في دراستهم عن الشّرق، والاستشراق، والمستشرقين، إنّما يُعْنَوْنَ بوجه خاص الشّرق الأقصى والصّين واليابان، والمختصّين في لغاتها وشعوبها، وهم في ذلك يختلفون عن الفرنسيّين والبريطانيين، الذين يعتبرون الشّرق هو الشّرق المجاور لأوروبا، والذي كان وما يزال يرتبط بالغرب ارتباطاً وثيقاً، والذي كان يؤلّف أقرب وأعظم وأغنى وأقدم مستعمرات الغرب، كما كان مصدر حضارته ولغاته، وفي الوقت ذاته يعتبر ـ أو كان كذلك في بعض مراحل تاريخه على الأقل، منافساً وغريماً ثقافيّاً له، بحيث لا يكاد الغرب يفهم الآن إلّا بالإشارة إلى الشّرق، والعكس بالعكس. والواقع أن فكرة الشّرق تُستخدم في كثير من الأحيان لتوضيح فكرة الغرب، على اعتبار أنّ بينهما ـ ما يقول إدوار سعيد ـ كثيراً من التقابل بل والتناقض. . . ، فهما

---

= مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٧م، ص١١ ـ ١٢. وانظر: مجلّة المسلم المعاصر، أبحاث في واجهة الاستشراق، أ.د. محمود حمدي زقزوق، السنة السابعة عشر، العددان: ٦٥، ٦٦، محرّم جمادي الآخرة ١٤١٣هـ، أغسطس يناير ٩٢/١٩٩٣م، ص١٦ ـ ١٧.

(١) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

نقيضان في كلّ شيء تقريباً. . . ، في الصورة والشكل، والفكرة والشّخصيّة والتجربة. . . ، ولكنّ هذا يجب ألّا يَعْني أنّ فكرة الشّرق فكرة خياليّة تماماً، فلقد كان الشّرق دائماً جزءاً متكاملاً مع الحضارة الأوروبيّة الماديّة، كما أنّ الاستشراق يُعَبِّر عن هذا الجزء ثقافيّاً وإيديولوجيّاً، وذلك عن طريق التوفّر، على دراسة كل ما هو شرقي، وكل ما يَمُتُّ إلى الشّرق بصلة، واستخدام نتائج هذه الدراسة في مختلف المجالات، سواءٌ المجالات العلميّة والأكاديميّة البحتة، أو المجالات السّياسيّة، بما في ذلك العمل على توطيد أقدام الاستعمار في الشّرق، وإخضاع شعوبه لسيطرة الغرب المستعمر[1].

## ➢ وخلاصة القول:

إنّ لفظة الشّرق رغم كثرة استعمالها ليس لها مفهوم واضح محدّد لاختلاف الجهات، فهي بالنسبة للألماني، غيرها بالنسبة للأمريكي، وكذلك بالنسبة للباكستاني. . . ، وهي لا تعني فكرة خياليّة، بل هي في الأصل من المصطلحات الفلكيّة التي لا تدل إلّا على الجهة التي تشرق منها الشّمس. وهي عبارة عن اصطلاح سياسي جغرافي تاريخي حضاري. وقد برزت لأوّل مرّة خلال الحرب الفارسيّة ـ اليونانية، وكان يقصد بها مملكة فارس القديمة. وقد اكْتَسَبَتْ مضموناً سياسياً في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، لأنّها كانت تمثل وحدة إداريّة، شملت خمس ولايات. وظهرت لفظة الشّرق أثناء عصور الخلاف المذهبي، بين البابويّة في روما، وبين البطريركيّة في القسطنطينيّة، الذي أدّى إلى الانفصال، وإلى قيام الكنيسة الشّرقيّة (الأرثوذكسيّة). وقد تبدّل مفهومها، أثناء الحروب الصّليبيّة، حتّى صار الدّين الإسلامي رمزاً للشرق، والديانة المسيحيّة رمزاً للغرب. وأصبحت لفظة الشّرق في نظر الأوروبيين، مرادفاً للدولة العثمانيّة، وأطلقوا عليها اسم المسألة الشّرقية، لمجموعة المشكلات التي نجمت عن النزاعات والاصطدامات بين الفرس واليونان في القديم، وبين المسلمين والصليبيين في القرون الوسطى، وبين الدّولة العثمانيّة والدول الأوروبيّة في العصور الحديثة. وقد تعرّضت لفظة

---

(١) أحمد أبو زيد: مقال الاستشراق والمتشرقون، عالم الفكر، المجلّد العاشر، العدد الثاني، يوليو، أغسطس، سبتمبر ١٩٧٩م، ص٥٤٠. اعتمد صاحب هذا المقال على كتاب
. Edward W. Said, Orientalism, Routlege and Keng Paul, London and Henly, 1978

الشّرق في معناها إلى تسميات مختلفة، منها: الشّرق الأدنى، والشّرق الأوسط، والشّرق الأقصى... إلى ما هنالك من تسميات. كما كانت تعني سابقاً الاتّحاد السوفياتي وحلفاءه. أو أهل آسيا وأفريقيا، الذين كانوا وما يزالون موضع الاستعباد والاستغلال والاستعمار. وقد اتخذت الدول الأوروبيّة هذا المسار، للافتراءات والتضليل، وذلك كما يدّعون، لمجاراة الحضارة الأوروبيّة، وتكاملها الماديّة والثقافيّة والأيديولوجيّة، وأيضاً في المجالات العلميّة الأكاديميّة والسّياسيّة، للعمل على توطيد أقدام الاستعمار في الشّرق وإخضاع شعوبه للسيطرة عليه وإذلاله.

## ➢ ظاهرة الاستشراق هو أسلوب غربي لفهم الشّرق والسّيطرة عليه، ومحاولة إعادة توجيهه والتحكّم فيه[١]:

### الاستشراق يمثّل التجربة الغربيّة:

فالاستشراق هو طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشّرق، مبنيّة على منزلة الشّرق الخاصّة بالتجربة الأوروبيّة الغربيّة.. وإنّ الشّرق جزء تكاملي من حضارة أوروبا وثقافتها الماديتين. ويعبّر الاستشراق عن ذلك الجزء ويمثله ثقافياً، بل حتّى عقديّاً.

### للاستشراق دلالة جامعية أكاديميّة:

إنّ الدلالة الأكثر تقبّلاً للاستشراق، دلالة جامعيّة أكاديميّة، وبالفعل فإنّ الملصقة ما تزال مستخدمة في عدد من المؤسّسات الجامعيّة، فكلّ من يقوم بتدريس الشّرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه ـ ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصّاً بعلم الإنسان (أنثروبولوجي ـ Anthropology)، أم بعلم الاجتماع (سوسيولوجي ـ Sociology)، أم (التّاريخ History)، أو فقيه لغة (فيلولوجيا ـ Philology)، في جوانبه المحدّدة والعامّة على حدّ سواء، هو مستشرق، وما يقوم هو أم هي بفعله هو استشراق.

---

(١) النجار، شكري: لِمَ الاهتمام بالاستشراق؟ الفكر الإسلامي، عدد ٣١، ١٩٨٣م، ص٧١.

**أسباب الاستشراق:**

إنّ مصطلح الاستشراق بالمقارنة مع الدّراسات الشّرقيّة، أو الدّراسات الإقليميّة، أقلّ تفضيلاً اليوم لدى المختصين لسببين اثنين:

كونه غائماً وعاماً إلى درجة مفرطة، وكونه يتضمّن الموقف التنفيذي السّلطوي للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

بيد أنّ الكُتُب ما تزال تُكتب، والمؤتمرات تعقد، ومحركها الرّئيسي الشّرق، والسلطة المرجعيّة فيها، المستشرق في قِنَاعه الجديد أو القديم.

والنقطة الدّالّة، هي أن الاستشراق حتّى إذا لم يستطع البقاء كما كان ذات يوم، يستمر في الحياة ـ جامعياً ـ عبر معتقداته المذهبيّة وأطروحاته عن الشّرق والشّرقي.

ويرتبط بهذا التراث الجامعي، الذي تُشكّل أقداره وتقمصاته وأشكال انتقاله جزئياً، موضع هذه الدّراسة، معنى أكثر عموميّة للاستشراق.

**أسلوب الفكر الاستشراقي:**

فالاستشراق، هو أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي ـ Anthology)، ومعرفي (أبستمولوجي Epistemology)، بين الشّرق، وفي معظم الأحيان الغرب.

**مسار الاستشراق في أواخر القرن التاسع عشر:**

وإذا اتّخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محدّدة تحديداً تقريبياً، فإنّ الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلّل بوصفه المؤسسة المشتركة للتّعامل مع الشّرق، التّعامل معه بإصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه وتدريسه والاستقراء فيه وحكمه.

**سيادة الاستشراق على الفكر والعقل والجنان:**

لقد احتلّ الاستشراق مركزاً هو من السّيادة، بحيث إنّه ليس في وسع إنسان يكتب عن الشّرق أو يفكر فيه، أو يمارس فعلاً متعلّقاً به، أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوّقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والعقل والجنان.

**يشكّل الاستشراق شبكة المصالح الكليّة:**

وبكلمات أخرى، فإنّ الشّرق بسبب الاستشراق لم يكن موضوعاً حراً للفكر أو العقل. . ولا يعني هذا أن الاستشراق بمفرده يقرّر ويحتّم ما يمكن أن يُقال عن الشّرق، بل إنه يشكل شبكة المصالح الكليّة التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفرّ منها في كلّ مناسبة ـ والتي تنشبك لذلك في أيّ مناسبة ـ يكون فيها ذلك الكيان العجيب، الشّرق موضعاً للنقاش، أمّا كيف يحدث ذلك؟

**هوية الاستشراق:**

إنّ ما يحاول هذا الكتاب أن يكشفه، هو تحديد هوية الاستشراق، وأن يظهر أن الثقافة الغربيّة اكتسبت المزيد من القوّة ووضوح الهويّة، بوضع نفسها موضع التّضاد مع الشّرق باعتباره ذاتاً بديلة. . .

**سيطرة الاستشراق على الفكر الغربي:**

نرى من هذه الأسباب أنّ الاستشراق قد اشتقّ من علاقة تقارب خاصة، قامت بين بريطانيا وفرنسا والشّرق، الذي لم يكن في الحقيقة ليعني حتّى أوائل القرن التاسع عشر، سوى الهند وأقاليم الكتاب المقدّس.

فمنذ بداية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، سيطرت فرنسا وبريطانيا على الشّرق والاستشراق. أمّا منذ الحرب العالميّة الثانية، فقد سيطرت أمريكا على الشّرق، وهي تتناوله كما تناولته فرنسا وبريطانيا ذات يوم.

ومن ذلك التقارب ذي القوة الحيويّة الخصيبة خصباً هائلاً باستمرار، رغم كونها دائماً تجلو القوّة الأعظم نسبياً للغرب ـ بريطانية، أو فرنسيّة، أو أمريكيّة ـ ينبع الجسد الضّخم من النّصوص التي أسمّيها استشراقيّة[1].

**النشاط العلمي للاستشراق:**

ولو نظرنا إلى الاستشراق اليوم، لوجدناه كما كان دائماً، جزءاً من النّشاط العلمي الذي تبذله البلاد الغربيّة في جميع ميادين البحث العلمي؛ النّظري

(١) سعيد، إدوار: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص٣٧ ـ ٤٠.

والعملي، وأنّه يسير على المنهج الذي تسير عليه تلك الأبحاث[1] الغربيّة، لدراسة تاريخ الشّرق وشعوبه، ولغاته وآدابه وعلومه، وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنّه في العصور الوسيطة، كان يقصد به دراسة العبريّة لصلتها بالدّين، ودراسة العربيّة لعلاقتها بالعلم، إذ بينما كان الشّرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعّه منائر بغداد والقاهرة، من أضواء المدنيّة والعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه، غارقاً في غياهب من الجهل الكثيف والبربريّة الجموح[2].

**نتائج دلالات علماء الاستشراق:**

وبعد إمعان النظر في الآراء التي صاغها علماء الاستشراق، وبعد تفحّص دقيق لهذه الآراء التي نسجها العلماء، يستطيع الباحث أن ينتهي إلى نتائج ذات دلالات بالغة لينفذ منها إلى تقرير إنّ دارس موضوع الاستشراق يجب عليه قبل كل شيء أن يحدّد مفهومه، ويحاول إيصال معناه محدداً إلى قارئه. وأنّه علم ذو حدود واسعة، وأحياناً غير واضحة، إذ يختلط ميدانه بميادين العلوم الأخرى، لأنّ المستشرق قد يشارك في أبحاثه علماء الآثار والأصوات، والاشتقاق والحفريات، واللّاهوت والفنون والفلسفة، وما شاكل ذلك[3].

**الأدوار المختلفة للاستشراق والمستشرق:**

إنّ المفهوم العلمي لكلمتي الاستشراق والمستشرق قد مَرَّ بأدوار مختلفة منذ عام (١٦٨٣م)، عندما كان يعني أحد أعضاء الكنيسة الشّرقيّة إلى عصرنا هذا، حيث أصبح يعني التّبحّر في إحدى لغات الشّرق وآدابها، فكأنّ هذا التّبحّر شرط أساسي في عالم الاستشراق. لأنّه لا يمكنه أن يأتي بنتائج علمية سليمة إطلاقاً، إلّا بذلك كما هو واضح عند (آربري ـ Arbery)[4]، و(ديتريش ـ Ditrich)[5].

---

(١) الغول، محمود: المستشرقون اليوم، عالم هدفه المعرفة، العربي، العدد الرابع، آذار ١٩٥٩م، ص١١٨.

(٢) الزيّات، أحمد حسن: تاريخ الأدب العربي، ط٢٥، ص٥١٢.

(٣) سمايلوفتش، د. أحمد: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب المعاصر، ص٢٥ ـ ٢٦. لقد اقتبس من هذه الرسالة القيمة الكثير عن ظاهرة المشرقيات.

(٤) آربري، آرثر: المستشرقون البريطانيون، ترجمة: محمد الدسوقي النويهي، مطبعة وليام كولينز لندن، ١٩٤٩م، ص٧ ـ ٨.

(٥) ديتريش، أ: الدراسات العربيّة في ألمانيا، دار النشر فرانز سشْتَايْنر بفسبادن، ١٩٦٢م، ص٧.

**علم الاستشراق ودلالته:**

إنّ كلمة الاستشراق ذات دلالتين:

**أولاهما:** أنّه علم يختص بفقه اللغة ومتعلقاتها على وجه الخصوص.

**وثانيهما:** أنّه علم الشّرق، أو علم العالم الشّرقي، على وجه العموم. فعلى هذا الأساس يشمل كل ما يتعلّق بمعارف الشّرق، من لغة وآداب، وتاريخ وآثار وفنّ، وفلسفة وأديان، وغيرها من علوم وفنون[١].

**تغيّرات مدلول الاستشراق:**

إنّ الاستشراق علمياً يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة، وإنّ مدلول لفظ الشّرق تعرّض لتغيير خطير، بعد انطلاقة العرب، حتّى أصبح يتعلّق بالموضوع ذاته، أكثر منه بالمنطقة الجغرافيّة، ويفتح آفاقاً واسعة للتفكير والبحث والتحليل، كما هو بيّن في آراء (نولدكه ـ Noldeke) و(رودي بارت ـ Rodi bart)[٢].

**النظرة التّاريخيّة لكلمتي الاستشراق والمستشرق:**

إنّ كلمتّي الاستشراق والمستشرق علميّاً، حديثتا العهد نسبياً في الإنجليزية والفرنسية، إذ تبنتها الأولى حوالي عام (١٧٧٩م)، وتبنتها الأخرى حوالي عام (١٧٩٩م)، واعترفت بهما الأكاديمية الفرنسية المشهورة بالحيطة في إدخال الكلمات إلى اللّغة الفرنسيّة، فأدخلتها إلى معجمها المشهور عام (١٨٣٨م)[٣].

**الاستشراق كفكرة علمية:**

وإنّ الاستشراق كفكرة علميّة، قد نال حظّاً عظيماً في أثناء القرن الثامن عشر، حيث كان الشّرق يأخذ مكانه في أبحاثه ومؤلفاته إلى جانب الغرب، في أفق شمولي كما يؤكد (رودنسون ـ Rodinson)[٤]. ممّا يدل فيما نظن على أنّ

---

(١) سمايلوفتش، د. أحمد: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب المعاصر، (مرجع سابق)، ص٢٥.

(٢) نولدكه وبارت: الدراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٧م، ص١١ ـ ١٢.

(٣) سمايلوفتش، د. أحمد: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب المعاصر، (مرجع سابق)، ص٢٥.

(٤) رودنسون: صورة العالم الإسلامي في أوروبا، الطليعة، فبراير ١٩٧٠م، ص٧٤.

دراسة العرب وما يتعلق بهم، كان وما يزال أمراً بالغ الأهمية لعلم الاستشراق ودراساته.

**مفهوم الاستشراق عند جويدي:**

إنّ الاستشراق في مفهوم (جويدي ـ Guidi)، قد أخذ ظلّاً جديداً، إذ أصبح إطلاقه لا يقتصر على معرفة إحدى اللغات المجهولة للغرب والعادات الغريبّة عليه، وإنّما على الجمع والانقطاع إلى دراسة الأنحاء المختارة من الشّرق، والوقوف على قواه الرّوحيّة، وآدابه العظيمة، التي أسهمت إسهاماً فعّالاً في تكوين ثقافة العالم بأسره، وتعاطي دراسة الحضارات القديمة، والتّمكن من تقدير العوامل المختلفة، التي أثّرت في تكوين تمدّن القرون الوسطى والنهضة الحديثة.

**أهمية علم الاستشراق:**

وأهمّية هذا العلم تكمن في أنه وسيلة فعّالة لدراسة النّفوذ المتبادل بين العالمين، الشّرقي والغربي، وأنّه على هذا الأساس، يغوص في أعماق دراسة الشّعوب الشّرقية وكلّ ما يتعلّق بها، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّه يعتبر من أوسع العلوم موضوعاً وأبعد مدى.

ولذلك يحقّ للباحث أن يسميّه تاريخ الروّح الإنساني، لأنّ قوى الرّوح واستعدادها للتحوّلات التّاريخيّة، تختلف باختلاف الزمان والمكان.

ويعتبر هذا العلم في نظر (جويدي)، يعتبر من أهم العلوم الإنسانيّة وأخطرها، سواء فيما يتعلق بالموضوع نفسه، أو فيما يتعلّق بالتّعرّف على الرّوح الإنساني وتبادل النّفوذ، بين العالمين المتصارعين عبر التّاريخ[1].

ويستخلص من رأي الزيّات[2]، والإسكندري[3]، وأحمد أمين[4]، وأحمد

---

(١) جويدي، م. أ: علم الشّرق وتاريخ العمران، الزّهراء، الربيع الأوّل ١٣٤٧هـ، ص١١ ـ ١٤.

(٢) الزيات، أحمد حسن: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط٢٥، ص٥١٢.

(٣) الإسكندري، أحمد وآخرون: المفصّل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة مصر القاهرة، ١٩٤٣م، ج٢، ص٤٠٨.

(٤) انظر: أمين، أحمد: الشّرق والغرب، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٥٥م، ص١٥٠ ـ ١٥١.

الشرباصي[1]: أنّ الاستشراق علم يحاول أصحابه دراسة الشّرق، وكلّ ما يتعلق به من لغات ومعتقدات، وعلوم وفنون، وما شاكلها.

**آراء العلماء عن الاستشراق والمستشرق:**

وكما جاء في رأيّ العنّاني: أنّ المعنى الأصلي لكلمة استشراق صار شرقيّاً، وأن صيغة المستشرق علميّاً تطلق على ذلك الذي يشتغل بالعقليات الشّرقية عامّة، والسّاميّة خاصة، والعربيّة بوجه خاص، وقد يتبّع البحث في الجامعات ولغاتها[2].

وكما يرى محمد عبد الغني حسن وعبد الله فكري: أنّ الاستشراق علم لا يقتصر على دراسة غير الشّرقيين وحسب، بل أثر الشّرق في تكوين البناء الحضاري وتطوّره في العالم بأسره[3].

وكما يذهب إبراهيم عبد المجيد اللبّان: أنّ الاستشراق علم يشمل طوائف مختلفة، تعمل في مجال الدّراسات الشّرقيّة، من علوم وآداب تتعلّق بالشّرق كلّه[4].

وكما استبان محمد الحوماني: أنّ الاستشراق علم قائم بذاته، له خصائصه التي تدُلّ على استقلاله، وأنّ أصحابه قد شغلوا فترة طويلة دون أن يهتم أحد بدراساتهم دراسة علميّة واعية، إلّا في أحايين نادرة، في معرض النقد، أو التقريظ[5].

وكما يرى حسين الهراويء، أنّ الاستشراق مهنة أكثر منه علماً، وأنّه أقرب

---

(١) الشرباصي، أحمد: التّصوّف عند المستشرقين، ص٦، سلسلة الثقافة الإسلاميّة، مطبعة نور الأمل، ١٩٦٦م، ص٢٧.

(٢) العناني، علي: المستشرقون والآداب العربيّة، الهلال، أغسطس عام ١٩٣٢م، جـ١، ص٤٠.

(٣) حسن، محمد عبد الغني، وفكري، عبد الله: أعلام العرب، الدار المصرية للطباعة، القاهرة، ص٨٩.

(٤) اللبّان، إبراهيم عبد المجيد: المستشرقون والإسلام، مجمع البحوث الإسلاميّة، إبريل ١٩٧٠م، ص٤ ـ ٥.

(٥) الحوماني، محمد: المستشرقون، الرّسالة، ٢٦ يوليو ١٩٣٧م، نقلاً عن: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب المعاصر، (مرجع سابق)، ص٢٨.

إلى دائرة التبشير من دائرة العلم، وهنا كان الإسلام بيت القصيد للهجوم والنيل منه، ومع ذلك فقد قدّم المستشرقون خدمات جليلة، فيما يتعلق بالمباحث التّاريخيّة[1].

وكما يرى مالك بن نبي: أنّ الاستشراق في المفهوم العلمي، علم يضمّ في رحابه الكتّاب الغربيين، الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وحضارته، ولهم طبقات من حيث الزّمن (القدماء والمحدثون)، ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام (المادحون والمنتقدون)، والدّراسة الشّاملة للموضوع، لا بدّ أن تقوم على هذا الأساس والترتيب[2]. وكما يؤكد يوسف أسعد داغر: أنّ الاستشراق كمفهوم علمي، حركة علميّة، تعنى بدراسة الشّرق، ماضيه وحاضره، وما يتعلق به من علوم مختلفة، وما تركه للإنسانية من أثر أضاء أمامها الطريق نحو التّقدّم والازدهار[3].

وممّا يلاحظ من هذه الأقوال والمفاهيم أن انخفاض الجهد الاستشراقي المبذول على مستوى الأفراد، فلم يظهر في هذه المرحلة ذلك النوع من جيل المستشرقين القدماء، وخاصة الألمان منهم، حيث كان الواحد منهم يفني عمره في تحقيق مخطوط، أو في تأليف معجم، أو فهرسة مصادر علم من العلوم، وشهدت هذه المرحلة بديلاً لذلك، دراسات جزئية محدودة، وذات طابع تخصّصي دقيق.

**السلبيات الاستشراقيّة:**

وشهدت هذه المرحلة أيضاً ـ وربّما شهدت سابقاتها ـ تبدّلاً في شكل الكتابات الاستشراقيّة، فالهجوم السّافر على الإسلام واحتقار العروبة وغيرها، من السّلبيّات الاستشراقيّة التي لم تعد ظاهرة كما كانت من قبل، وإنّما أصبح التّستّر

(١) الهرواي، حسين: نحن والمستشرقون، المعرفة، يوليو ١٠٣٢م، نقلاً عن فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي، (مرجع سابق)، ص٢٨.

(٢) ابن نبي، مالك: إنتاج المستشرقون وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، ط١، ص٥ ـ ٦.

(٣) داغر، يوسف أسعد: مصادر الدراسات الأدبيّة، المطبعة المخلّصيّة، بيروت، ط٢، سنة ١٩٦١م، جـ٢، ص٧٧١.

والتورية وقلب المفاهيم والاستنتاجات الخاطئة، هي السّمة العامة للبحوث الاستشراقيّة في هذه المرحلة.

**الموضوعية في الفكر الاستشراقي:**

وهذا الأمر له دور في ترويج مفهوم جديد في أوساط الفكر العربي أساسه: أنّ الاستشراق لم يعد كما كان، وإنّما أصبح يميل إلى العلميّة والموضوعيّة، وتوارت من هذا الحقل الدّوافع الدّينيّة التي كانت محركة له.

ولذلك فعلى الشّرقيين طرح حساسياتهم القديمة تجاه المستشرقين، والإقبال على دراساتهم بروح جديدة أساسها الموضوعية والحيدة العلميّة.

**تمنياتنا على المستشرقين الأخذ بالنظرة العلمية في أبحاثهم:**

وكما كنّا نتّمنّى أن يكون ذلك حقيقة واقعية، تدخلنا في عصر الحوار والجدل بالحسنى، والإقرار بالتّبادل الحضاري، واحترام إنسانية الشّعوب، وعقائدها وعاداتها، ولكنّ النّظرة العلميّة لروّاد هذه المرحلة، هي الكفيلة بأن تبيّن لنا أنّ كل ما ردّد هو باطل ولا أساس له، ومن ذلك مثلاً مؤلفات: المستشرق (جولدزيهر ـ Ignaz-Goldziher)[١]، والمستشرق (بروكلمان ـ Brocklmann)[٢]، والمستشرق (برنارد لويس ـ Lewis.B.)[٣]، المستشرق (نور أندريه ـ Nour Andre)[٤]، المستشرق (ماسينيون ـ Massignon.I)[٥]، المستشرق (كايتاني ـ Leone-Caetani)[٦]، والمستشرق (دوزي Pieter Anndozy - Rinhart)[٧]، وغيرهم كثير.

---

(١) جولد زيهر: مستشرق مجري يهودي. الأعلام، ج١، ص٨٠.
(٢) بروكلمان: مستشرق ألماني. موسوعة المستشرقين، ص٥٧.
(٣) برنارد لويس: تخرّج في جامعتي لندن وباريس.
(٤) نور أندريه: لم أعثر له على ترجمة.
(٥) ماسينيون: مستشرق فرنسي مشهور. المستشرقون، ج١، ص٢٨٨.
(٦) كايتاني: هو الأمير ليونه كايتاني المستشرق، المؤرخ الإيطالي، ج٢، ص١١٨.
(٧) رينهارت بيترآن دوزي: مستشرق هولندي من أصل فرنسي. الأعلام، ج٣، ص٦٨. انظر في كل ما تقدم: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، محمد فتح الله الزّيّادي، طرابلس، ص٣٠ ـ ٣١.

**الاستشراق: منهجاً وفكراً، رفضاً وقبولاً:**

وقد كتب الكثير عن «الاستشراق» منهجاً وفكراً رفضاً وقبولاً، وثمّة في هذا الكثير، سياقان: أغلب الظن أنهما انحسرا ـ لحسن الحظ ـ في حيّز محدود.

**السياق الأوّل**: يتمثل في الرّفض المقفل لمعطيات الحركة الاستشراقيّة كافة.

**والسياق الثاني**: يتمثل في التّقبّل المستسلم لهذه المعطيات.

والمنهج العدل يمضي لكي يتعامل مع المادة الاستشراقيّة، دون أن يتقبّلها بالكليّة، أو يلغيها من الحساب، فعن طريق التبصر الواعي بهذه المادة، وفي ضوء التمحيص العلمي المتأني الدّقيق، يمكن أن يتحقّق الأخذ والرفض.

فهذه المادة تقوم على اثنين:

**أولاهما**: «المنهج» كأداة عمل.

**وثانيها**: «الموضوع» الذي يتمخض عن اعتماد هذه الأداة، في هذا الحقل أو ذاك، من حقوق المعرفة التّاريخيّة.

وستكون مناقشة «الموضوع» الذي يتمثّل بحشود كبيرة من البحوث والمؤلفات الاستشراقيّة، في هذا الجانب أو ذاك من التّاريخ والحضارة الإسلاميّة، ضرباً في غير هدف، أو في الأقل جهداً منقوصاً، إن لم تسبقه محاولة التّعرّف على المنهج الذي تتولّد عنه هذه البحوث والدراسات، وفق هذه الصيغة أو تلك، ممّا قد يخدم الحقيقة العلميّة حيناً، وقد يصدمها حيناً آخر.

إنّ السّيطرة على الحالة المَرَضِيَّة في ميدان الطب، لا تمضي إلى حصر الأعراض قبل أن تسعى للكشف عن الأسباب هاهنا إيضاً، ليس بمقدور باحث أن يصدر تقويماً دقيقاً للمعطى الاستشراقي ما لم يَعْرِف، أوّلاً: خصائص المنهج الذي يصبغه ويشكلّه.

وهذا يقودنا إلى ملاحظة أخرى قد تأخذ طابع التساؤل، عما إذا كان هناك منهج استشراقي، أم مناهج شتّى؟

والرّاجح، أنّ الجواب سيختلف باختلاف المنظور، فإذا نظرنا إلى المادة الاستشراقيّة باعتبارها تعاملاً رُؤْيَوِيّاً غربياً مع الشّرق الإسلامي، قلنا بأنّ هناك منهجاً استشراقياً واحداً. فها نحن هنا، بإزاء ثنائيات أساسيّة شاملة، تتضمّن

البعد الحضاري، والدّيني، والجغرافي (القاريّ)، حيث يصير النشاط الاستشراقي محاولة للاكتشاف في بيئة أخرى تنطوي على تغاير عميق مع بيئة المكتشف، أو الباحث.

**المادة الاستشراقيّة داخل العقل الغربي:**

ولكننا إذا نظرنا إلى المادة الاستشراقيّة من زاوية رؤيتها المتميزة داخل العقل الغربي نفسه، قدرنا أن نقول بأنّ هناك مناهج شتى، أو في الأقل صيغ متغايرة في التّعامل مع الواقعة التّاريخيّة.

وعلى سبيل المثال، فإنّ المنهج الذي يعتمده رجل لاهوت، مثل الأب (هنري لامنس ـ Henry Lammense)، يختلف عن المنهج الذي يعتمده (بلاييف ـ Blayeef) المفسّر الماديّ للتاريخ، أو الذي يعتمده مستشرق ذو توجّه إسرائيلي، أو الذي يعتمده (مونتغمري وات ـ Watt Montgomery) الذي يحرص على الأكاديمية...

فنجد أن هناك تنوعاً في سياق الوحدة المنهجيّة، أو بعبارة أدق نجد قاسماً مشتركاً أعظم، يتحرك بموجبه مستشرقو المذاهب المذكورة كافة، ونجد تغايراً يجعل كلّ مذهب يصوغ نسيجه الخاص المتميز، الذي ينسجم وقناعاته الفكريّة، ولكنّه يلتقي في نهاية التحليل بالخطوط العريضة، للمنظور الاستشراقي الشامل، باعتباره تعاملاً غربياً مع الشّرق، بالمعايير التي ألمحنا إليها قبل قليل.

في الجهة الأخرى، ولمّا كان التّاريخ والحضارة الإسلاميّة يختلفان في درجة حساسيتهما خلال تعامل «الآخر» معهما، فإنّ المنهج الاستشراقي الذي ينطوي على المغايرات المذكورة في سياق وحدته الأساسية، يختلف هو الآخر في طبيعة الاستناجات التي سيتوصل إليها، من حيث تصادمها مع المعطيات الإسلاميّة في التّاريخ والحضارة، أو تأكيدها لهذه المعطيات[١].

(١) الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٦م، ص١٧ ـ ١٨.

**تحكّم العصبيات على مناهج التّاريخ الإسلامي:**

إن هذه المناهج عندما تدرس تاريخنا بالذات، تتحكم فيها عصبيّات شتى، ورواسب نفسيّة، ومخلّفات ثقافية تاريخية، وأطماع سياسية واقتصادية واستراتيجية، وتحزّبات دينية ومذهبية وعرقيّة، لكونها نمت وتبلورت في القرن الذي بلغت فيه حركة الاستعمار ذروتها.

**كان المبشرون الأوائل نصارى:**

والواقع أنّ المستشرقين الأوّلين كما يقول (ليوبلد فانييس ـ Faniyis-Leyobold): «كانوا مبشّرين نصارى يعملون في البلاد الإسلاميّة، وكانت الصورة المشوّهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبّرة، على أساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من (الوثنيين).

**تحرر علوم الاستشراق من نفوذ التبشير:**

غير أنّ هذا الالتواء العقلي قد استمرّ، مع أنّ علوم الاستشراق قد تحرّرت من نفوذ التبشير، ولم يبق لها عذر من حميّة دينة تسيء توجيهها.

**تحامل المستشرقين على الإسلام:**

أمّا تحامل المستشرقين على الإسلام، فغريزة موروثة، وخاصّة طبيعيّة، تقوم على المؤثرات التي خلّفتها الحروب الصّليبيّة، بكلّ ما لها من ذيول، في عقول الأوروبيين»[(١)].

**المستشرق الرافض والمؤيّد:**

ذلك أنّ هناك أكثر من خلل في منهج العمل، ولن يتمخّض هذا الخلل، إلّا عن حشود من نقاط سوء الفهم والأخطاء على مستوى الموضوع.

نعم، ثمّة فرق بين مستشرق وآخر، فنحن إذا قارنّا (مونتغمري وات ـ Montgomery Watt) بالأب (هنري لامنس ـ Henri Lammens) مثلاً، وجدنا هوّة واسعة تفصل بين الرّجلين.. يقترب أوّلهما ويقترب حتى ليبدو أشدّ إخلاصاً،

---

(١) الإسلام على مفترق الطريق، ترجمة د. عمر فرّوخ، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٦٥م، ص٦٠ ـ ٦١.

لمقولات التّاريخ الإسلامي من أبناء الإسلام نفسه، ويبعد ثانيهما حتى ليبدو شتّاماً لعّاناً، وليس باحثاً جاداً يستحق الاحترام[1].

ومن ثَمّ فإنّه ليس بمقدور مستشرق ـ في الأعمّ الأغلب ـ ومهما كان من اتساع ثقافته، واعتدال دوافعه وحياديته، وتمكنه من تقنيات البحث، ونزوعه الموضوعي، إلّا أن يقدّم تحليلاً للمراحل الحساسة من تاريخنا الإسلامي، ولا بدّ أن يرتطم هنا أو هناك بوقائعه وبداهاته ومسلّماته، ويخالف بعضاً من حقائقه الأساسيّة، ويمارس ـ متعمّداً أو غير متعمّد ـ تزييفاً لروحه، وتمزيقاً لنسيجه العام[2].

وصفوة القول: إنّ لفظة استشراق مشتقة من لفظة شرق؛ لأنها تعني شرق الشّمس، وهي حديثة العهد، ولم ترد في معجمات اللغة العربيّة، إلّا أنّ معنى استشرق أدخل نفسه في أهل الشّرق وصار منهم.

وتجسدت هذه النقطة لدراسة الشّرق وعلومه، ومشتقاتها مولّدة استعملها المولّدون في ترجمة هذه اللفظة، ثمّ استعملوها كفعل. وليس في اللغات الأجنبية مرادف للفعل العربي، وعلى هذا الأساس شاعت هذه اللفظة ومشتقاتها في الأوساط العلميّة في الغرب والشّرق سواء بسواء. وقد تعرّض مدلول لفظ الشّرق لتغيير خطير بعد انطلاقة العرب حتى أصبح يتعلق بالموضوع ذاته أكثر منه بالمنطقة الجغرافيّة، ويفتح آفاقاً واسعة للتفكير والبحث والتحليل.

ونال الاستشراق كفكرة علميّة حظاً عظيماً في أثناء القرن الثامن عشر، حيث كان الشّرق يأخذ مكانه في أبحاثه ومؤلفاته إلى جانب الغرب في أفق شمولي.

ويضمّ الاستشراق في المفهوم العلمي في رحابه الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وحضارته طبقات من حيث الزمن؛ قدماء ومحدثين، ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام، مادحين ومنتقدين.

---

(١) محمّد في مكة، تعريب: شعبان بركات، المكتبة العصريّة، بيروت، بدون تاريخ، ص٥ ـ ٦.

(٢) انظر بالتفصيل: عماد الدّين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية. بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: (مونتغري وات ـ W. Montgomery Watt). صدر ضمن مجلد مناهج المستشرقين. المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، تونس، مكتب التربية العربيّة لدول الخليج، الرياض، سنة ١٩٨٥م، جا، ص١١٥ ـ ٢٠١.

ويشكّل الاستشراق في مفهومه العلمي حركة علميّة، تُعنى بدراسة الشّرق، ماضيه وحاضره، وما يتعلق به من علوم مختلفة، وما تركه للإنسانية من أثر أضاء أمامها الطريق نحو التقدم والازدهار. ويشمل علم الاستشراق طوائف مختلفة تعمل في مجال الدّراسات الشّرقيّة، فهو لا يقتصر على دراسة غير الشّرقيين وحسب، بل يحاول أصحابه دراسة الشّرق وكلّ ما يتعلق به. ويعتبر هذا العلم من أهم العلوم الإنسانيّة وأخطرها، سواء فيما يتعلّق بالتّعرّف على الروح الإنساني، وتبادل النفوذ بين العالمين المتصارعين الشّرقي والغربي عبر التّاريخ.

ويراد بالاستشراق اليوم، دراسة الغربيين لتاريخ الشّرق وأممه، ولغاته، وآدابه، وعلومه، وعاداته، ومعتقداته، وأساطيره، ويراد به في العصور الوسيطة، دراسة العبريّة لصلتها بالدّين، ودراسة العربيّة لعلاقتها بالعلم. إذ بينما كان الشّرق من أدناه إلى أقصاه، مغموراً بما تشعّه منائر بغداد والقاهرة، من أضواء المدنيّة والعلم، نرى الغرب كان من بحره إلى محيطه غارقاً في غياهب من الجهل الكثيف والبربريّة الجموح.

وصفوة القول: الاستشراق هو أسلوب غربي للسّيطرة على الشّرق، واستبنائه، وامتلاك السّيادة عليه، واحتلاله، وجعله مركزاً من السّيادة، بحيث إنه ليس في وسع إنسان أن يكتب عن الشّرق، أو يفكر فيه، أو يمارس فعلاً متعلقاً به أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوّقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والعقل والجنان. فهو إذن مهنة وحرفة وهو أقرب ما يكون إلى مهنة التبشير والتنصير والإلحاد.

### ➢ ظاهرة المستشرق المشتغل بالعقليّات الشّرقيّة:

تبيّن لنا من خلال تقصينا لمدلول لفظتي الشّرق والاستشراق، أنّه من الصعب إيجاد التّعريف القاطع والشامل والثابت له، غير أننا ما قدّمناه في هذا المجال هو القدر الكافي لتوضيح هذا المصطلح ومعناه.

أمّا ما يقال عن العالِم المتمكن من المعارف الخاصة بالشّرق والاستشراق هو المستشرق الذي يقوم بتدريس الشّرق، أو الكتابة عنه أو بحثه، أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرّخاً، أو فقيه لغة، في جوانبه

المحددة والعامة على حدّ سواء[١]. أو المشتغل بالعقليات الشّرقيّة سواء أكانت ساميّة أو غير ساميّة، ولكنَّ هذه الكلمة في اصطلاح العلماء والأدباء، تطلق على المشتغل بالعقليات الساميّة خاصة، ويتبع ذلك البحث في اللغات الحاميّة[٢].

وظلّت كلمة مستشرق الحكم الفصل في أيّ قضيّة فكريّة تتعلق بالدّراسات الإسلاميّة والشّرقيّة، ونقطة البدء عند أيّ باحث مسلم أو عربي أو شرقي زمناً ليس بالقصير...[٣].

والمستشرق هو مَنْ تجرّد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشّرقيّة، وتقصّي آدابها طلباً لتعرّف شأن أمّة أو أمم شرقيّة، من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها، أو علومها وآدابها، أو غير ذلك من مقوّمات الأمم[٤].

وهو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشّرق وتفهّمه، ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشّرق[٥].

ويحدّد (قاموس أكسفور الجديد ـ The New Oxford Dictionary) تعريفه للمستشرق بأنّه من تبحّر في لغات الشّرق وآدابه، وذلك هو الذي سنعتمد عليه في حديثنا التالي، وإن كان يفرض علينا أن ندع الآخرين أن يكتبوا عن ذلك الجمّ الغفير من ذوي الشّهرة والصيت، الذين عرفوا الشّرق معرفة جيّدة، والذين استلهموا أدباً بديعاً، ولكنّهم خرجوا عن حدّ التّعريف السّابق، فلا يُستطاع تسميتهم مستشرقين[٦]. ويكاد يكون رجاله على رغم شتاتهم، شعباً خاصاً له أفقه

---

(١) الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، سعيد إدوار، ص٣٧ ـ ٤٠.
وقارن: Grand Larouse Encyclopedique. V.II، p1003 - 1004.
وانظر: المعجم الأدبي، عبد النور جبّور: دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٧.

(٢) المستشرقون والآداب العربيّة، العناني علي، الهلال، أغسطس عام ١٩٣٢م، جـ١، ص٤٠.

(٣) عثمان محمد فتحي، العربي: العدد ٢٥٢، ذو القعدة ١٣٩٩هـ، (نوفمبر) تشرين الثاني ١٩٧٩م، ص٣٥.

(٤) المفصّل في تاريخ الأدب العربي، الإسكندري أحمد، وأمين أحمد، جـ٢، ص٤٠٨.

(٥) الدّراسات العربيّة في ألمانيا، تطوّرها التّاريخي ووضعها الحالي، ديتريش أربرت، ص٧.

(٦) المستشرقون البريطانيون، أ.ج. آربري ـ A.J. Arberry، ص٨.

الخاص به، وحياته المقصورة عليه، وقد مرَّ بهذا الشعب وبرجاله في العالم قرون لم يكتشفه، كما هو عالم أديب. ولكنّ هناك بضعة من الكتّاب نقلوا لنا وللغربيين نتفاً من أخبار هذا الشّعب. . .[(١)].

والمدققون يؤثرون استعمال علماء المشرقيّات بدلاً من مستشرقين ويؤثرون استعمال عرباني لدراسة العربيّة مقابل للفظة (Arabist)، ولكنّ لفظة استشرق، ولفظة مستشرق قد شاعتا شيوعاً كبيراً، ولا بأس من استعمالهما في بحثنا هذا[(٢)].

ولا بدّ لدراسة هذا التراث من أداة توصله إلى ثماره المنشودة، وهذه الأداة التي يجب أن يتحصّن بها المستشرق هي إتقان لغة الشّرق، التَّخصُّص بأبرزها آثاراً في التّاريخ والفنون والآداب والعلوم، وهي اللغة العربيّة لا ريب[(٣)].

والباحث في أيّ فرع من فروع المعرفة التي تتعلّق من قريب أو بعيد بهذا المستشرق يُسمّى مستشرق. وبالرّغم من رفض الكثير من هؤلاء لهذا المصطلح وإصرارهم على تسميات الاختصاص (Indologist, Arabist, Islamologist, etc..) مع كل العلاقات الفارقة المعروفة.

ودلالة المصطلح عند العرب أو عند المسلمين، لا تخرج عن مفهوم دراسة الإسلام ديناً، وما يتبعه من لغات أهله وتواريخهم، ومظاهر حضاراتهم.

لهذا رأى (بايير ـ Baer) في الكاردينال (أوليفر ـ Oliver) بأنّ (كولون Colin) هو أوّل مستشرق هولندي لاهتمامه الخاص بالإسلام كما يبدو في كتابه تاريخ دمياط، وذلك لأنّه اشترك فعلاً في سنة (٦١٨هـ ـ ١٢١٨م)، في حصار دمياط، وفي الرّسائل التي كتبها إلى السلطان الأيوبي، وإلى علماء الدّين في مصر[(٤)] باللاتينية إبّان الحملة الصّليبيّة الخامسة، ولم تتميّز كتابات القرون التي تلت إلّا بكونها استمراراً وتكراراً لكلّ المفاهيم التي كانت سائدة في أوروبا جميعها[(٥)].

---

(١) المستشرقون، الحوماني محمد: يوليو ١٩٣٧م، ص٢٦.

(٢) الاستشراق، نشأته وتطوّره وأهدافه، الحسيني، إسحاق موسى.

(٣) المستشرقون والدراسات القرآنية، الصغير، د. محمد حسين علي، ص١١.

(٤) Pijper, G.F, Islam and the Netherlands, P. 9 - 10.

(٥) الاستشراق بين الموضوعيّة والافتعاليّة، السّامرّائي، د. قاسم، ص١٠٧ ـ ١٠٨.

لذلك فإنّ أول استعمال لكلمة مستشرق كما رأيناه في سنة (١٦٣٠م)، حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشّرقية أو اليونانيّة. وفي سنة (١٦٩١م) وجدنا (أنتوني ـ وود A. Wood) يصف (صموئيل كلارك ـ Clark) بأنه استشراقي نابه، يعني بذلك أنه عرف بعض اللغات الشّرقية، و(بيرون ـ Peron) في تعليقاته على (Childe Harold's Pilgrimage) يتحدّث عن (المستر ثورنتون ـ Thornton) ومعارفه الكثيرة الدّالة على استشراق عميق، وفي خلال المجادلة التّعليميّة بالهند التي كان حسمها تقرير (ماكولي ـ Macaulay) الشهير سنة (١٨٣٤م)، كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين، بينما سمّى معارضوهم الذين رغبوا في أن تكون الإنجليزية أساس التعليم بالهند (المنجلنزين ـ Anglicists)، وممّا يؤسف له أنّ ما أنتجه هذا النزاع المشهور من الحزازات قد ألصقت باسم المستشرق قدراً كبيراً من القدح والنّقد، ولا شكّ أن (تشارلز دوتي ـ Charles Dotty) كان يشير إلى ذلك حيث يقول: «إنّ الشّمس جعلتني عربياً، ولكنّها ما شوهتنّي قط بالاستشراق»[1].

وقد تخطّى مصطلح الاستشراق الغربيين، وتجاوزهم إلى المستعربين عامّاً، ممّن لم يعتنقوا الإسلام ديناً، ولم ينطقوا بالغربيّة لغة، وكان من شأنهم أن بحثوا في تراث الشّرق لغة وأدباً، وإن كانوا شرقيين، فشملهم هذا التغيير، وغمرهم هذا المصطلح، فعادوا مستشرقين[2].

ويرى مالك بن نبي أنّه يجب أولاً أن يحدد المصطلح، أنّنا نعني المستشرقين، الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي، وعن الحضارة الإسلاميّة، ثمّ علينا أن نصنّف أسماءهم في شبه ما يُسمَّى طبقات على صنفين:

أ ـ من حيث الزّمن: طبقة القدماء، مثل: (جير درياك ـ GIR DERIYAKE) والقدّيس (توما الأكويني ـ Thomas d'aquin)، وطبقة المحدثين (المعاصرين)، مثل: (كارادوفو ـ Carra de Vaux) و(جولدتسيهر ـ Goldizher).

ب ـ من حيث الاتّجاه العام نحو الإسلام والمسلمين في كتاباتهم. فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلاميّة، وطبقة المنتقدين لها المشوّهين لسمعتها.

(١) المستشرقون البريطانيّون، أ.ج. آربري ـ Arberry A.J.، ص٧.
(٢) المستشرقون والدراسات القرآنية، الصغير، د. محمد حسين علي، ص١٢.

وهكذا، وعلى الترتيب يجب أن تقدّم كلّ دراسة شاملة لموضوع الاستشراق[1].

ولا يخفى عليك أيها القارئ، أنّ التّاريخ الإسلامي ينقسم إلى قسمين:

**القسم الأوّل** منه، هو الإسلام من حيث هو دين، وعناصره: القرآن، والحديث، وحياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

**والقسم الثاني** منه، تاريخ الولايات العربيّة التي نشأت وعاشت في الإسلام. وهذا القسم قد خدمه المستشرقون حقاً، لأنّه نوع من المباحث التّاريخيّة الحرّة.

أمّا القسم الأوّل منه، فهو بيت القصيد، ولا يتصدّى له كلّ المستشرقين، والذين يتصدّون له ترى كلامهم مملوءاً بالتشكيك والاستنتاج الخاطئ، والغمز واللمز، إن لم يكيلوا التُّهم جزافاً، ويرموا الدّين الإسلامي بما شاءت عقائدهم الخاصّة وفائدتهم الماديّة[2].

وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه الذّهن في عالمنا العربيّ الإسلامي عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق، وهو الشائع أيضاً في كتابات المستشرقين المعنيين[3].

وفي معرض النّقد والتّقريظ، نجد أنّ النّاقد إمّا شرقيّ يشكر للمستشرق إنصافه، أو ينعي عليه تعصبه. وإمّا عربيّ يشكر له تعصّبه وينعي عليه إنصافه[4].

وليس المستشرق الجديد بهذا اللقب بالذي يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة أو يستطيع أن يصف عادات بعض الشّعوب، بل إنما هو الذي قدّم خدمات جليلة فيما يتعلق بالمباحث الإنسانيّة والتّاريخيّة، وجمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشّرق، وبين الوقوف على القوى الروحيّة الأدبيّة الكبيرة التي أثرّت على تكوين الثقافة الإنسانيّة، وهو من تعاطى درس الحضارات القديمة، ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدّن في القرون الوسطى

---

(١) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ابن نبي، مالك، ط١، ص٥ ـ ٦.
(٢) نحن والمستشرقون، الهراوي، حسين، المعرفة، يوليو (١٩٣٢م).
(٣) كتاب الأمة، الاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصراع الحضاري، زقزوق، د. محمود حمدي: صفر الخير ١٤٠٤هـ، ص١٨.
(٤) المستشرقون، الحوماني محمد: الرّسالة، يوليو ١٩٣٧م، ص٢٦.
(٥) علم الشّرق وتاريخ العمران، جويدي، م.أ: ص١١ ـ ١٢.

مثلاً، أو في النهضة الحديثة..[1].

والمستشرق بالمعنى العام يطلق على كلّ عالم غربيّ يشتغل بدراسة الشّرق كلّه، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه. ولكننا لا نقصد هذا المفهوم الواسع، ولا يعنينا أيضاً أن نتعرّض للتّغييرات الجغرافيّة والحضاريّة التي طرأت على مفهوم الشّرق في مختلف العصور[2]. بل المستشرقون هم قوم في أوروبا نسبوا أنفسهم إلى العلم والبحث وشغلوها في أغلب الأحيان بالبحث في التّاريخ والدّين والاجتماع، ولكلّ منهم لغته الأصلية التي رضع لبانها من أمّه وأبيه، ومجتمعه وبيئته، فصارت له اللغة الأم كما يعبّرون، فهو يغار عليها ويتأثر بها، ويستجيب لموحياتها، ولكنّه مع ذلك تعلّم العربيّة بجوار لغته الأصليّة، ليدرس حضارة الشّرق وعلومه وآدابه[3].

**والمستشرقون**: هو اسم واسع يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشّرقيّة المختلفة، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والصّين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشّرق[4].

ولم يكن المتخصصون بعد من العدد بحيث يمكنهم تشكيل جمعيّات أو إنشاء مجلّات متخصصة في بلد واحد، أو شعب واحد، أو منطقة واحدة من الشّرق، ومن الناحية الأخرى كثيراً ما كان أفق هؤلاء المستشرقين يشمل عدداً من المجالات بطريقة غير متوازية في عمقها، ومن هنا بدأ تصنيفهم كمستشرقين[5].

وإذا كان من العسير كما رأينا وضع تحديد ثابت لمفهوم كلمة شرق كما مرّ معنا، فإنّه من الصعوبة بمكان أيضاً تعريف المستشرق تعريفاً قاطعاً شاملاً، ولكن يمكننا أن نقول: إنّ المستشرق هو عالم غربي من علماء الفرنجة يهتم بالدراسات الشّرقيّة، فلا بدّ أن يتوافر في هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها في العَالِم

---

(١) كتاب الأمة، الاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصراع الحضاري، زقزوق، د. محمود حمدي: صفر الخير، ١٤٠٤هـ، (مرجع سابق)، ص١٨.

(٢) التصوّف عند المستشرقين، الشرباصي أحمد، سلسلة الثقافة الإسلاميّة، مطبعة نور الأمل، ١٩٦٦م، ص٢٧.

(٣) المستشرقون والإسلام، اللبّان إبراهيم عبد المجيد، ص٤ ـ ٥.

(٤) صورة العالم الإسلامي في أوروبا، (م. رودنسون ـ M. Rodinson) الطليعة، فبراير ١٩٧٠م، ص٧٤.

المتخصص المتعمق حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة بإنتاجه العلمي.

ولا بدّ أن ينتمي هذا العَالِم إلى الغرب، ولو كان هذا العَالِم يابانياً أو أندونيسياً أو هندياً لما استحق أن يُوصف بالمستشرق، لأنه شرقيّ بحكم مولده وبيئته وحضارته، وقد تكون الدّراسات الشّرقيّة التي يقوم بها المستشرق تاريخاً، أو فلسفة أو آثاراً، أو اقتصاداً، ولكنّها تربط بالشّرق، وليس من الضروري أن يرحل المستشرق إلى الشّرق ليعيش فيه، أو ليتطبّع بطباعه أو حضارته، فقد يقوم بدراسته في جامعته العربيّة أو في وطنه، وإن كان رحيله إلى الشّرق يجعل دراسته أكثر فائدة وأقرب إلى الواقعيّة والحقيقية. وليس من الضروري أن يعتنق هذا المستشرق الإسلام، أو أحد الأديان السائدة في الشّرق، كما أنه ليس من الضروري أيضاً أن يتحدّث باللغات الشّرقية، وإن كان الإلمام بها أو إجادتها يعينه كثيراً في دراسته وأبحاثه[1].

**المستشرقون طلّاب معرفة:**

إنّ المستشرقين يَعتبرون أنفسهم طلّاب معرفة، بقدر ما يعتبر عالم الكيمياء، أو الرياضيات نفسه طالب معرفة. وهم يرون أنّ مهمتهم الأولى البحث والتنقيب توصلاً إلى المعرفة، وأنّها ـ أي مهمّتهم ـ ليست إتقان اللغات الشّرقية التي يشتغلون بها إتقان الترجمان الضليع، أو إتقان أبنائها الذين يحتاجون إليها في حياتهم ومعاملاتهم، وهم يرون أنّهم ليسوا علماء أعلاماً على مفهوم هذه الكلمة في نفوس كثير من أهل البلاد الشّرقيّة؛ أي أنّ أحداً منهم وَعَى العلم كلّه أو جلّه في صدره، وأنّه يستطيع أن يفتي في الحقير والجليل، إنّهم يرون أنّ ذلك هو عكس مفهومهم لمهمّة العلماء، إذ إنهم يرون أنّ آفاق العلم متجدّدة، وأنّ مهمتهم أن يروها تتجدّد بتكرار البحث والتنقيب، إنّهم لا يرون أنّ العلم في الصدور ولكنه في السطور.

**للمستشرقين منهج كسائر المناهج:**

ليس هذا دفاعاً عن المستشرقين ولا تأييداً لهم، بل كل ما في الأمر أنّ علينا أن نعلم أنهم يشيرون في أبحاثهم على منهج يسير عليه العلماء جميعاً، وهو

---

(١) المستشرقون والتّاريخ الإسلامي، الخربوطلي، علي حسني، ص٢٥ ـ ٢٦.

منهج أدّى في ميادين العلم الأخرى، إلى نتائج عجيبة هي اليوم حديث العالم كلّه، وأعني بذلك التقدّم الصنّاعي التطبيقي العجيب الذي قد لا يكون غزو الفضاء أعجب مجالات تقدّمه، وكما أن النتائج الماديّة الملموسة التي وصل إليها العلم الحديث أصبحت أمراً مسلماً بصحتّها في نفوسنا تسليماً يكاد يكون صوفياً، حتى أصبحنا نعيب من يعيبها، فإنّ أقلَّ ما ينبغي أن نفعله حين النظر في أعمال المستشرقين وأبحاثهم، ألّا نحكم عليها إلّا بعد تمحيصها.

**جهود المستشرقين العلميّة:**

وينبغي ألّا يغيب على البال أنّ الاستشراق مجهود المسشترقين العلميّة، ليست مقصورة على البلاد العربيّة والدّراسات الإسلاميّة العربيّة، بل إنّها تمتد حتى تشمل جميع حضارات آسيا وأفريقيا القديمة والحديثة. وإذا علمنا أنّ علاقات العالم العربي الإسلامي ببقيّة بلدان آسيا وأفريقيا متينة متّصلة تاريخياً وجغرافياً في القديم والحديث، أدركنا أن ثمّة ميداناً واسعاً على العلماء في البلاد العربيّة أن يجولوا فيه، لا متعلمين وحسب، بل علماء باحثين منقبيّن عن نواح هي قسم من تراثهم، وقسم من تاريخ مصالحهم الحيويّة.

**جهود المستشرقين في الماضي والحاضر:**

إنّ من الممكن القول: إنّ العلم في البلاد العربيّة قد أفاد من جهود المستشرقين في الماضي والحاضر، وأنّ صلة العالم العربي بالمستشرقين وجهودهم تزداد يوماً بعد يوم، يشهد بذلك الأعداد المتزايدة من طلاب الأبحاث والدراسات العليا، الذين يَرِدُونَ معاهد الدراسة والبحث في أوروبا. وهنا لا بدّ من وقفة نجيل معها النّظر فيما يعود على العلم في البلاد العربيّة من جهود أبنائها الذين يدرسون على المستشرقين في البلاد الأجنبيّة.

**رسالة المستشرقين العلميّة:**

لهذا فإنّ رسالة الاستشراق، ورسالة مؤتمر المستشرقين إلينا، هي رسالة العلم والبحث والأمانة والصبر على مكاره البحث ومشاقه؛ جسميّة كانت أو نفسيّة، ورسالتهم أنّ الإنسان ينبغي أن لا يقدِّم على طلب الحقيقة أيّ اعتبار آخر.

أنا لا أقول: إنّ جميع أعمال المستشرقين وآثارهم تشهد بهذا وتحققه،

ولكن هذا هو النّهج العلمي الذي يحاولون أن يسيروا عليه، ويقيدوا به، ونحن العرب يجب ألّا نتخلف عنهم منهجاً، وأن ننافسهم إن كان في العلم موضع منافسة في التزوّد منه وجني ثمراته.

وصفوة القول: من العسير وضع تعريفٍ قاطعٍ شاملٍ له، ولكن يمكن تعريف المستشرق بأنه عالم غربي من علماء الفرنجة يُعنى بعلم الشّرق والاستشراق، ويهتم اهتماماً واسعاً بالدراسات الشّرقية، وهو المشتغل بالعقليات الشّرقية ولغاتها وتقصّي آدابها طلباً لِتُعْرف شأن أمّة أو أمم شرقيّة من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها، أو علومها وآدابها، أو غير ذلك من مقوّمات الأمم. غير أنه تطلق لفظة مستشرق بالمعنى العام على كلّ عالم غربي يشتغل بدراسة الشّرق كلّه، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه(١).

## ➢ ظاهرة المشرقيّات وعلاقتها بكلّ من الاستعمار والتبشير والصّهيونية:

### أطوار الصراع بين الشّرق والغرب:

تبيّن لنا أن ظاهرة الاستشراق وليدة الصّراع الذي نشب بين الشّرق والغرب من أجل سيطرة أحدهما على الآخر عسكريّاً واقتصاديّاً، وثقافيّاً وعقديّاً، منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث(٢).

من هنا يمكن تقسيم الصّراع بين الشّرق والغرب إلى طورين هما:

١ ـ طور ما قبل الإسلام.

٢ ـ طور ما بعده.

أمّا صراعهما في الطّور الأوّل، فقديم قدم وجود الإنسان في الشّرق والغرب معاً، وقد «التقيا منذ أبعد حقب التّاريخ وما زالا يلتقيان دائماً وسيلتقيان ما بقي في العالم شرق وغرب، والنّضال مستمر بينهما لم تهدأ قط يوماً ثائرته..»(٣).

---

(١) انظر: مجلة العربي، مقال بقلم الأستاذ محمود الغول، العدد الرابع، مارس ١٩٥٩م، ص١١٨ ـ ١٢٢.

(٢) ج.س. هورويتر: الصّراع السّوفييتي الأمريكي في الشّرق الأوسط، ص١٣ ـ ٣٨. وأيضاً: هانسون. وبالدوين، استراتيجيّة للغد، ترجمة محمد خيري بنوته، ص١٥٤ ـ ٢٢٠.

(٣) محمد حسين هيكل: الشّرق الجديد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م، ص١٣ ـ ١٤.

وهذا الالتقاء بينهما هو الذي أفاد العالم حضاراته المختلفة، وهو الذي رفع لواء العلم والهداية فوق ربوع العالم برغم ويلات الحروب وأهوال التّعصب الجنسي والدّيني ونيران العداوة والبغضاء التي أماتت الضّمائر وقضت على الرّوابط الإنسانيّة بين الشّعوب المختلفة. وكلّ من يتتبع الأحداث التي وقعت في التّاريخ قبل الإسلام لا بدّ أن يؤمن إيماناً وثيقاً بأنّ الاتصال بين الشّرق والغرب كان على مرّ العصور حرباً وصراعاً أكثر منهما أمناً وسلاماً، وحسبنا دليلاً على ذلك أن ننظر إلى تلك الحروب المتّصلة التي دارت رحاها، بين الفرس واليونان، والفراعنة والرّومان، فضلاً عن الحروب المحليّة والدّاخلية التي لم تخمد نارها إلّا لتشتعل بعد قليل[1].

وأمّا صراعهما في الطور الثاني فقد اتخذ شكلاً جديداً بسبب ظهور الإسلام الذي أخذ يشقّ طريقه نحو هدفه غير مبالٍ بالأخطار المحدقة به من كلّ جانب، فقد ظهر الإسلام في موطن يسيطر عليه العرب الوثنيّون واليهود المقيمون في الجزيرة يتربّصون به، والمجوس على مقربة منه، والنّصارى في شماله وجنوبه وبين ظهرانيه، ولكنّ «الدعوة الجديدة لم تلبث أن ظفرت بهذه القوى جميعاً، ففي أقلّ من مائة سنة عقب وفاة النبي ﷺ، امتد سلطان الإسلام إلى الشام وإلى مصر، وإلى شمالي أفريقيا حتى المحيط الأطلنطي، وانتقل من مرّاكش إلى إسبانيا، كما امتدّ في قلب آسيا حتى أواسطها، وفي فترات متقاربة، بعد ذلك امتدّ إلى الهند وإلى جزر الهند الشّرقية، وبذلك قامت في العالم دولة إسلامية مترامية الأطراف، انتقلت عاصمتها من مكة إلى دمشق ثمّ إلى بغداد ثمّ إلى القاهرة، وأحيت في العالم حضارة جديدة، انكمشت أمامها الحضارات: الفارسيّة واليونانيّة والرومانيّة، ووقفت المسيحيّة خائفة ترقب»[2].

**العالم الإسلامي مركز الصّراع:**

إذن، فبظهور الإسلام وانطلاقة العرب تحت لوائه بدأ عصر جديد بين الشّرق والغرب دون أن يتوقع أنّ حقبة جديدة من حقب التّاريخ قد بدت

---

(١) محمد حسين هيكل: المرجع السّابق، ص١٥. وأيضاً: روم لاندم: الإسلام والعرب، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) محمد حسين هكيل: المرجع السّابق، ص١٧.

بشائرها.. كان النّاس جميعاً يجهلون أنّ سنة (٦٢٢م) التي شاهدت نبياً بها عبر من مسقط رأسه مكّة في سنة الصّفر من تاريخ الإنسانيّة[١].

وعندئذٍ أصبح الصّراع بينهما صراعاً عقدياً أكثر منه عسكريّاً، حيث تأكد عقديّاً الغرب من لقاءاته الأولى مع الإسلام أنهم أمام قوّة صلبة قاهرة هوت الإمبراطوريّات أمام قوّة إيديولوجيتها واندفاعها نحو بناء صرح إنسانيّ خالد.

و«تاريخ الإسلام على الأرض يمتاز في قرونه الأولى بقدر كبير من التوفيق والعظمة والإبداع، سواء من النّاحية الدّنيويّة أو الرّوحيّة، وأمام ضربات جيوش المسلمين الظّافرة هوت إمبراطورية فارس، ثمّ تبعها معظم ولايات الإمبراطوريّة الرّومانيّة وأهمها.. على أنّ التّاريخ الإسلامي لا يمتاز في هذه القرون بالقوة فحسب، وإنّما كانت هذه الجيوش تحمل معها مدنيّة جديدة، وتقدّماً كبيراً في العلوم والفنون، واللغة والآداب والتشريع والإدارة والتجارة.. إلى غير ذلك من وسائل السّموّ والرّفعة والرّقي، لقد كان فتحاً بنّاء تماماً تمخّض عن مجتمع عظيم جديد اكتملت فيه عناصر القوة والمجد»[٢].

لقد قدّم الإسلام إلى العالم كلّ ما كان ينقصه حين ذاك[٣]، حيث رفع مبادئ التّسامح والحريّة الدّينيّة، وتحدّى العدالة في فرض الضّرائب وتوفير الأمن وإيجاد كلّ المقوّمات اللازمة للنهضة العلميّة والثقافية، لأنّ «الفتح العربيّ الإسلامي» لم يكن هدفه الغزو والاستعمار والاستغلال، وإنّما كان في كلّ بلد سعياً لخلق حضارة من صنعه، ووفق تعاليم الشريعة السّماوية الغرّاء، مع الأخذ بما يراه صالحاً من الحضارات القائمة في البلاد التي فتحها، وبرغم تداخل تلك الحضارات وتشابكها، إلّا أنّ لكلّ منها طابعاً أصيلاً، يمكن أن يتخذ أساساً لثقافة وطنيّة في الحضارة والمستقبل[٤]. وهكذا حدث أن حررّ الإسلام منطقة شاسعة من

---

(١) جان بول رو: الإسلام في الغرب، ص٢٤.
(٢) و.ك. سميث: الإسلام في التّاريخ الحديث، ص١٩.
(٣) محمد عبد الله عنّان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص٢١.
(٤) ر. جارودي: أثر الحضارة العربيّة على الثقافة العالمية، الطّلبعة يناير ١٩٧٠م، ص١١٧. ونشرت هذه المحاضرة مع مقدّمة موجزة في مجلة «البعث الإسلامي» من أول أبريل وخمسة عشر منه وأوّل مايو عام ١٩٧٣م، الأعداد: ٦٣، ٦٤، ٦٥.

سيطرة اليونان والرّومان، كانت تخضع لإيديولوجية مسيحيّة قروناً طويلة[1].

ومنذ ذلك الحين أصبح الصّراع بين الشّرق والغرب قضيّة عالميّة[2]. وظلّ الإسلام الشغل الشاغل لساسة الغرب خلال العصور المتلاحقة، حتى طغت مشكلة مواجهته على جميع مخططاتهم، لأنّ الخطر الحقيقي في نظرهم كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التّوسع والإخضاع، وفي حيويته ووقوفه سدّاً منيعاً في وجه الاستعمار الأوروبيّ[3]، الذي يسعى دائماً للسّيطرة على العالَمين الآسيوي والأفريقي.

ويمكن حصر هذا الصّراع في طوره الثاني في خمس مراحل أساسيّة الأولى:

١ ـ مرحلة اندفاع العرب المسلمين نحو الغرب.

٢ ـ احتلال الشّرق المسيحي.

٣ ـ ثمّ فتح شمالي أفريقيا.

٤ ـ والسّيطرة على الأندلس.

٥ ـ والسّيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط.

وفي أثناء ذلك «أطاح الفتح العربي الإسلامي بتأثير البورجوازية التجارية التي فرضتها السّيطرة البيزنطية.. إن الفاتح العربي أضاف إلى سموّ العلاقات الاقتصادية والاجتماعية سموّاً أخلاقياً مبنيّاً على السّماحة، وسموّاً عقليّاً يعتمد على روح نقديّة واعية، ولهذا ارتأى «إنجلز» رفيق «ماركس»، أن المفكرين العرب هم السّلف البعيد «للإنسيكلوبيد» بين الفرنسيين في القرن الثامن عشر[4].

لكنّ الغرب لم يكتف بما قدّم إليه المسلمون عبر التّاريخ من خير كثير، بل ذهب بعد العدّة للانقضاض عليهم وإزالة وجودهم في الغرب والشّرق معاً، فبدأت المرحلة الثانية وهي محاولة الرد الغربي بالعمليات العسكرية المشهورة

---

(١) أ. توينبي: الإسلام والغرب والمستقبل، ترجمة نبيل صبحي، ص١٦.

(٢) ل. بيز: الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ترجمة حسين مؤنس، ص٣٩١.

(٣) د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ: التبشير والإستعمار، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٧م، ص١٨٤.

(٤) ر. جارودي: المرجع السّابق، ص١١٦.

بالحروب الصّليبيّة التي استمرت قرنين من الزمن وحفلت بالنتائج السّياسيّة والاقتصادية والثقافية للغرب، وأثرت فيه تأثيراً عظيماً حتى تعتبر من أهم الفترات في تاريخ المدنيّة الغربيّة على الإطلاق[١].

ولكنها من ناحية أخرى «كانت أعظم مأساة نزلت بالصّلات بين المسلمين والنصارى.. لقد أحبّ الصّليبيون أن ينتزعوا القدس من أيدي المسلمين بالسيّف.. فلم يستطيعوا، وتركوا وراءهم عداوة وبغضاء وأحقاداً[٢]. ويضاف إلى ذلك غزوات المغول وما قامت به جحافلهم من تدمير وتخريب وقتل وإحراق ابتغاء الغلب والسّيطرة.. ومساعدتهم للنّصارى من طريق غير مباشر وإنزال البؤس والشّقاء وبالسماحة الإنسانيّة[٣].

وممّا لا ريب فيه أنّ هذه الفترة تعتبر من أحرج الفترات في تاريخ العالم الإسلامي حيث تآمرت قوى الغرب والشّرق معاً للانقضاض عليه انقضاضاً كاملاً، ولم يواجه الإسلام خطراً شبيهاً بالخطر الذي واجهه آنذاك وهدّده في الصّميم، إذ بينما كان يواجه أوروبا كلّها المتكتلة ضدّه، رأى قوّة جديدة أقوى وأخطر تتعاظم من خلفه... وبعد أن مرَّت الأيام الأولى المفعمة بالخوف والقلق والتي أحدثتها الغارات الآسيوية على المجر وبلاد البلغار... انطلقت البعثات من الكرسي الرسولي والبلاطات الأوروبيّة، وكلّها تخطب ودّ ساداتهم الجدد في عاصمتهم النّائية في بوادي آسيا... والهدف من ذلك كان في البدء معرفة نوايا هؤلاء التّتار وتحويل أنظارهم عن أوروبا ثمّ تولدت الفكرة الجهنّميّة الجبّارة في جذب هؤلاء الغزاة الذين قضوا على دولة فارس الإسلاميّة واحتلّوا أخيراً بغداد عاصمة الخلفاء العباسيّين لإقامة تحالف معهم والقيام بحملة حاسمة مشتركة ضد الدّولة السوريّة المصريّة[٤]. لقد كانت هذه الواقعة بمثابة ضربة قاضية في وجه التصاعد التقدمي للحضارة العربيّة التي أصيبت بمثلها في الأندلس[٥].

---

(١) ستفن رينسمان: تاريخ الحروب الصّليبيّة، ترجمة السّيّد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م، ج٢، ص٧٨٢ ـ ٧٨٨.

(٢) د. مصطفى خالدي، د. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص١١٥.

(٣) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص١٣٠.

(٤) جان بول رو: الإسلام في الغرب، ص٤٤ ـ ٤٥.

(٥) لوثوب ستوارد: حاضر العالم الإسلامي، ج١، ص٢٥.

ويبدو أن زعماء المسيحيين لم يكونوا على درجة من الوعي التّاريخي إذ كان المفروض أن يتصرفوا بنزاهة وتعقل ويتعاونوا مع زعماء الإسلام في ردّ الهجوم الوثني المغولي على الدّين الإسلامي الذي يعترف بالدّين المسيحي اعترافاً كاملاً، ولكنهم فعلوا عكس ذلك، إذ وجّه زعيم العالم المسيحي البابا (أنوسينت الرابع) بعثتين إلى منغوليا، وأبى القديس لويس؛ الورع أن يتفاوض مع المسلمين بأيّة حال، ولم يجد أية غضاضة على معتقداته الدّينيّة أن يوجّه موفدين «رومنيكيين» لمفاوضة المغول الوثنيين[1]. وبعد أن طرد العرب المسلمون الصليبيين من بلادهم وأوقفوا زحف المغول وأنقذوا المسيحيّة من خطرهم ودهائهم استعاد الإسلام قوته وجبروته مرة أخرى حتى صاح الأسقف «دي منسيل»: هكذا نرى الإسلام الذي كانت قوته قد أشرفت على الزوّال يسترد مكانته، ويستعيد قوته، ويصبح أشدّ خطراً من ذي قبل[2].

ومهما يكن من أمر هذه الحروب وخطرها، فإنّها أثرت في أوروبا الغربيّة من نواحٍ عديدة:

**أولاً**: في الكنيسة، وعلى الأخص في البابوية واتجاهاتها.

**ثانياً**: في الحياة اليومية الاقتصادية والسّياسيّة في جميع الممالك.

**ثالثاً**: في الحياة الدولية وعلاقة الدول بعضها ببعض.

**وأخيراً**: في علاقات الغرب بالشّرق وتوسيع نطاقها منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر[3].

وسرعان ما جاءت المرحلة الثالثة، وهي مرحلة ظهرت فيها قوة الأتراك الضاربة[4] التي كانت تستهدف التوسع على حساب المسيحيين، واندفعت نحو

---

(١) روم لاندو: المرجع السّابق، ص١٣٠.
(٢) م.ع. الغنيت: الشّرق والغرب من الحروف الصّليبيّة إلى حرب السويس، نقلاً عن مطابع دار القومية، بدون تاريخ، ص٧٠. وراجع د. حسان حلاق: «دراسات في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، فصل الحروب الصّليبيّة في بلاد الشام» من ص٣٧٧ وما بعدها.
(٣) باركر: الحروب الصّليبيّة، تراث الإسلام، علي أحمد عيسى، جا، ص١٣١ ـ ١٣٢.
(٤) محمد جميل بيهم: فلسفة التّاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، (١٩٢٥م)، ص١ ـ ٥ وما بعدها.

القسطنطينيّة لاحتلالها وإلى بلاد البلقان لاجتياحها وعلى شمالي أفريقيا لبسط نفوذها، وعندها نجحت في تحقيق أهدافها وأضحت حاجزاً منيعاً لفترة من الزمن أمام قوى الأطماع الغربيّة التي أخذت تتصارع معها لإضعافها كي تتاح لها العودة كرّة أخرى إلى العالم العربي الذي كان بيت القصيد، ولم يزل كذلك لأهدافها وأطماعها، وينبغي ألا ننسى أن الدولة العثمانية قد استولت على البلاد العربيّة أيضاً. و«لكنها لم تفعل سوى القليل في سبيل تنشيط هذه البلاد واستعادت حيويتها واستغرقت هذه البلاد التي أدّت دوراً فعالاً في تاريخ العالم في نوم عميق لا تستفق منه إلا في وقتنا الحاضر، على أن مشعل الحضارة المتقدمة إلى الأمام كان قد انتقل إلى الغرب[١]. وقد دام الصّراع بين العثمانيين والأوروبيين فترة من الزمن حتى ضعفت الدولة العثمانيّة فاستطاع الغرب أن يتسلل من جديد إلى البلاد العربيّة.

ثمّ جاءت المرحلة الرابعة والتي انتهت بطرد الاستعمار الغربي للأتراك من الولايات العديدة، وفرض الاحتلال على الجزء الأكبر من العالم الإسلامي عامة والبلاد العربيّة خاصّة، وبدأ الغرب منذ ذلك التّاريخ يواجه القضية العربيّة وحدها منفصلة عن تركيا، وبذلك عاد الموقف بين الغرب والشّرق العربي إلى ما كان عليه قبل قيام الدّولة العثمانيّة وأصبحت القضية العربيّة هي كل ما يشغل أساسه الغرب في هذه المنطقة من العالم[٢].

وعندما عاد الصراع بين الشّرق والغرب إلى مجراه الطبيعي من جديد ظهرت شدته وخطورته بصورة أكثر وحشية وضراوة من ذي قبل واستخدم الغرب فيه كل الوسائل الممكنة؛ مشروعة وغير مشروعة في سبيل تحقيق أهدافه وأطماعه، وزعم أنه أقدم على احتلال الشّرق الإسلامي لمعاونته وتحضيره تطبيقاً للفكرة القائلة بأنّ على الرجل الأبيض يقع العبء في تمدين البرابرة وتثقيفهم[٣].

وقد كانت فلسفته هذه ستاراً لأعمال الوحشية التي اقترفها باسم العلم والدّين والحضارة، والحقيقة أنه استهدف من ورائها إزالة الوجود الإسلامي في

(١) جورج رنتر وآخرون: دراسات إسلامية، ص٢٤.

(٢) م.ع. الغتيت: المرجع السّابق، ص١١٣.

(٣) أ. تشايلدرز: الحقيقة عن العالم العربي، ص٥٤.

العالم العربي أولاً وقبل كل شيء، لأنه قلبه النابض الحيّ، ثم اقتلاعه هو نفسه من الجذور، كي يفتح أمام أغراضه طريقاً للسيطرة على العالم بأسره، لقد كانت معونة الغرب للعالم الإسلامي معونة من يريد أن يستغل استغلالاً اقتصادياً فاحشاً تحت ظاهر من نشر لواء حضارته، فحضارة العلم قد عنيت في الشّرق بتضييق نطاق العلم غاية التضييق. وعكفت البعثات التبشيرية في البلاد التي ظلت مستقلة على بث تاريخ مشوه للشرق في نفوس أبنائه وعلى أن يروجوا بين تلامذتها عقيدة خبيثة بأن سبب تأخره إنما هو دينه وتاريخه، ولا سبيل إلى تقدمة ما لم ينزع عنه ثوب هذا الدّين وما لم يفصل بينه وبين ماضيه بسياج متين، فأما في البلاد التي استحكم نفوذ الغرب فيها فقد حصر التعليم في أضيق دائرة ممكنة وجعل أداة التخريج موظفين يدينون بالطاعة والإذعان للغرب صاحب السبق والتّقدّم، أو صاحب النفوذ السّياسي في البلاد[1].

لقد كان هدف الغرب الأساسي في جميع تصرفاته نحو الشّرق هو قهر الإسلام في عقر داره في العالم العربي، بالذّات حتى معاملته مع الإمبراطوريّة العثمانيّة كانت على هذا الأساس على الرغم من عداوته لها ورغبته في سحقها، فهاكم المؤرخ السّياسي المشهور «جيزو» رئيس وزراء فرنسا في عهد محمد علي يعترف صراحة «أن الغرب كان حريصاً على أن يفتت أجزاء الإمبراطوريّة العثمانيّة، وفي الوقت نفسه يستبقيها في حالة احتضار دائم دون أن يجهز عليها لا لغرض إلا لتبقى سيطرتها على البلاد العربيّة عقبة أمام تحرّر تلك البلاد وحائلاً دون نهضتها، ومن أجل هذه الغاية درجت سياسة الغرب على الاحتفاظ بتركيا ضعيفة»[2].

والحقيقة تؤكد أنّ الغرب كان يستعد عدّة قرون بعد هزيمته في الحروب الصّليبيّة وتأثره بالحضارة العربيّة لبعث نهضة علمية حديثة في بلاده كي يتمكن من الانقضاض على الشّرق الإسلامي انقضاضاً ساحقاً. فأحاط به على غفلة من الأتراك الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم عليه من كل الجهات حتى عندما جاء القرن الثامن عشر والتاسع عشر وجد هذا العالم نفسه في موقف تنهال فيه الضربات عليه من جميع الجهات وتلاحقه الهزائم في كل الميادين.

---

(١) محمد حسين هيكل: المرجع السّابق، ص٧٢.

(٢) محمد علي الغتيت: المرجع السّابق، ص١١٥.

و«الواقع أن الغرب نجح في أواخر القرن السادس عشر في عقد الأنشوطة حول عنق الإسلام وذلك بفضل غزوه للمحيطات ولكن لم يضيق الغرب الأنشوطة إلّا في القرن التاسع عشر، وحتى ذلك التّاريخ كانت الذكريات الدائمة في مخيلة العسكريين عن التّاريخ العسكري البطولي للإسلام هي التي أبقت الغربيين حذرين من الهجوم وأبقت المسلمين راضين مسرورين والتجربة التي بدأت تضعف هذا الرضى عند المسلمين كانت في تتابع الهزائم العسكرية للإمبراطورية العثمانيّة والقوى الإسلاميّة الأخرى على يد خصوم مسلحين بالأسلحة الغربيّة ومزودين بالعلم والتقنية اللذين هما عصب الفن الحربي عند الغرب[١].

وقد يلاحظ أن الغرب كان وما يزال يرتدي في تلك الآونة زي العداوة للإسلام على الرغم من زعمه أنه تحرر من عقدة الدّين غير أن أهدافه قد اتسعت إذ أضاف إلى رغائبه القضاء على الإسلام وتحطيم قوته السّياسيّة وهيبته الإيديولوجية النادرة[٢].

وهكذا مرّ على الشّعوب الإسلاميّة سنون كثيرة كانت فيها موضع استخفاف واحتقار من قبل العالم الغربي، ولم يتح لصوتها أن يرتفع في المحافل الدولية[٣]. وأصبحت سيطرة الغرب على الشّرق الإسلامي قوة هدامة تشغل مكاناً خطيراً في تطورّه وتزرع في نفوس أبنائه بذور الشك في دينه والتنكر لقيمه ومثله العليا، وهبّ المفكرون الإسلاميون للدفاع عن الفكر الإسلامي ويحاربون تلك الترّهات التي ينشرها الغربيون في المحيط الإسلامي، ويجتاز الشّرق اليوم برزخاً يتصارع فيه الماضي والحاضر وتتنازع العادات القديمة الأصلية مع الجديدة الدخيلة[٤].

والغريب أن يتساءل مفكر مثل أحمد أمين عن مصير الشّرق الإسلامي واستعداده لاجتياز برزخه الخطير ومدى إمكانياته الفعلية لتخطيه لو لم يحتله

---

(١) آرنولد توينبي: الإسلام والغرب والمستقبل، ص١٩.
(٢) جان بول رو: الإسلام في الغرب، ص٧٠ ـ ٧١.
(٣) روم لاندو: تاريخ الغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، مراجعة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م، ص١١٩.
(٤) لوثروب ستوارد: حاضر العالم الإسلامي، ص٢ ـ ٦.

الغرب ناسياً تلك الحركات البناءة التي سبقت وصول كتائب الغرب المسلحة، وبعثات التبشير المتعصبة بعشرات من السنين، كما سبقت تلك الحملة المشهورة التي قادها نابليون عليه بوقت قصير، والواقع يؤكد لنا أن اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الغربي بأمد طويل(١)، ذلك أن علماء المسلمين أسهموا إسهاماً بارزاً في تقدم ورقي أوروبا، لا سيما في العصور الوسطى(٢).

هذا هو الواقع ومهما كانت أهمية هذا الرأي أو ذلك فلا بدّ من الاعتراف بحقيقة لا جدال فيها، وهي أن الغرب حينما جاء إلى الشّرق شد وثاق ضحيته، وأخذ يمتص دماءها، ويفعل تحت شعار «التقدّم» و«التمدّن» أكثر مما كان يفعله الصليبيون والمغول من قبل، ومع ذلك استيقظ العرب من سباتهم العميق بفضل علمائهم المخلصين والمفكرين المصلحين والأدباء الثائرين حتى كان الاستعمار بمثابة قرع النواقيس لإيقاظ شعوب الشّرق ومواصلة إصرارها على تقدم البلاد وازدهارها بعزيمة أشد صلابة، وإرادة أكثر قوة.

وبفضل هؤلاء جميعاً جاءت المرحلة الخامسة في هذا الصراع الدامي بين الشّرق والغرب التي تمتاز بالنضال ضد الاستعمار وتحرير المسلمين من الرواسب البالية التي تراكمت عليهم خلال القرون، وهو نضال شاق ومرير يتميز بالقوة والضراوة. ويحاول فيه العدو بكل ما في وسعه إزالة كل ما هو إسلامي، واقتلاعه من الجذور لم يكن هذا الصراع مصدر خطرٍ كبير بقدر ما كان يدعو إلى التفاؤل والاطمئنان، فإنّ مصدر الخطر الحقيقي هو زوال هذا الصراع، وأن يفقد النّاس الإحساس بالفرق بين ما هو إسلامي وما هو غربي، إن فقدان هذا الإحساس هو النذير بالخطر لأنه يعني فقدان الإحساس بالذات. فالجماعات التبشيرية إنما تدرك ذاتها من طريقين معاً: من طريق وحدتها التي تكونها المفاهيم والتقاليد المشتركة، ومن طريق مخالفتها للآخرين التي تنشأ عن المغايرة والمفارقات، ولذلك كان الخطر الذي يتهدد هذه الوحدة يأتيها من طريقين: الشّعوبيّة التي تفتتها، والعالمية التي تضعفها، فزوال الإحساس بالمغايرة والمفارقة

(١) أنور الجندي: الفكر العربي المعاصر، ص٢٢ ـ ١٩.
(٢) للمزيد من التفاصيل انظر: د. حسان حلاق: تاريخ العلوم والتكنولوجيا عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

هدم لأحد الركنين اللذين تقوم عليهما الشّخصيّة، وهذا هو ما لا نريد أن يكون، وإنما نريد أن يظل هذا التمييز بين ما هو إسلامي وما هو طارئ مستجلب شرقياً كان أو غربياً حيّاً في نفوس الأجيال الصاعدة والتالية قبله، ولا بدّ أن تحملها إلى من يجئ بعده[1]. وليسلم إليه الشعلة التي تنير الطريق للدفّاع عن الذّات والمحافظة على خصائصها المتميّزة.

وبسبب الأطماع الرّامية إلى إزالة هذه الشّخصيّة المتميزة من الوجود، أصبحت منطقة الشّرق، منطقة تشابك مستمر وتصادم دائم في المصالح الرئيسية الاستراتيجية والفكرية والاقتصادية والحضارية والعقدية وانطلاقاً من هذا الأساس وضعت خريطة جديدة خطيرة منذ زمن للصراع العالمي، وهكذا غدت منطقة العالم العربي محوراً للعلاقات المتواترة لا لأهمية يملكها طريقاً فريداً إلى الشّرق الأقصى فحسب، ولا لأنها تعد مفتاحاً لقارات بأسرها، بل لاستمرار وجود الإسلام فيها إذ تطمع القوى المختلفة في سحق وانتزاع روحه، لأنّ له دوراً بنّاء في المستقبل كما كان في الماضي، فإذا سبب الوضع الدولي الآن حرباً عنصرية يمكن للإسلام أن يتحرك ليؤدّي دوره التّاريخي مرة أخرى[2].

هذا من ناحية، وإلى هذا يُشير «أشعيا يومان» في مقاله: «الجغرافيّة السّياسيّة للعالم الإسلامي»، قائلاً: «إنّ شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف أسباب منها أنّ الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً، بل هو دائماً في ازدياد واتساع، ثمّ إنّ الإسلام ليس ديناً وحسب، بل إنّ من أركانه الجهاد ولم يتفق قط أن شعباً دخل الإسلام ثمّ عاد نصرانيّاً»[3].

من هذا كله انبثقت من خلال هذا الصراع المرير عبر التّاريخ تلك العلاقة الوثيقة بين الاستشراق من جانب وبين كلٍّ من الاستعمار والتبشير والصهيونية من جانب آخر حتى اتضح أن محاولات غزو الفكر الشّرقي في قوميته ولغته ودينه

---

(١) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة العربيّة، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩م، ص١١٩.

(٢) آرنولد توينبي: المرجع السّابق، ص٧٣.

(٣) د. مصطفى خالدي: ود. عمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص١٣١.

كان واضحاً جلياً، لأنه الهدف الأوّل والغاية القصوى[1]، التي ظلّت تسيطر على آمال الغرب منذ أن احتك بشعوب القرآن حتى العصور الحديثة التي تميزت بالاستعمار والرّغبة في الاستيلاء على أراضي الإسلام واستغلال قدراتها، واستعباد شعوبها، وبالتبشير للاستيلاء على الشّخصيّة الإسلاميّة وحرية تصرفها، والصهيونية للاستيلاء على الكيان الإسلامي بأسره وإبادته أينما وجد، إنها أماني الجميع تراودهم منذ شرعوا في محاربة العرب باعتبارهم حاملي القرآن وحفظه حتى أصبح «تمزيق الأمة العربيّة موضع الاتفاق بين هذه القوى الثلاثة، وهم فيها وراء هذه الغاية مختلفون في النشأة ومختلفون في الأهداف البعيدة والقريبة على السّواء»[2].

وصفوة القول إنّ العلاقة بين هذه القوى جميعها بالغة الأهميّة لبحث ظاهرة الاستشراق وخصائصها، وأن ندرس بالتّفصيل مبلغ العلاقة الوثيقة بين الاستشراق من جانبٍ، وبين الحركات المعادية للعالم العربي ممثلة في كلّ من الاستعمار والتّبشير والصّهيونية، وأنّ العالم العربي ما زال ولم يزل في مركز الصراع العالمي حتّى يومنا هذا.

---

(١) حسين الهراوي: المستشرقون والإسلام، ص١٢.

(٢) حلمي علي مروزق: قضايا الأمة العربيّة، في الاستعمار والاستشراق والصهيونيّة، دار المعارف، ١٩٧٠م، ص٤.

# الفَصْلُ الثَّالِث

# الاستشراق وعلاقته بالتبشير والاستعمار والصهيونية

# الفصل الثالث

## الاستشراق وعلاقته بالتبشير والاستعمار والصهيونية

### ➢ ١ ـ ظاهرة المشرقيّات وعلاقتها بالاستعمار[١]:

منذ أواخر القرن العاشر الميلادي وحتى الآن تعرّض العالم العربي لهجمات ـ الغرب المتواصلة التي استهدفت احتلال أراضيه واستغلال مقدراته واستعباد شعوبه، وقد كانت البداية تلك الحروب الصّليبيّة التي أخذت من الدّين ستاراً لأعمالها الهدّامة. وعندما خرجت قواها المتكتلة مقهورة قامت متأثرة بما رأت في الشّرق الإسلامي وأخذت عنه مقومات النهضة العلمية الحديثة وشرعت تستعد لهجمات جديدة أبعد خطراً وأشد ضرراً من حرب الحديد والنّار، إنها حرب شعارها: «مدرسة أو مستشفى، أو ملجأ، أو كتاب، أو مقال، أو ما إلى ذلك من خداع العناوين التي يقطر باطنها بالسمّ الناقع»[٢].

---

(١) انظر: حلمي علي مرزوق: قضايا الأمة العربيّة في الاستعمار والاستشراق والصهيونية، ص١١ ـ ٧٠

ـ أنور الجندي: يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار، ص١٣٨ ـ ١٤٨.

ـ أنور الجندي: يقظة الفكر العربي، وحركة اليقظة في مواجهة التعريب، ص١١٥ ـ ١٨٥.

ـ أنور الجندي: الإسلام والثقافة العربيّة، ص٨١ ـ ٨٢.

ـ أنور الجندي: النثر العربي المعاصر في مائة عام، ص١٠.

ـ أنور الجندي: الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والمجتمع، ص٦٢١.

ـ أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلاميّة والفكرة الغربيّة، ص١٣٠ ـ ١٣٧، وص١٩٣ ـ ٢١٦.

ـ محمد البهي: الفكري الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص٥٢ ـ ٦٨.

ـ محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، الإسكندرية، شعبان ١٣٧٢هـ، مايو ١٩٥٣م، ص٣٩ ـ ١٤٠.

ـ وغيرها من المراجع التي تتناول موضوع الاستعمار وهي كثيرة وعديدة.

(٢) أحمد موسى: لماذا لا يلتقي المسلمون في عصر طابعه اللقاء؟ ص١٤.

واستعداداً لذلك كان لا بدّ من أن تجول طلائع الغرب في البلاد التي يجب قهرها واحتلالها وأن تكون هذه الطلائع من الذين تعلموا اللغة العربيّة وغيرها من لغات الشّرق لكي يستطيعوا التحدث إلى الشّعوب، والبحث في الآثار والتّعرّف على الأفكار والقيام بالدعايات وإثارة المنازعات وإشعال الخلافات حتى تقع البلاد فريسة بين مخالب الاستعمار ولتحقيق هذا الهدف أكثروا من هذه الطلائع ليمارسوا التجسس على البلاد والتّعرّف على أحوالها وكتابة التقارير عنها. وكان لا بدّ للجاسوس أن يلبس ثوب العالم بلغة البلاد، وأن يصطنع البحث العلمي وأن يسعى لخلق صلة بين الأهالي وجيوش الاستعمار إذا دخلتها[١]. والتّاريخ يحدثنا أنّ هؤلاء جميعاً من المستشرقين وأعوانهم ممن تربوا على أيديهم.

ومن هنا كان هذا الوفاق تاماً بين الاستشراق والاستعمار، حيث ساعد أحدهما الآخر مساعدة فعّالة، لقد كان الأوّل يعد أبناء وطنه لسحق الشّرق والإسلام، ويصوّر عالم الشّرق والعالم العربي خاصة بصورة قبيحة في أخلاقه وعاداته وآرائه، كما يصوّر الإسلام في صورة منفردة ويلصق به كثيراً من الرذائل والمخازي والجهالات[٢].

لقد ظلّ هدف الاستشراق والاستعمار واحداً لفترة طويلة من الزمن وإذا كان الأوّل يسبق الثاني ليكون طلائع جيشه وأعين أمنه يصيب أهدافه ويحقق آماله، فما عليه إلّا أن يبدأ بالتشكيك في قيم الشّعوب المغلوبة، والسخرية منها ومن دينها وشخصية نبيّها عليه الصلاة والسلام، وهدم الإسلام فكرياً وحضارياً، وعلى الثاني أن يقوم بتنفيذ ذلك الحكم واقعياً وعملياً، كما كان الاستشراق حريصاً على تدريب باحثين ودبلوماسيين ومهنيين يحملون جميعاً إيديولوجية الغرب وعقليته تجاه الشّرق وحضارته، وعلى الاستعمار أن يتبنى هؤلاء يساعدهم وينفذ خططهم، واستخدم الاستشراق الكتب والمجلات والمقالات وكراسي التدريس، والمؤتمرات العلميّة والمحاضرات العامة، وغيرها من الوسائل لخدمة الاستعمار في أغلب الأحيان لا لخدمة العلم والحقيقة، ففي المجال الدّيني يجب أن يُقال: إن الإسلام دين مخترع ملفق، ولهذا الرأي فئة من المستشرقين، كما

---

(١) حسين الهراوي: المرجع السّابق، ص١٤.

(٢) محمد البهي: المرجع السّابق، ص٥٢

تجب مهاجمة شخصية النبيّ الكريم، ولهذا أيضاً فئة من المستشرقين، ولتفكيك روابط العرب يجب أن يفهم النّاس أن العربيّة الفصحى لا تصلح لشيء، وأنّها لغة قديمة، وأنّ اللغات الدّارجة أنفع منها.

وللإجهاز على الرّوابط القومية والنظم الاجتماعية الشّرقية يجب أن يعزى كل شعب إلى أصله، لأنّ العرب لم يكن لهم فضل في ثقافة، أو تاريخ، ولإضعاف الروح القومية والاعتماد على النفس يجب أن يفهم الشّرقي أنه غير مؤتمن الجانب، وأن الاختلاس غريزة فيه، وأنّ الشرق غير مكوّن تكويناً تجارياً، وهذا كله ليحتكروا التجارة والصناعة ويتركوا البلاد المستعمرة العمل الزراعي الشاق الذي لا يدرّ إلّا الخير القليل[1]، ويحطّموا تلك العقلية الفذّة التي أدّت خلال عشرة قرون دوراً فعّالاً في بناء تاريخ الإنسان وحضارته.

ويتعاون الاستشراق مع الاستعمار قروناً طويلة أصبحت الشّعوب الإسلاميّة مغلوبة على أمرها من شدة الضربات وعنف الهجمات حتى تغيّرت كيفية اتصالها وكفّة ميزانها مع الغرب تماماً، «وكان اتصال الإسلام بغيره من الحضارات والثقافات دائماً اتصال الغالب بالمغلوب أو اتصال الندّ بالندّ، أما اتصاله بالغرب في هذه الفترة الأخيرة فقد كان اتصال المغلوب بالغالب»[2].

ويبرز هذا التحالف وتلك العلاقة أكثر ما يبرز في اتجاهات التغريب، إذ سلك الاستعمار بعد أن قدّم إليه الاستشراق كلّ ما في وسعه كلّ سبيل للتّغلغل في جميع الميادين فاتّجه إلى الفرد والجماعة والأخلاق والآداب والفنون والعلوم والآثار والأديان، واستعان على تحقيق أهدافه بكل السُّبُل حتى بالأمم المتّحدة ومؤسساتها المختلفة، وأصبحت «الأخطار التي تحدق بالإسلام اليوم أقوى وأشدّ وأكثر هولاً وأكثر شمولاً كما أن جميع القوى الأوروبيّة من سكك حديدية ومطابع وطائرات ودور سينما ومصانع وجامعات وباحثين عن الزيت (النفط)، وعلماء آثار وبنادق سريعة، وأفكار قد حطمت البناء التقليدي للحياة الاقتصادية تحطيماً لا يرجى معه ترميم، كما أثرت على كل عربي في طرق معيشته وأوقات فراغه، وحياته الخاصة والعامة، وتتطلّبت تعديل الأساليب الاجتماعية والسّياسيّة

---

(١) حسين الهراوي: المرجع السّابق، ص١٥ ـ ١٦.

(٢) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربيّة، ص١٢.

والثقافيّة الموروثة»[1].

ولا ينسى الباحث أنّ هذه الأسباب ليست إلّا أسباباً ثانوية أمّا الأسباب الرئيسيّة فإنّها تتركز في مجيء الاستعمار إلى الشّرق وما قام به من هدم وتخريب، وما أثاره من خلاف ونزاع وما زرع من بذور انفصالية وشعوبية، لأن السيطرة الكاملة للاستعمار قد مكنته من نهب الأموال وترك أصحابها يعانون الجوع والجهل والمرض، حتى عدّت سيطرة الغرب الحديثة على الشّرق فريدة في التّاريخ من حيث الفظاعة والخطورة والمدى والمجال، فما كان لسيطرة اليونان والرومان من قبل على بعض أجزاء من العالم ألّا يُعدّ شيئاً مذكوراً بالنسبة لسيطرة الغرب اليوم على الشّعوب التي منيت باستعماره[2].

وقد اعتمد الغرب في توسعته على استخدام وسائل خبيثة وخلق عصبيات إقليمية وإيجاد عقليات انفصاليّة، حتى وجدت بين العرب اتجاهات متعارضة اتجاه يزعم أنّ وطنه أقرب للغرب فيه إلى الشرق، وآخر يزعم أن حضارة بلده آشورية بحتة، أو فرعونية صافية، أو فينيقيّة زاخرة، ولا علاقة لها جميعاً بالحضارة الإسلاميّة العربيّة من قريب أو بعيد، ثم اتجاه يتحدّث عن لهجته باعتبارها اللغة الأم ولا صلة لها بلغة القرآن، واتجاه يقول: إنّ اللغة العربيّة الأصلية ليست لغة علم أو فن أو حضارة، بل إنّها لغة طلاسم وأساطير مرّت عليها حقب من الزمن وتركتها للذكرى ليس غير.

كان الاستشراق مصنعاً لكل هذا وذاك، وكان الاستعمار مستهلكاً أميناً له، تركزت فيه قوى التآمر الدولي والهجوم العالمي على العالم العربي الإسلامي. وكادت هذه الوسائل تنجح لو لم يستيقظ هذا العالم في القرن الماضي ليندفع نحو التقدم والازدهار باعتماده على ماضيه الحافل وإحياء تراثه الزاخر لقد كان ردّ فعل المصلحين الإسلاميين هو الاتجاه إلى الإسلام والعروبة وإلى العلم والثقافة وإلى الوحدة والأخوة، وبدءوا يتساءلون: كيف استطاع الغرب أن يسيطر علينا؟، وبأية طريقة كان ذلك؟

لقد وضّح لهم أنّ شيئاً مهمّاً قد حدث فجعل الغرب يتفوق على الشّرق

---

(١) برنارد لويس: العرب في التّاريخ، ص٢٥٣.

(٢) لوثروب ستوارد: حاضر العالم الإسلامي، ج٢، ص٢.

وطالب بعضهم باقتباس فضائل الغرب الحسنة وإضافتها إلى ما في تراثهم من المزايا الحضارية والسمو الفلسفي والرّقي الخلقيّ لكي يثمر لهم هذا المزيج محاسن الحضارتين الغربيّة والشّرقية، وطالب غيرهم بترك تراث الأجداد مهما كانت قيمته والاندفاع نحو التغريب والانكباب عليه انكباب الرومان على تراث اليونان وحبّذ آخرون الاعتماد على الذات وحدها وتراثها الأصيل دون التفات إلى أي تراث آخر أو ثقافة أخرى، أو على الرغم من الاختلاف، فإنّهم يتفقون على أن تفوّق الغرب يرجع في جوهره إلى مؤسساته التنظيمية الشّورى في توزيع الاختصاص بين السلطات، فإذا أراد الشّرق أن يبني نفسه من جديد ويحتل مكانه في التّاريخ، ويسيطر على مصائره ومقدراته، فعليه أن يأخذ عنهم نظمهم وأساليبهم التنظيمية غير أن الأمر الذي يدعو إلى التعجب أن يعتبر هذا أخذاً من الغرب على الغرب من أن المؤسسات المذكورة توجد بشكل أو بآخر في الشريعة الإسلاميّة التي سبقت النظم الغربيّة بقرون.

ومهما يكن الأمر فقد بدأ التفكير في سبل الخلاص من استعمار الغرب وتبشيره، فرأى بعضهم انتشار رابطة شرقية تربط بين أمم الشّرق الخاضعة للنفوذ الغربي جميعاً، وأخذ آخرون بمبدأ انتشار جامعة عربيّة ينتظم تحت لوائها كل الناطقين بالعربيّة.

وفكّر آخرون في إحياء الخلافة لتربط من جديد بين الشعوب الإسلاميّة، ولكن على أن تكون الخلافة روحيّة وليس لصاحبها سلطان زمنّي، وفريق رأى التمسّك بمبدأ القوميّة ومقاومة الاستعمار الغربي بأسلحة الحضارة الغربيّة، وفكّر جماعة في التنكر لماضيهم الإسلامي والرجوع إلى ماضيهم السّابق على الإسلام كما فعل الأتراك وكما يجول بخاطر بعض أهل الغرب الأقصى من المراكشيين، وكانت لهذه الصّور المختلفة من التفكير مظاهرها العلمية[1].

ويجب الاعتراف بأنّ النّمط الغربي كان يغلب على الاتجاه العصري في الشّرق لتحديد فكري وسياسي واقتصادي وثقافي كان ينبع من أعماق الذات، ورغبتها في الانتقال من الماضي التليد الذي هيمن عليه التقليد إلى المستقبل

---

(١) محمد حسين هيكل: الشّرق الجديد، ص٢٨٩ ـ ٢٩٠.

الجديد الذي يستهدف التغلب على التأخر والتخلّف، وهذا السبيل لم يكن سوى نموذج واحد لتحديد التجديد، والنموذج الآخر الذي كان ماثلاً أمام بعض المفكرين كان بالطبع نموذج الغرب الذي تمكن بمركزه السّياسي المسيطر على هذا الجزء من العالم أن يدير تلك التحولات الثقافية ويحاول جاهداً أن يطبعها بالطابع الغربي وعلى الرغم من اتجاهات التغريب لبعض وجهاء العرب، فقد ظل تفكير الأوساط الرسمية الغربيّة منصرفاً إلى الشّرق الأوسط على أساس استخدام القوة فيه، وإقامة قواعد عسكرية فوق أرضه وفي الوقت نفسه ظلت شكوك العرب العميقة وعداؤهم لهذا النوع من التفكير على حالها دون أن تضعف أو تقلّ، فقد ظلت الحرب هي المسيطرة أمداً طويلاً بدلاً من الثقة المتبادلة على أساس المساواة، وأدّى قرار الغرب بإنشاء دولة يهودية في فلسطين إلى إعداد العدة لحماية هذه الدّولة الدخيلة، فأدّى ذلك إلى قطع كل وشيجة ممكنة للاتصال بين العرب والغرب، وهناك أيضاً التكوين الاستراتيجي الغربي الذي أثارته الحرب الباردة مع الكتلة السوفييتية، فقد أسفر عن محاولات مستمرة لوضع أحلاف ومعاهدات جديدة مع أنظمة الحكم القائم في البلاد العربيّة، وهي الأنظمة التي لا يلقى طابعها الداخلي أي تأييد لدى الأجيال الصاعدة[1].

ومهما يكن من أمر فقد تبيّن حتى الآن أن قوى الاستشراق والاستعمار قد تضافرت جهودها منذ زمن بعيد ضد الإسلام والعرب، ولجأت هذه القوى إلى التشكيك في الحضارة العربيّة الإسلاميّة وتراثها وعقلية مؤسسيها ومعتنقيها معاً، ولم يتورع عن استخدام سلاحه وجبروته في هذا السبيل حتى تأكد أنهما يتربصان بالشّرق الإسلامي ويسخران من القيم الإسلاميّة ويمجدان القيم المسيحيّة والتفوق المسيحي في الصناعات وما يترتب عليها من إنجازات الغرب وتقدمه في ميادين النشاط الإنساني عامة، وفي العلوم والآداب والفنون خاصة.

إذن، فمن وحدة الهدف والأطماع انبثقت العلاقة الوثيقة بين الاستشراق والاستعمار منذ بداية الفكرة الصّليبيّة إلى ميلاد الفكرة الصهيونية التي يسيطر الآن على سياسة الغرب بجميع أشكالها نحو العرب و«كانت فكرة الصليبيين في العداء للمسلمين مستمدة من الفكرة اليونانية، كما استمدوا منهم أدبهم وفلسفتهم، وهي

---

(١) أ. تشايلدرز: الحقيقة عن العالم العربي، ص٩٢ ـ ٩٣.

أن العالم ينقسم إلى يونايين وبرابرة، فاعتقدوا هم أيضاً أن العالم ينقسم إلى سادة أوروبيين وعبيد من العالم الآخر، وكان الظنّ أن يصحح المستشرقون من الأوروبيين هذه الفكرة الشاذة ببحثهم وعلمهم، ولكن تبيّن أنهم من البيئة نفسها التي كونت الصليبيين».

ومن الأسف أن يكون في طليعة هؤلاء مستشرقون مبشرون، فاتخذوا من الطعن في الإسلام والمسلمين؛ مادة تبشيرهم، واختاروا بعض النواحي التي تثير الأوروبيين على المسلمين؛ كفكرة تعدّد الزّوجات، ومُلك اليمين، وحديث الإفك... إلخ. وجاء بعدهم مستشرقون من غير المبشرين فسلكوا مسلكهم وحذوا حذوهم، ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرّد، بل كانوا يكيلون الاتهام للإسلام جزافاً ما عدا القليل النادر منهم. وكانت نتيجة هذا كله مأساة فلسطين إذ تخلّى عنها الإنجليز من غير إنذار للعرب مع تواطئهم مع الصهيونيين على تركها لهم وإنذارهم لهم بالاستعداد والمقاومة(1).

وهناك أدلة عددية للعلاقة الوثيقة بين الاستشراق والاستعمار لا حاجة بنا إلى سردها والبحث فيها، لأن معظم المستشرقين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى القرن العشرين كانوا يعملون في وزارة الخارجية ذاتها، وعلى رأسهم المستشرق «أرنيست رينان»، الذي كان يعمل مخططاً للاستعمار الفرنسي وغيره كثير في البلدان الأوروبيّة الأخرى التي اهتمت وما تزال تهتم بالاستشراق ودراساته.

### ➢ ٢ ـ ظاهرة المشرقيّات وعلاقتها بالتبشير(2):

بدأت المواجهة بين الإسلام والأديان الأخرى منذ أن دوّت في أصداء مكة

---

(١) أحمد أمين: يوم الإسلام، ص١١٣، وهذا ما فعله الإنجليز أيضاً مع الجزر العربيّة في الخليج العربي حينما أتاحوا الفرصة لإيران في احتلالها قبل تسليمها إلى أصحابها حتى تحولت الجزر إلى قواعد جوية أمريكية إيرانية، الجمهورية، ٣١ يوليو ١٩٧٢م.

(٢) انظر: د. مصطفى خالدي: ود. عمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص١٢٨.

ـ أ.ل. شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: ماعذ اليافي ومحب الدّين الخطيب.

ـ إبراهيم أحمد خليل: المستشرقون والمبشرون وموقفهم في العالم العربي الإسلامي. =

كلمات الوحي الأولى التي أنزلها الله ﷻ على رسوله عليه الصلاة والسلام، واستمرت عبر القرون المتوالية حتى وصلت إلى العصور الحديثة حيث توسعت آفاقها، وتعمقت جذورها فشملت ميادين الحياة كلّها، وسيطرت على الأشخاص والأفكار والإيديولوجات والاتجاهات والآداب والصناعات وغيرها.

وليس غريباً أن يكون هناك صراع بين الأفكار والعقليات، لأن الصراع بين الأفكار والعقليات سنّة الحياة نفسها، ولكنّ الغريب حقاً أن تتصارع الأديان فيما بينها على الرغم من أن ركيزة وجودها التسامح الفكري والحب الإنسان والتفاهم المتبادل بين جميع البشر، ولكن الروح التي سيطرت على عالمي الشّرق والغرب كانت مخالفة لذلك تمام المخالفة.

وعلى الرغم من أنه لا يوجد في العقيدتين المسيطرتين على العالمين الشّرقي والغربي خلاف جوهري يقتضي التصادم المرير بينهما قديم قدم وجود الإسلام نفسه، فبينما كان نصارى الجزيرة يجادلون محمداً عليه الصلاة والسلام في تعصب وعناد عن المسيح وألوهيته وثالوث وثلاثيته، كان يرد عليهم حسب قاعدة عامة قرّرها القرآن نفسه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . . .﴾ مكيّة [النحل: ١٢٥] وهي القاعدة القرآنية المهمّة.

---

= ـ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، وفيه بالذات «المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام»، ٥١٧ ـ ٦١٢.
ـ عبد الرحمٰن الجزيري: أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين في الإسلام.
ـ أحمد موسى: لماذا لا يلتقي المسلمون في عصر طابعه اللقاء؟.
ـ حلمي علي مرزوق: قضايا الأمة العربيّة في الاستعمار والاستشراق والصهيونية.
ـ محمد عزة دروزة: القرآن والمبشرون، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٧٢م.
ـ عبد الحليم محمود: أوروبا والإسلام.
ـ علال الفاسي: التبشير أخطر أسلحة الاستعمار، مجلة الهلال، أكتوبر ١٩٧٣م، ص٦٠ ـ ٧٠.
ـ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي: إظهار الحق، إخراج وتحقيقي: عمر الدسوقي.
ـ عثمان الكعّاك: صفحات سوداء من تاريخ المبشرين، مجلة الهلال، أكتوبر ١٩٧٣م، ص٣٨ ـ ٤٩.
ـ وغيرها من المراجع التي تعالج موضوع التبشير، وهي متعدّدة ومختلفة.

التي ظلت قاعدة أساسية لمسار الدعوة الإسلاميّة منذ ميلادها حتى الآن، ومع ذلك كانت الصورة التي انطبعت في نفوس الغربيين عن النبي العربي وعن القرآن الكريم صورة بعيدة عن الإنصاف والحق، ومن المؤسف أن يسرف بعض الأدباء الغربيين في القرون الماضية في الهجاء والفحش ورمي الإسلام ورسوله بما هو منه براء، أمثال: «دانتي، وفولتير» حتى أن «كارليل» الذي اختار أن يكون محمد أحد أبطاله لم ينصف القرآن، وقال فيه قول سوء[1]. وهكذا دواليك حتى في الوقت الحاضر.

وعندما ساح العرب خارج جزيرتهم حاملين راية الإسلام مسيطرين على أراضي الإمبراطوريات السّابقة بدأت المجادلات تتبلور عند أهل الكتاب، وتصبح الصورة أكثر وضوحاً ودقة وشمولاً وصحة عن هذا الدّين الجديد بدأ العلماء تحليل الإيديولوجية والتعاليم الجديدة وإبرازها للجماهير الكتابية العريضة، لأنها جاءت بقيم سامية قدمت للإنسان رؤية أشمل لحياته من أية تعاليم ومحاولات سابقة لها أو لاحقة بها.

وهكذا شرع يوحنا الدمشقي في بدايات القرن الثامن الميلادي يفكر في طريقة لمواجهة الإسلام، وبعد ذلك بقرنين من الزمان تكتلت القوى الغربيّة كلّها بزعامة البابويّة لسحق الإسلام وهزيمته وإحلال المسيحيّة محله في العالمين معاً وعلى حد سواء، وحينما تكونت في الغرب الجبهة الإيديولوجية الموحدة ضد الإسلام بدأت عناصر التبشير تغذيها بأساطير كاذبة وقصص جارحة عن العالم الإسلامي الذي أصبح في نظرها العدو الأساسي، ولم تكن الحروب الصّليبيّة ـ كما قيل ـ هي العامل الأهم في تكوين صورة للإسلام، بدليل أثر الوحدة الإيديولوجيّة للعالم المسيحي اللاتيني التي تبلورت ببطء وأدّت إلى توحيد جهد العدو وتوجيه الطاقات نحو الحرب الصّليبيّة، وقد أصبح الاشتراك في الحملة إلى الأراضي المقدسة واجباً مقدساً للمؤمنين، وذلك بفضل الدعاية التي قام بها الحجاج إلى الأراضي المقدسة الذين كان عددهم يتزايد باستمرار كما كان تنظيم الرحلات إلى الأراضي المقدسة في تحسن دائم خلال القرن الحادي عشر، حيث

---

(١) ـ فيليب حتي: صانعو التّاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة ومحمود زايد، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م، ص٣٢.

مسيحيو أوروبا ينخرطون في العمل المسلح ضد البدو الذين كانوا يغيرون عليهم، وبيت المقدس هو قبلتهم التي يقدسونها، وكان قبر المسيح في نظرهم ذا قيمة مثل بيت المقدس كقبلة يتجه لها الإنسان، مدنساً بوجود غير المؤمنين إلى جواره[1].

من هنا بدأت الحملة المسعورة ضد الإسلام والمسلمين، فألفت مئات من الكتب لإشباع هذه الروح العدائية التي سيطرت على الدّوائر الثقافية والجماهيرية في الغرب بأسره ومن بين مئات الكتب التي ألّفت ضد العقيدة الإسلاميّة عبر التّاريخ لا بدّ من الإشارة إلى مجموعة منها تعتبر دعامة أساسية لسياسة التبشير وظاهرتها وهي:

**أولاً**: كتاب «ميزان الحق» الذي ألفه الدكتور فاندر المستشرق الأمريكي، والدكتور «سنكلير تسدل» وهو من أخطر الكتب التي ألّفت في هذا الميدان على الإطلاق إذ ملأه بأباطيل وأكاذيب من نسج الخيال والتلفيق.

**ثانياً**: كتاب «الهداية» الذي يقع في أربعة أجزاء ويعد من أخطر المحاولات في مجال تفنيد حقيقة الإسلام ودحض أحكام القرآن والطعن فيها.

**ثالثاً**: كتاب «مقالة في الإسلام» الذي ألّفه المستشرق «سال» وحاول فيه دراسة الإسلام والقرآن حسب منهجه الهوائي اللامنطقي.

**رابعاً**: كتاب «مصادر الإسلام» الذي ألّفه «سنكلير تسدل» حيث حاول تفنيد الوحي الإلهي ونقد حقيقة نزول القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد إبراهيم أحمد خليل أن: «هذه الكتب الأربعة تعتبر من أخطر المراجع للهجوم على الإسلام والقرآن الكريم والرسول الأمين»[2].

بعد الحروب الصّليبيّة، جعل مخططو قوى الغرب المتكتلة يفكرون في كيفية مواجهة الإيديولوجية الإسلاميّة الصاعدة وكان من بين الخطط التي دبرت أن يعمل المبشرون بكل الوسائل للتشهير بالدّين الإسلامي وإظهاره برغم وحدانيته في صورة أدنى إلى الغريزة البشرية، وأنه يصلح لإشباع النزعات الدّينيّة السطحيّة دون

---

(١) م.ك. رودنسون: المرجع السّابق، ص٥٢.

(٢) إبراهيم أحمد خليل: المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، ص٥٨.

التعمق وتهذيب الروح والخلق، وزعموا أنّه دين يشجع الحياة الجنسية ويدعو إلى الخمول والكسل والاستسلام لأحكام وتصرفات القدر، وقد عاون المستشرقون فيما بعد على تثبيت وتأكيد هذه الاتهامات(١).

وقد توسع المبشرون في هذه الاتهامات وتخصص كل فريق منهم في بعضها ثم وجهوها في مؤلفاتهم ودراساتهم على الرغم من معرفتهم أنها بعيدة كل البعد عن العلمية والموضوعية، وأنها لا تعدو أن تكون دسائس مغرضة وإشاعات ملفقة لمحاربة الإسلام وتشويه مفاهيمه، فالاستشراق والتبشير عدو واحد له هدف يسعى ليدركه، وهو تشويه الإسلام ليصل من وراء ذلك إلى تمزيق المسلمين وإشاعة البلبلة في أفكارهم وبين صفوفهم؛ لئلا يلتقوا فيراجعوا من عزتهم ما كان، ولكي يتم له الإمساك بزمام الرأي العام الإسلامي نراه يتقن الظهور بوجهين اثنين(٢).

فالمستشرق أو المبشر يظن أمام المسلمين كباحث لوجه العلم وحده، فإذا خلا إلى نفسه انقلب فاجراً كفارّاً، وهدفه الحيوي في كلا الحالين القضاء على الإسلام، ووقف توسعه وما دامت تجاربهم قد أثبتت أنه ليس في وسع قوة واحدة مواجهة الإسلام فلا بدّ إذن من تكتل قوى أوروبا جميعها العسكرية والاقتصادية والثقافية والسيّاسيّة والعلمية والدّينيّة للانقضاض على الإسلام في وقت قصير.

وهكذا تكتّلت قوى الغرب متعاونة مع بعض مساعدة إحداها الأخرى للهجوم الساحق، وبدلاً من شنّ الحرب على العرب بدأ اتجاه جديد ينال حظاً من التأييد فقد أخذ «فرنسيس الأوسيس» يبحث من خلال حماسه التبشيري كيف يحوّل «الكفار» إلى جانب الإنجيل، وعن طريق «ريموندول» أدخل تعليم العربيّة في المعاهد المسيحيّة في الدراسات العليا، وكان الهدف من هذه الدراسة تخريبياً عدائياً إلى حد كبير إنها تستهدف أن تعرف المزيد عن الإسلام لتكون أكثر تهيؤاً لعرض نقائضه(٣)، التي يتخيلونها، وعلى الرغم من معرفتهم أن الإسلام قد أنزله الله العلي القدير لخير الإنسان ولهديه إلى سواء السبيل، فقد ظلت المراكز

---

(١) أنور الجندي: في مواجهة الغزو الثقافي، ص١٩.
(٢) أحمد موسى: المرجع السّابق، ص٢٣.
(٣) محمد البهي: المرجع السّابق، أ. طيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص٥١٧ وما بعدها.

العلمية تخرّج المستشرقين والمبشرين معاً وتعدّهم للقيام بأعمال تحقق أهداف الغرب، كان هؤلاء يعملون في مجال الدّين وأولئك في مجال العلم متعاونين مع الاستعمار وأغراضه الهدامة، ومن هنا بات الاستشراق والتبشير صنوين لا ينفصلان من قوى الغرب العدائية التي استهدفت العالم الإسلامي، فتخصص الأوّل في أديان الشّرق ولغاته، وتعمق في آدابه وعادات أبنائه مقارناً بينها وبين الإسلام رامياً إلى هدمها جميعاً وهدم الإسلام على الأخص، وتخصص الثاني في إنتاج الأفكار وتكييفها حسب متطلبات العصر، ومخططات الغرب السّياسيّة للوصول إلى القضاء على العرب وعقيدتهم ومقومات حضارتهم، ومن هذا تواجه الباحث صعوبات قصوى في الفصل بين أساطين هؤلاء وأولئك لأن كثيراً منهم جمعوا بين الاستشراق والتبشير أمثال: «ريموندول» و«توما الأكويني» و«روجر بيكون» قديماً، ثم «أرنست رينان» و«جبرائيل هانوتو» في نهاية القرن التاسع عشر، و«ماسينيون» و«لامنس» و«مرجوليوث» وغيرهم من بداية القرن العشرين إلى منتصفه.

وهكذا «إذا كان مرض السرطان ظل يفتك بالبشرية آماداً طوالاً في غفلة من الطب إلى وقت قريب، فإن الاستشراق والتبشير هما الداءان اللذان باتا يقطعان من أوصال المسلمين ويباعدان بينهما مستغلّين غفلتهم وعدم إدراكهم لحقيقة الدور الذي نيط بهما، مع أنهما دعامتان أساسيتان للاستعمار، وامتداد طبيعي للحروب الصّليبيّة لتحطيم المسلمين وسحقهم حتى لا يجمعهم لقاء أو تضمهم وحدة، فهما شيء واحد، يتوخى هدفاً واحداً، وإن اختلفا في الاسم، فالاستشراق قد ألبس ثوب البحث العلمي... للوصول إلى الغرض المقصود من: توهين قوة المسلمين، وتوسيع شقة الخلاف فيما بينهما حتى لا يكون بينهم لقاء، وأما التبشير فقد آثر أن يظهر في محيط العامة، فاختار للوصول إلى الهدف مظاهر ألبسها ثوب الخدمات الإنسانيّة مثل التعليم في الدور الحضانة ورياض الأطفال، وفي المرحلتين الابتدائية والثانوية إلى الجامعات، وكذا المستشفيات والملاجئ للكبار وللأيتام مستخدماً النشر والطباعة والعمل في الصحافة لإحكام الوصول إلى غرضه المنشود»[1].

---

(١) أحمد موسى: المرجع السّابق، ص١٤ ـ ١٥.

حتى إذا سنحت الفرصة لإثارة الحروب الجديدة كما يعترف «لورنس براون» قائلاً: «شنت الدول الأوروبيّة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين حروباً عدوانية على الحكومات المسلمة، ثم انتزعت منها أراضي ضمنتها إلى سلطانها، ولقد كانت النتائج في أحوال كثيرة غير سارّة لبعض الشّعوب التي استعبدت، وخصوصاً من المسلمين، ولكن هذه الشّعوب لم تصل بعد إلى درجة تشعر فيها أنها أصبحت أقليات مضطهدة»[1].

ولكن ما دام هذا هو هدف الغرب الحقيقي فأجدر من يستطيع القيام بهذه المهمّة هو الاستشراق والتبشير اللذان أصبحا الدعامة الأساسية للهجمات الحديثة على المسلمين وتوهين القيم الإسلاميّة، والغض من اللغة العربيّة الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشّعوب الإسلاميّة، والتنديد بأحوالها الحاضرة والازدراء بها في المجالات الدولية[2].

ومن الجلي أنهما في ذلك سواء، حيث ساعد أحدهما الآخر قروناً عديدة في التوجيه والتفكير وفي الإغارة والإثارة وفي التخطيط والتشويه فيها فها هو «كولي» على سبيل المثال يصوّر الإسلام في كتابه التعليمي «البحث عن الدّين الحق» قائلاً: «في القرن السابع برز في الشّرق عدو جديد هو الإسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب لقد وضع محمد السيّف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال ويسقطون صرعى في الجهاد الإسلامي بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنّة، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وأفريقيا وأسبانيا فريسة لأتباعه حتى إيطاليا هدّدوها بالخطر، وتناول الاجتياح جنوبي فرنسا وأصاب المدنيّة بلاء عظيم.

ولكن ها هي النصرانية تقيم بسيف «شارل مارتل» سدّاً منيعاً في وجه الإسلام المنتصر عند «بواتيه» سنة (٧٥٢م) ثم تشعل الحروب الصّليبيّة في مدى قرنين (١٠١٩ ـ ١٢٥٤م) في سبيل الدّين، وتدجج أوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن

---

(١) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص١٢٩.
(٢) إبراهيم أحمد خليل: المرجع السّابق، ص٤٠.

وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة»[1].

والمناقشة مع «كولي وأرينان» و«زويمر ولامانس»، وغيرهم في هذا الشأن تعدّ غاية في الحرج إذ تتعلق بأقدس المعتقدات أولاً، ثم لنقص الرؤية التّاريخيّة لدى هؤلاء وأمثالهم، ثانياً مما يعد إهداراً لكرامة العلم وأمانة البحث، ولكن لا حيلة لنا في مواجهتها.

أما عن انطلاقة العرب وفتوحاتهم فيرى «دوشن» في كتابه «موقف الكنيسة في القرن السابع الميلادي»، رأي ميخائيل السوري الذي يقول: «إن إله الانتقام رأى شراسة الرومان الذين كانوا حيثما يحكمون ينهبون كنائسنا وأديرتنا وكانوا يدينوننا دون رحمة، فبعث الله من الجنوب أبناء إسماعيل ليكون خلاصنا على أيديهم ولم تكن ميزة بسيطة بالنسبة لنا أن نستخلص من قوة الرّومان. . . وأن نستمتع بعد ذلك بهدوء البال»[2].

ومن جهة أخرى يعترف «أشبالدر لويس» الذي امتاز في مؤلفاته بنزاهة تاريخية موضوعية قائلاً: «ومن الظواهر التي تدعو إلى الدهشة والعجب، ذلك اليسر والسهولة اللذان رافقا الغزو العربي وربما كان مرجع بعض هذا اليُسر وهذه السهولة إلى الجهاد الذي حاق بالإمبراطوريّة البيزنطيّة أثناء كفاحها الطويل الذي استمر قرابة قرن من الزمان مع بلاد فارس، وهو الكفاح الذي انتهى حينما بدأ هجوم العرب، وربما رجع أيضاً إلى عجز البيزنطية بعد أن صار اعتمادها على العنصر البحري في مواجهة غزو برّي واسع النطاق وربما رجع هذا اليسر إلى حدّ ما إلى الحماسة الدّينيّة التي خلّفها الإسلام في قلوب الغزاة والمحاربين على أنه مما لا شك فيه أن السبب الأساسي لنجاح العرب يرجع إلى غير هذه الأسباب:

---

(١) إبراهيم أحمد خليل: المرجع السّابق، ص٧٦.

(٢) ر. جارودي: الاشتراكية والإسلام، الطليعة، يناير، ١٩٧٠م، ص١٤٤. نقلاً عن ترجمة المحاضرة القيّمة التي نشرت مع مقدمة نقدية في مجلة «البعث الإسلامي» في الأعداد ٦٦، ٦٧، ٦٨ من ١٥ مايو، وأول و١٥ يونيو عام ١٩٧٣م، وترجمة الحوار العلمي الذي دار بينه وبين علماء الإسلام: عبد العزيز كامل، وخالد محي الدّين، وكمال رفعت، وكامل حسين، ولبيب شقير التي نشرت تباعاً في المجلة نفسها في الأعداد ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩ من ١٥ أكتوبر، ١ و١٥ نوفمبر، ١ و١٥ ديسمبر عام ١٩٧٣م، والأعداد ٨٠، ٨١، ٨٢ من ١ و١٥ يناير، ١ فبراير عام ١٩٧٤م.

إنه يرجع إلى أنّ معظم السوريين، والمصريين لم يقوموا بأية مقاومة لغضبهم الشديد من اضطهاد «هرقل» لعقيدتهم «المنوفيستيّة» ومن نظامه المالي المجحف، الأمر الذي دفعهم إلى الترحيب بجيوش العرب»[١].

ويؤكد الباحث الأسباني «بلاسكوايبانيز» في كتابه «في ظل الكاتدرائية» بأنه في أسبانيا لم تأت النهضة من الشمال مع الجحافل البربرية وإنما أتت من الجنوب مع الفاتحين العرب. . . لقد كانت حملة حضارية أكثر مما كانت غزواً. . ومن هنا أتت إلينا هذه الثقافة القوية سريعة التقدم بطريقة مذهلة ما تكاد تولد حتى تتفوق، وهذه الحضارة التي خلقتها الحماسة الدّينيّة للنبي قد شملت أفضل ما في اليهودية والعلم البيزنطي، بل إنها جلبت معها التقاليد الهندية العظيمة وتراث الفرس الخالدة وكثيراً من الأمور المقتبسة من بلاد الصيّن الغامضة كان الشّرق هو الذي يقتحم أوروبا لا عن طريق اليونان كما حدث في عهد «داريوس» والأكاسرة، ولكن في الطرف الآخر، وأسبانيا التي كانت ترسف في عبودية ملوك اللاهوت والأساقفة المحاربين، فاستقبلت غزاتها بأذرع مفتوحة[٢].

هكذا كان الفتح العربي لا كما يزعمه «كولي» وأمثاله، إذن لم يكن اجتياحاً هدّاماً، أو غزواً مخرّباً، أو هجوماً عدوانياً، وإنما كان فتحاً بناء أدّى دوراً فعالاً في بناء حضارة الإنسان ورقيه وقد أطاح هذا الفتح بالنظم البالية التي امتازت بها المجتمعات السّابقة، فإنه قد بنى مجتمعاً جديداً امتاز بعلاقاته الإنسانيّة التي لم يعرف لها التّاريخ نظيراً، وبتسامحه الفريد الذي التزمه في معاملة غير المسلمين منذ أقدم تاريخه إلى أحدث أيامه، وقد برزت في الفتوحات الإسلامية أمور لا مثيل لها في الفتوحات الأخرى، قديمها وحديثها، منها: بناء الحضارة والعناية الكاملة بالعلوم والثقافة الإنسانيّة، وإعطاء البشرية المفهوم العقلي والمفهوم الروحي ممتزجين لا يطغى أحدهما على الآخر، وما عرف الغرب فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب، ولولا العرب لتأخرت النهضة الغربيّة عدة قرون أو لما

---

(١) أرشيبا، لويس: القوى البحريّة والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ، ص٨٧ ـ ٨٨.
(٢) ر. جارودي: أثر الحضارة العربيّة على الثقافة العالمية، الطليعة، يناير سنة ١٩٧٠م، ص١١٦.

حدثت أصلاً، لقد أضاء العرب مصباح الحضارة والمدنية في ظلمات القرون الوسطى، وكان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشّرق حتى القسطنطينيّة[1].

وربما يظن بعض النّاس أن هذا الاعتراف قد جاء من مفكر مسلم على الرغم مما له من مكانة علمية في مثل هذه الدراسات ونزاهة موضوعية في مثل هذه البحوث، وإذا كان الأمر كذلك فإننا نضيف إلى رأي الباحث المسلم اعتراف باحث ماركسي لا شأن له بالدّين إلا بقدر ما قدّم للحضارة الإنسانيّة من قيم أدّت إلى ترقيتها وازدهارها ألا وهو «روجيه جارودي» الذي يعد من أبرز بحاثة الغرب المعاصرين، حيث يقول: «بل إن الفاتحين العرب بتدميرهم الاقتصاد الإقطاعي المقطّع الأوصال، وبإنشائهم منطقة تبادل للأفكار أكثر اتساعاً من تلك التي أنشأتها الإمبراطوريّة الرومانية القديمة، وبإقامة دولة موحدة تتسم بالمركزية وتستند إلى قانون مكتوب وإدارة قضائية منتظمة قد نفضوا الأتربة عن الأشياء والنّاس والأفكار اللازمة للحقب الكبرى الخلاقة في تاريخ البشرية، إن الحضارة القديمة التي أصابها الجمود في بيزنطة قد بعثها هؤلاء الفاتحون من جديد[2].

وانطلاقاً من هذه الرؤية الموضوعية تنهار كل الاتهامات الملفقة التي وجّهها «كولي» وأمثاله وروّجها أصحابها في مدارسهم المنتشرة في الشّرق والغرب معاً، ومن هؤلاء «هـ. غيومان» و«ف. بوستير» صاحبا كتاب «تاريخ فرنسا» حيث يقولان: «إن محمداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم وأن يبدّلوا جميع الأديان بدينه هو، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى، إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوّة وقالوا للناس: «أسلموا أو موتوا» بينما أتباع المسيح أراحوا النفوس ببرهم وإحسانهم... ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنّا اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين»[3]. يا للعجب من قول يدرّس في المدارس التي أنشئت لتربية البنين والبنات منذ زمن بعيد في العالم العربي، ويا للعجب من أن يقوم بتدريس أفكاره البالية وأمثالها

---

(١) أنور الجندي: في مواجهة الغزو الثقافي، ص١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) ر. جارودي: المرجع السّابق، يناير ١٩٧٠م، ص١١٦. وانظر في المرجع السّابق، إلى تعليقات: لبيب شقير، وبدوي عبد اللطيف، وعبد العزيز كامل، وبنت الشاطئ، وكامل حسين، ور. جارودي، من ص١٢٨ ـ ١٩٠.

(٣) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص٧٥.

أولئك الذين يمثلون المسيح ويلبسون مسوحه ويزعمون أنهم يزرعون الحب والسلام وينشدون الحق والإيمان في الأرض، وهذا هو اتجاه أصحاب البعثات المرسلين إلى الشّرق الإسلامي لتربية أبنائه وبناته، وتلك البعثات التي شرعت تقدم إلى الشّرق وتستقر به، وكانت هذه البعثات التعليمية طلائع الغزو المسلّح وكان ذلك تقدير أوروبا لها... أنّه ما دام الشّرقيّون يقبلون على الحياة الغربيّة فليهيء الغرب لهم أسباب محاكاتها، وليكن التعليم وسيلة إلى ذلك لكن أمر هذه البعثات يسترعي النظر، فقد رأينا أوروبا تتدرج منذ البعث في القرن الخامس عشر إلى حريّة الفكر وإلى تحطيم القيود التي غللت بها الكنيسة هذه الحرية وإلى إقامة نظم تعليمية مستقلة عن الكنيسة وعن رجال الدّين، ومع ذلك كانت هذه البعثات التي جاءت إلى الشّرق بعثات دينية كلّها. لقد يخال الإنسان بادئ الرأي أن هؤلاء الذين وفدوا إلى الشّرق من رجال الدّين المسيحي على مختلف مذاهبهم ونحلهم إنما وفدوا إليه لتقنين حكوماتهم نظم التعليم الدّيني في بلادهم واعتبارها إياهم أدوات جمود وتأخر فيها، لكن هذه البعثات الدّينيّة لقيت منذ اللحظة الأولى حماية من لدن حكوماتها المختلفة لم يلقها غيرها من الأجانب الذين جاءوا إلى الشّرق، وكان المتبادر إلى الظن أن لا تعطف حكومات أوروبا هذا العطف على جماعة تعتبرهم سبباً من أسباب تأخر أوطانهم ما دامت تريد أن ترفع في ربوع العالم كله لواء حضارتها الجديدة، لكن الأمر كان على النقيض من ذلك، ومن يتتبع تقارير ممثلي الدول الأوروبيّة في الشّرق منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى وقتنا الحاضر يعجب لما يرى فيها من شدة الحرص على حماية هذه البعثات حماية لا يتردد الإنسان معها في اعتبار البعثات التعليمية الدّينيّة غزوات منظمة وجهتها أوروبا إلى الشّرق لغايات سياسية استعمارية[1]، وضعتها الدول الأوروبيّة جميعها في اعتبارها وسعت بجميع وسائلها الممكنة مشروعة وغير مشروعة أخلاقية وغير أخلاقية لتحقيقها حتى «التقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار... وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان، ثم اتصل بالاستعمار»[2]، فقام بتخريج

(١) محمد حسين هيكل: الشّرق الجديد، ص٦٥ ـ ٦٦.
(٢) إبراهيم أحمد خليل: المرجع السّابق، ص٤٢.

دفعات من رجاله الذين تعلموا على يديه أساليب الدس والتشكيك، ثم تدربوا على وسائل التشويه والتلفيق، ولعل هذا السبب الذي جعل «حلمي علي مرزوق» يعدّ الاستشراق والتبشير مع الاستعمار والصهيونية من قضايا الأمة العربيّة التي تجتازها في وقتنا الحاضر و«هذان هما الضلع الثاني في الثالوث اجتمعا على تزييف الحضارة العربيّة والإسلاميّة، وهما وإن كانا مختلفين في النشأة والمصدر، فالاستشراق تقوم عليه الجامعات والهيئات العلمية، أما التبشير فتقوم عليه الكنائس وما في حكمها من المجامع والمؤسسات وغاية الاستشراق علمية خالصة أما التبشير فدينية بحتة، وتلك غايات تقدرها قدرها، ولا نضيق مما يبذل فيها من الجهد، وإنما الضّيّق كما قدمنا من الانحراف بهذه الجهود عن وجهتها العلمية أو الدّينيّة إلى خدمة الاستعمار أو التعصب على غيرها من الحضارات والمعتقدات»[1].

ولن يضيق أحد بالدعوة الدّينيّة إذا كانت تلك الدعوة موجهة أصلاً من أجل الدّين، وأما إذا كانت لها أغراض أخرى لا علاقة لها بالدّين كما هي الحال في عمل الغرب التبشيري فلا بدّ إذن من مواجهتها ومحاربتها إذ تستهدف محواً لشخصيته الأصلية من أساسها وإزالة جذورها تماماً، ولكي تفتح للغرب مجال التصرف في المنطقة العربيّة بأسرها كما يشاء، ويمكن القول بأن العمل التبشيري في ماضيه كان كل شيء، فقد شارك في الغزو والاستعمار للشرق الإسلامي مشاركة فعالة، وفي أغلب الأحيان استخدم وسائل غير شريفة، ولا يزال يفعل ذلك، والغريب في الأمر أن المسلمين أنفسهم لا يكرهون المبشرين، بل يكنون لهم كل التقدير والاحترام إذا كانوا كذلك حقاً، ولكنهم في الحقيقة قد ألبسوا في أغلب الأحيان ذلك الزيّ ليكون ستاراً يمكنهم من خدمة أهداف الاستعمار ليس إلا، أما العمل التبشيري فقد كان وسيلة نافذة لعملهم الهدام، ويكفي دليلاً في العصر الحاضر أن الإحصائيّات تؤكد أن الأغلبية الغالبة من المبشرين الغربيين في العالم الإسلامي يعملون كل شيء سوى التبشير، وهكذا أصبح العمل التبشيري قضية من قضايا العالم النّامي بأسره وليس العالم الإسلامي، أو العالم العربي فحسب، وإن ظل هو بيت القصيد، وهذا ما يعترف به «كامفيماير» قائلاً: «من

(١) حلمي علي مرزوق: قضايا الأمة العربيّة، ص٤١.

المعضلات التي يصعب عليها عدوان المبشرين في الشّرق العربي»[١].

ويكفي دليلاً على ذلك تلك المؤتمرات التي عقدها المبشرون وشاركهم المستشرقون منذ بداية هذا القرن حتى الآن، وخاصة المؤتمرين اللذين انعقدا في القاهرة عام (١٩٠٦م)، و«لوكنو» بالهند عام (١٩١١م).

أما مؤتمر القاهرة التبشيري الذي انعقد عام (١٩٠٦م) فقد بحث المشتركون فيه ـ أي (المبشرون والمستشرقون) ـ مشكلات شتى، غير أن المسألة الإسلاميّة أخذت جلّ أوقاتهم وجوهر مناقشاتهم، حيث درسوا مشكلة مواجهة الإسلام وسرعة انتشاره باعتبار أن «الدّين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية. والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا...»[٢].

وبحث أيضاً مشكلة المرأة والأسرة بالذات، إذ «لا سبيل إلّا بجلب النساء المسلمات للمسيح، لأن عدد النساء المسلمات عظيم جداً. فكلّ نشاط مجد للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن. نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفاً جديداً هو الوصول إلى قلب نساء العالم المسلمات كلّهنّ في هذا الجيل»[٣].

غير أنّ هذا الاهتمام بالمرأة المسلمة لم يكن جديداً على التبشير، لأنه لم يتأخر في فتح مدارس للبنات ولم يدّخر جهداً لجذب المرأة المسلمة إليها فهي وسيلة فعّالة وطريق معقول للدخول إلى أسرة المسلم والقيام بالتبشير فيها: «أن أوّل مدرسة للبنات في الإمبراطوريّة العثمانيّة فتحها المبشرون في بيروت عام (١٨٣٠م)، كما فتحوا مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسوريّة، وفي الهند والأفغان»[٤].

ولا يزالون يفتحونها ويقومون بتربية البنات المسلمات فيها على مرأى ومسمع من العالم الإسلامي، كما «أرسلوا الطّبيبات المبشرات إلى البيوت والقرى للاتصال مباشرة بالنساء واستخدام نفوذ المرأة في الوصول إلى أهدافهم

---

(١) جيب كامفيماير: وجه الإسلام، ص١٠٠.
(٢) أ.ل. شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي، ص٣٥.
(٣) أ.ل. شاتليه: المرجع السّابق، ص٢٠٤.
(٤) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص٨٧.

التي يزعمون أنها نبيلة، ولكنها تتكشف دائماً عن سعي لبسط نفوذ سياسي استعماري»[1].

وعلاوة على هذه الموضوعات أثيرت مشكلة تنصير المسلمين بالذات، لأن «المسلم هو الذي امتاز بين الشّعوب الشّرقية بالاستقامة والشعور بالمحبة ومعرفة الجميل»[2].

وأفاض بعض أعضاء المؤتمر في دراسة جامعة الأزهر نفسها وما لها من نفوذ، وإقبال الآلاف من الشباب المسلم عليها[3].

ولم يكتفوا بذلك بل اقترحوا إنشاء جامعة نصرانية تتكفّل بإتقان تعليم اللغة العربيّة وعلومها، وتشترك في نفقاتها جميع الكنائس المسيحيّة في العالم دون النظر إلى اختلاف مذاهبها، وذلك ليتمكن الغرب من منافسة تلك الجامعة الإسلاميّة العتيقة، وبعد مناقشات مستفيضة أشار أحد أعضاء المؤتمر إلى خطة بناء السكة الحديدية التي تربط القاهرة ببلاد «الكاب» في جنوب أفريقيا، وإلى أقوال «هرتزل» في محاسنها ومساوئها لأهداف الاستعمار، وقال: «غير أنّ هذا الخطّ الحديدي يجعل القاهرة محجاً للمسلمين المتشرّدين من جنوب أفريقيا إلى شمالها فيصعب نشر التبشير حينئذٍ من الكاب إلى القاهرة»، ثم أردف قائلاً: «إن من سداد الرأي منع جامعة الأزهر من أن تبعث بالطلبة المتخرّجين فيها إلى جنوب أفريقيا تنفيذاً لقرار مؤتمر التبشير العام، لأن الإسلام ينمو بلا انقطاع في كل أفريقيا»[4].

ولهذه الأسباب وغيرها من القرارات التي أقرها المشتركون اعتبر مؤتمر القاهرة التبشيري في عام (١٩٠٦م) نقطة التحول في التبشير ودراساته وارتباطها بالاستشراق وبحوثه، حيث «دخلنا بعد مؤتمر القاهرة في دور جديد ظهرت فيه أهمية تنصير المسلمين، وشعر زعماء التبشير بأن الكنيسة لا بدّ لها من سبر غور المسألة الإسلاميّة، وأن تحسن العناية بتربية المبشرين وتتوقع خيراً من أعمالهم

---

(١) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص٦٤.
(٢) أ.ل. شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي، ص٧٠.
(٣) أ.ل. شاتليه: المرجع السّابق، ص١٦٧ ـ ١٦٨.
(٤) أ.ل. شاتليه: المرجع السّابق، ص٢٥٤.

وفكرة تنصير المسلمين تقتضي إيجاد ميدان مشترك للعمل تتضافر فيه الأفكار والبحوث والمجهودات»[1].

ولم يمر وقت طويل حتى عقد المبشرون مؤتمرهم الثاني في «لكنو» عام (١٩١١م) بالهند وافتتحه القس المستشرق «زويمر» الذي تناول في خطبته الافتتاحية النّقط الجديدة منها: الاحصاءات الإسلاميّة، وأحوال المسلمين السيّاسيّة وارتقاؤها، والأمور التي طرأت على الإسلام بعد مؤتمر القاهرة التبشيري من التحولات السيّاسيّة والفكرية، والمنهج الذي اتبعته الكنائس المختلفة في نشاطها التبشيري، ثم أقرّ المؤتمر مواد المناقشة ومنها[2]:

١ ـ دراسة حركة الجامعة الإسلاميّة وأهدافها وطرقها والعلاقة بينها وبين تنصير المسلمين.

٢ ـ دراسة التحولات السّياسيّة في العالم الإسلامي بأسره، وصلتها بالإسلام، وموقف المبشرين منها.

٣ ـ دراسة موقف الحكومات الإسلاميّة وغير الإسلاميّة إزاء إرساليات تبشير المسلمين.

٤ ـ دراسة الإسلام وإمكانية مواجهته، ومنع اتساع نطاقه بين الشّعوب الوثنية والمسيحيّة كذلك.

٥ ـ دراسة أحوال المبشرين وتدريبهم على ممارسة تبشير المسلمين بالذات والوسائل اللازمة لأداء هذه المهمة.

٦ ـ دراسة نشر الكتب وتأليفها للمبشرين وللقرّاء المسلمين على حد سواء.

٧ ـ دراسة حركات الإصلاح الدّيني والاجتماعي والسّياسي في العالم الإسلامي بأسره.

٨ ـ دراسة الارتقاء الثقافي والنفسي والاجتماعي بين النساء المسلمات ومدى نجاح التبشير في أوساطهن.

٩ ـ دراسة توسيع نطاق الأعمال النسائية وإمكانيات جذب النساء المسلمات إليها.

---

(١) أ.ل. شاتليه: المرجع السّابق، ص١١٤ ـ ١١٥.

(٢) أ.ل. شاتليه: المرجع السّابق، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

١٠ ـ دراسة الموضوعات الأخرى التي تتعلق بالمطبوعات والمنشورات وما شاكل ذلك.

وتوالت المؤتمرات التبشيرية منذ ذلك الحين سنة بعد سنة حتى تحولت أخيراً إلى مجلس الكنائس العالمي الذي نظم المؤتمر الإسلامي المسيحي (١٢ يوليو ١٩٧٢)[١]، الذي يختص بدراسات مقارنة للأديان وإيجاد التعاون بينها. وأخيراً طرأت الفكرة الجديدة على العناصر الكنسية والاستشراقيّة كذلك، وهي إنشاء الجبهة الدّينيّة الموحدة لمواجهة التيارات الإلحادية في العالم حيث تأكدت العلاقة بين التبشير والاستشراق من جديد[٢]، بقدر جعل الفصل بينهما بالغ الصعوبة، إذ أسهم كل منهما على حدة في كل مؤامرات الغرب ضد الشّرق وتجاهل المبشرين الجدد أحياناً كل ما فعله التبشير خلال القرون الماضية وما يفعله الآن في السودان والفليبين وفلسطين، ويكفي دليلاً على ذلك تلك الكلمة المشهورة التي نطق بها المارشال «اللنبي»: (اليوم انتهت الحروب الصّليبيّة)[٣]، وذلك عند دخول بيت المقدس في نهاية الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٨م)، وأضاف غيره أبّان الهدنة التي عقدت في السنة نفسها يقول: «أيها المبشرون هذه فرصة لم تسنح لكم من قبل»[٤].

وقال «ج. ج. جلوب» بعد ذلك بسنين: «ولا ريب أن هذه المنافسة الطويلة بين النّصارى والمسلمين ترجع إلى الأحداث السّياسيّة العارضة والمصادفات الجغرافيّة أكثر من رجوعها إلى خلافات دينية أساسية، أما وقد شرعت الإلحادية المادية اليوم في تحدّي القيم الروحية، فإن في وسع الديانتين الكبيرتين أن يشتركا معاً في محاربة أولئك الذين ينكرون وجود الله كليّة، وإني مؤمن بوجود مجال فسيح للتعاون بين الديّانتين»[٥].

---

(١) المؤتمر الذي انعقد في «برمّانة» بلبنان، وبحث في موضع التفاهم والتعاون بين النّاس وإسهام المسلمين والمسيحيين في هذا المجال، الأهرام ١٢ يوليو ١٩٧٢م.

(٢) محمد خلف الله: الثقافة الإسلاميّة والحياة المعاصرة. ت. كويلرينج: الشّرق الأدنى مجتمعه وثقافته، ترجمة عبد الرحمٰن محمد أيوب.

(٣) محمد حسين هيكل: الشّرق الجديد، ص١٩ ـ ٢٠.

(٤) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص١٥١.

(٥) ج.ج. جلوب: الفتوحات العربيّة الكبرى، ترجمة: خيري حمّاد، دار القومية العربيّة للطباعة والنشر، عام ١٩٦٣م، ص٥٦٥.

والغريب أن تأتي هذه الصيحات وأمثالها بعد أن أخفق الغرب في سياسته الاستعمارية وبعد أن بدأت الشّعوب العربيّة تشق طريقها إلى التّقدم والازدهار، لقد مدّت الشّعوب العربيّة يدها للتعاون مع الغرب، وعلى الرغم مما فعل بها عبر القرون، غير أنه لم يتحرر بعد من عداوته نحوها وتفكيره في السيطرة عليها ورغبته في احتلال أراضيها واستغلال مقدراتها، وتمزيق وحدة صفها ومحاربة دينها، ثمّ لغتها وقوميتها، لأنه لم يزل يتجاهل ذلك المد العربي الإسلامي الصاعد.

وإذا كان في إمكاننا أن نبدأ بالاعتراف بهذا الإيمان العربي الإسلامي، وأن نقدّر الرّوابط الوثيقة التي تربطنا بهم، وأن نحاول توسيع هذه الروابط عن طريق التعاون والتعاطف والمساعدة المادية الملموسة.

فليس هناك من داع إلى الشك في إمكان شفاء جراح الماضي في العالمين العربي الإسلامي والغربي، لكن نقاط الاحتكاك الباقية ما زالت كثيرة وملحّة تمتد من الجزائر إلى عدن، ومن مأساة فلسطين إلى ارتباطات بريطانيا التعاهدية مع إمارات الخليج، ولا تستعصي أي من هذه القضايا على الحل، إذا أقبلنا على علاجها بطريقة جديدة وروح إنسانية، ولكن قد يكون من الكوارث حقاً أن تمر حقبة جديدة من التّاريخ العربي مشحونة بالحروب والأزمات، ولا يزال الفقر والمرض والتخلف الفكري والاجتماعي في حاجة إلى العلاج والاستصال»[1].

وممّا لا شك فيه أنّ الاستشراق والتبشير معاً يمكنهما أن يقوما حقاً بدورٍ عظيم في إيجاد علاقة التعاون بين الشّرق والغرب وإيجاد التفاهم بينهما، ولكن بشرط أن يتمسكا بالرؤية الجديدة الموضوعية للواقع التّاريخي[2]، لهذا العالم الصاعد الذي يمتلك قدرة هائلة للتجديد تمكنه على الدوام من اجتياز الصعوبات التي تعترض صعوده وتقدمه. غير أنه «إذا كان الاستشراق والتبشير قد قاما على أكتاف الرّهبان والآباء في أوّل الأمر، ثم اتصلا بعد ذلك بالمستعمرين فإنهما لا

---

(١) أ. تشايلدرز: الحقيقة عن العالم العربي، ترجمة: خيري حمّاد، ص٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) من أمثال هذه المحاولات هي محاولة «جاك بيرك» في كتابه «العرب تاريخ ومستقبل»، بترجمة خيري حمّاد. ومحاولة «مكسيم رودنسون» في كتابه «الإسلام والرأسمالية»، بترجمة نزيه الحكيم. ومحاولة «لويس غرديه» و«ج. قنواتي» في كتابهما من ٣ أجزاء (فلسفة، الفكر الدّيني بين الإسلام والمسيحيّة) بترجمة د. صبحي الصالح.

يزالان حتى اليوم يعتمدان على أولئك، وإن تظاهرا بالرسالة الدّينيّة والخيرية، وهم دائماً يقظون يحدقون بعيونهم ويصغون بإذانهم إلى مختلف الأوساط لمعرفة كل الاتجاهات حتى يستطيعوا أن يذللوا أي عقبة تعترض سبيل نشاطهم وعملهم»[1].

وعلى كل حال أثبتت العلاقة بين الاستشراق والتبشير كما تأكدت لكل ذي عينيين أنهما قد شاركا مشاركة فعّالة في هذا الصراع المرير الذي لا تزال رحاه دائرة بين العالمين الشّرقي والغربي.

والغريب أن العالم الإسلامي ظلّ ساكناً لا يتحرك إزاء تلك التحديّات ولم يفكر في مواجهتها جدياً وعلى أساس منهجي إلّا بعد إنشاء مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر الذي يختص بمواجهة قضايا العالم الإسلامي وإيجاد حلول لها على أساس كتاب الله وسنّة رسوله، مما سيفتح مجالاً جديداً للدّراسة والبحث في الاستشراق والتبشير معاً.

ومع ذلك لا يمكن إنكار محاولة بعض العلماء المسلمين للرد على مزاعم التبشير والاستشراق، مما أدّى إلى مواجهة فكرية بينهم وبين هؤلاء، وقد جاءت هذه المواجهة بنتائج تحتاج إلى دراسة مستقلة تحيط بنواحيها جميعاً.

### ◄ ٣ ـ ظاهرة المشرقيّات وعلاقتها بالصهيونية[2]:

تبيّن مما سبق أن قوى الغرب قد تضافرت عبر التّاريخ على العالم العربي

---

(١) إبراهيم أحمد خليل: المرجع السّابق، ص٨٧.

(٢) انظر: د. حسان حلاق: موقف الدّولة العثمانيّة من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ـ ١٩٠٩م، الطبعة الجديدة.

ـ جلال يحيى: مشكلة فلسطين والاتجاهات الدوليّة.

ـ حسن صبري الخولي: سياسية الاستعمار والصهيونية في فلسطين في النصف الأوّل من القرن العشرين، دار المعارف، بمصر، ١٩٧٣م.

ـ خيريّة القاسميّة: النشاط الصهيوني في الشّرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨م، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٣م.

ـ فتحي الرملي: الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار.

ـ محمود نعناعة: الصهيونية في الستينات، الفاتيكان واليهود.

ـ حلمي علي مرزوق: قضايا الأمة العربيّة في الاستعمار والاستشراق والصهيونية، حوار =

في محاولاتها المتكررة لاحتلال أراضيه واستعباد شعوبه وتبديد وحدته، وذهبت كل جهودها هباء حيث تحطمت على أيدي المقاومة العربيّة الإسلاميّة التي كانت تدافع عن الأرض والعقيدة ببسالة وإصرار، وليس هناك تفسير آخر لإخفاق هذه القوى في هجومها إلا تلك القوى العظيمة التي يملكها العرب في مواجهة الأعداء المدججين بالسلاح.

لقد كانت هزيمة الغرب في حملته الصّليبيّة بمثابة ضربة قاضية لقواه المتكتلة، الأمر الذي جعله ينصرف مؤقتاً عن فكرته الشيطانية إلى مصالحه الخاصة وشواغله الداخلية، ومع ذلك ظلت فكرة غزو أرض الموعد تراود أفكار الغرب عدة قرون متلاحقة فأخذ يعد عدته لتحقيق حلمه من جديد، حتى جاءت الحرب العالمية الأولى فحققت قواته المتحالفة آماله العريضة ودخلت البيت المقدس في ١٠ ديسمبر عام (١٩١٧م).

---

= صريح بين «ألبرتو مورافيا» وياسر عرفات، جريدة الجمهورية ٨ يونيو ١٩٧٢م، وهو من أمتع المناقشات وأروعها حول القضايا التي تتعلق بالصهيّونية وفلسطين والقضايا العربيّة، أراد بها «ألبرتو مورافيا» الكاتب العالمي الشهير كشف النقاب أمام العقلية الأوروبيّة والعالمية عن عدالة الكفاح الفلسطيني، ضد الصهيونية والإمبريالية.

- الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي: بتقديم عباس محمد العقاد.

- يوميات «هرتزل»، بإعداد أنيس صايغ: وترجمة هلدا شعبان صايغ: مركز الأبحاث، بيروت ١٩٦٨م.

- لورنس العرب على «هرتزل» تقارير لورنس السرية، بإعداد زهدي الفاتح: وهو الكتاب الذي يقع في حدود ١٦٠ صفحة وتضمّن أخطر الوثائق التي تنشر لأوّل مرة يجب أن يقرأه كل إنسان يحب الحق ويعيش للعدل ويدافع عن الحقيقة.

- غسان كنفاني: في الأدب الصهيوني، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٧م، حيث يرسم إطاراً شاملاً للأدب الصهيوني الذي سخّر نفسه للسياسة مستخدماً الفن في جميع أشكاله للقيام بأكبر عملية تضليل تتأتى عنها نتائج بالغة الخطورة ضد العرب ووجودهم نفسه.

- صبري جريس: التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي، أضواء على الأصول الصهيونية «سيجموند فرويد»، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م، وهل لنا أن نذهب أبعد إذا علمنا أن إسرائيل قد افتتحت معهداً متخصصاً للدراسات العربيّة الاستراتيجية يقوم بنشر تقرير سنوي في المجلات العالمية للتغييرات التي تطرأ في التفكير العربي في المنطقة وما يتبعه في السلوك تجاهها وما يصدره العرب من الدراسات العلمية والأدبية والفنية وغيرها.

«ولم يكن هذا خاتمة النضال المرير في سبيل امتلاك هذه البقعة المقدسة، إذ تجدد النزاع من أجلها مرة أخرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولكن بعد أن كان هذا النزاع فيما مَضَى نزاعاً بين المسيحيّة الغربيّة والعالم الإسلامي أصبح اليوم نزاعاً بين إسرائيل تناصرها القوى الاستعمارية في العالم الغربي، وبين دول الشّرق العربي يشدّ أزرهم إيمانهم العميق بعدالة قضيتهم ووضوح حقهم»(١).

وهكذا زَرَعَ الغرب ـ بعد أن أخفقت قواه في مواجهة يقظة العرب الصاعدة ـ جسماً غريباً في فلسطين، وتبنّاه بكل ما لديه من قوة وعداوة للعرب وكراهية للإسلام، إن هذا الجسم الغريب الذي زُرِعَ في غير مكانه يمثل القوى الصهيونية التي شايعت كل القوى المعادية للعرب والإسلام خلال العصور الماضية(٢).

حتى جاء فيلسوفها «هرتزل» لكي يضع الخطط لمواجهتها معاً، ولتنفيذ مشروع استيطان اليهود في فلسطين وإنشاء دولتهم القومية فيها(٣).

---

(١) جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥، وأيضاً: جوزيد نسيم يوسف، الصهيونية في فلسطين امتداد طبيعي للاستعمار الصليبي، مجلة «العهد الجديد» العدد ١١٤٥، تاريخ ١٦ مايرو ١٩٦٧م.

(٢) راجع على سبيل المثال كتاب: «عبد الله بن سبأ» للأستاذ مرتضى العسكري، وهو كتاب بحث وتحقيق فيما كتبه المؤرخون والمستشرقون عن ابن سبأ منذ أقدم العصور حتى اليوم.

(٣) «يوميات هرتزل» بإعداد أنيس صايغ، ترجمة هلدا شعبان صايغ، حيث يمكن كما يقول أنيس صايغ في مقدمته للكتاب، ص١٢ ـ ٢١٣، استخلاص أربعة أحكام عامة على الحركة الصهيونية من «يوميات هرتزل»، حيث يجد الباحث عشرات الاثباتات على كل حكم من هذه الأحكام وهي:

ـ أن الحركة الصهيونية حركة استعمارية، وأنها ولدت في حضن الاستعمار، وأنها كانت تعتمد على مساندة الاستعمار.

ـ أن الوسائل التي اتبعها الصهيونيون أو دعوا إلى اتباعها لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين العربيّة إنما هي وسائل لا أخلاقية؛ كالرّشوة والكذب والعنف والانتهازيّة.

ـ أن الحركة الصهيونية من أساسها حركة يمينية تقاوم الاشتراكية وتتآمر عليها وتحاربها.

ـ أن ما قاله أعداء اليهود وأعداء الصهيونية في اليهود وفي الصهيونية في مائة السنة الأخيرة لم يكن بأعنف ولا بأسوأ مما قاله «هرتزل» نفسه في اليهود والصهيونيين. ويبدو أن أنيس صايغ قد تجاهل حكماً خامساً يمكن استخلاصه من «يوميات هرتزل» وهو حكم بالغ الأهمية للفكر العربي، وهو اعتبار الصهيونية بعناصرها الهدامة وسيلة فعالة لمواجهة تقدم العرب ورغبتهم في تحقيق وحدتهم الشاملة، وبناء الدّولة الموحدة المتقدمة.

وقد اعترفت «بربارة توخمان» بهذه الحقيقة في كتابها «التوراة والسيف» أو «إنجلترا وفلسطين منذ العصر البرونزي إلى بلفور»، حيث قالت: «هذا الكتاب لتتبع الأهداف المزدوجة في تطوّرها منذ البداية، الهدف الثقافي مع الهدف الاستعماري، والهدف الأخلاقي مع الهدف المادي، وبكلمة واحدة أريد أن أتتبع فيه خطوات التوراة والسيف إلى أن أنتهي بفلسطين إلى الانتداب»[١].

وليس ثمة شك في أن الاستشراق قد شارك بطريقة أو بأخرى في هذا الصراع المرير حول الأرض المقدسة التي كانت باستمرار غزيرة الإنتاج في الاتجاهات الفكرية، حيث «بدأت موجات الديانات الأربعة الكبرى، واتخذت مجراها العلمي التّاريخي، وهي موجات اليهودية و«البروسية» والمسيحيّة والإسلام التي هزت الأفكار والمشاعر الإنسانيّة إلى الأعماق»[٢].

وفعل الغرب كل ما في وسعه فاستغل الاستشراق والاستعمار والتبشير كذلك ليظل العالم العربي تابعاً لألوان حضارته ويبقى تحت سيطرته وخاصة فلسطين، وذلك لموقعها الجغرافي الممتاز الذي جعلها عاملاً حيوياً في التّاريخ العالمي إذ تضم أعز الأماكن المقدسة للديانات الثلاث: اليهودية والمسيحيّة والإسلام على حد سواء، وكانت منذ منتصف القرن التاسع عشر موضع اهتمام خاص من قِبَل الأوروبيين من علماء ومستشرقين وصحفيين وفنّانين وسائحين وحجاج وطلاب ومنقبين ودارسي الكتاب المقدس والكتب السماوية الأخرى، ولا يمكن أن نعتبر أن هدفهم فقط كان البحث المنظم الدقيق، ومن هنا أصبحت هذه الأماكن معيناً لا ينضب للعديد من الكتب والمؤلفات التي تناولت الجوانب المتعددة الجغرافيّة والتّاريخيّة والمناخية والجيولوجية والاقتصادية والدّينيّة وغيرها[٣].

---

(١) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص١٨.

(٢) فون كريمر: الحضارة الإسلاميّة، ص٥٢.

(٣) وظهرت في الآونة الأخيرة دراسات عديدة من الباحثين العرب وغير العرب على حد سواء، غير أننا نود أن ننوه هنا بوجه خاص إلى بعض الكتب التي ألفها الرهبان المستشرقون مثل: «الأرض غير المقدسة» للقس «فورست»، رئيس تحرير جريدة «الأوبزرفر» الناطقة بلسان الكنيسة الموحدة، ثم: «لمن هي أرض فلسطين؟» للقس «فرانك أب» مدير دائرة النزاعات الدولية التابعة للكنيسة «المانرنايس»، وأخيراً: «الحرب =

وذلك كله للحصول على كل ما يجب أن يعرف عن فلسطين لتسهيل مهمة الاستيطان الصهيوني فيها، وإمكانية اغتصاب أراضيها من أصحابها الشرعيين، وبرزت في هذا المجال عدة جمعيات تبحث في شؤون الأراضي المقدسة أهمها «صندوق الاكتشاف الفلسطيني ـ Palestine Exploration Fund» الذي تأسس عام (١٨٦٥م) وبدأ بإصدار نشرات دورية منذ عام (١٨٧١م) باسم (Palestine Exploration Fund Quarterly Statement)، وعلى الرغم من أن نشاطه ينبع من فكرة دينية تستهدف دراسة كل ما يتعلق بالأراضي المقدسة فإن مجالات نشاطه وما قام به من عمليات المسح والحصر ووضع الخرائط لا يمكن إرجاعها إلى مواضع أثرية دينية فقط، وخاصة أنّ التعاون كان كاملاً بين العاملين فيها من علماء ومستشرقين وضباط، مثل: «الليفتانت كوندور» و«كيتشنير» و«الكولونيل واطسون» الذي كان رئيس اللجنة التنفيذية للصندوق، واشترك في الحملة المصرية، وعيّن بدارة المخابرات في الجيش، وقام بوضع كتاب عام (١٩١٥م)، سنة وفاته لخص فيه نشاط الصندوق من دراسات وبحوث ومخططات بعنوان: (Fifty Years Work: A Record and A Summary 1865 - 1915, In the Holy Land)[١].

---

= غير المقدسة إسرائيل وفلسطين ١٨٩٧ ـ ١٩٧١م»، «لدافيد وايز» بتقديم «مكسيم رودنسون»، وقد علق الباحث الفلسطيني هاني فارس في مجلة شؤون فلسطين عدد يناير ١٩٧٢م ص٢٤١ ـ ٢٤٢ على هذا الكتاب، واعتبر أن له ميزات عدة أهمها ثلاثة:

**أولها**: الفهم الدقيق للمشكلة الفلسطينية والإلمام بها من جميع جوانبها.

**وثانيها**: لم يدرس الكاتب المشكلة من الكتب وإنما جاء بنفسه عدة مرات إلى الشّرق ليرى على الطبيعة القوى المتصارعة في النزاع القائم.

**وثالثها**: المنهج الذي اتّبعه المؤلف ليقدم تحليلاً شاملاً وعرضاً تاريخياً وموضوعياً مما جعل «رودنسون» يقول في مقدمته: إن أقل ما سيساهم به هذا الكتاب هو تعبيد الأرض لدحض معتقدات قديمة وخاطئة، وإشعال شرارة الشك التي تحرر الإنسان من مفاهيمه الخاطئة، وإقناع العقول المتفتحة لتقبل الحقيقة.

(١) ويضم الكتاب كل المعلومات عن البعثات والحفريات والمخطّطات، كما تضم خريطة لتوضيح المواقع والأماكن وفصول الكتاب كلّها تدل على ذلك وهي: لماذا أسست جمعية الحفريات في القدس ١٨٦٧م؟، وبعثه صحراء لخروج سنة ١٨٦٩م، ومسح غرب فلسطين ١٨٧١ ـ ١٨٧٧م، مسح فلسطين الشّرقية ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م، البعثة الجيولوجية والبحث في غربة ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤م، الحفريات في لاكبش القدس. . . إلخ. المسح في جنوب فلسطين ١٩١٣ ـ ١٩١٤م.

وبذلك أسهم الصندوق في تكوين صورة كاملة عن أوضاع فلسطين في أوسع مداها وأدقها، وأصبحت هذه الصورة ذات أهمية بالغة ساعدت بقدر كبير على مجيء الصهيونيين إلى فلسطين واحتلال أراضيها وتشريد أصحابها الشرعيين، من هنا أدّت أعمال صندوق الاكتشاف الفلسطيني والمشتركين فيه أعظم الخدمات الصهيونية العالمية مما يدل على الروابط الوطيدة بين الصهيونية والاستشراق.

وهكذا خلقت المشكلة التي تعد من أصعب المشكلات في عالمنا المعاصر وأعقد القضايا التي رآها التّاريخ في العصر الحديث، بل في كل العصور، وتعاون في خلقها كل من الاستعمار والاستشراق والتبشير على حد سواء، ثم جاءت الصهيونيّة بحقدها التّاريخي لتمد هؤلاء بما أوتيت من جهد للحطّ من قيمة ماضي الأمة العربيّة ودورها في الحضارة الإنسانيّة ومن واقعها الراهن في شؤون الحرب والسلام[1].

والغريب أن العرب لم يؤذوا اليهود خلال التّاريخ كله، وإن كانوا أشد النّاس عداوة لهم منذ أن التقوا بهم، ولم تكن حرب المسلمين لليهود في المدينة وبعض الجهات الأخرى إلا لأن جماعة التوراة أبوا إلا الكيد للرسول ومحالفة أعدائه إبقاءً على سلطانهم المدمرّ، واستغلالهم الجشع لأبناء هذه البقاع، وإيقاد نار الحقد والبغضاء والحرب من صفوفهم[2].

وحينئذٍ صدر أول نقد للمعاهدة من قبل يهود بني قينقاع، حيث «لم يقابلوا الجميل بالجميل بل قابلوا حلم رسول الله ﷺ بالإمعان في التمرد والغدر والإساءة فقد انتقلوا من نطاق جحود النبوة وتشكيك المسلمين في صحة دين الإسلام إلى نطاق الغدر، ونقد العهد والمجاهرة والكراهية والاستنكار بما يصيب المسلمين من خير».

ثمّ إن قضيتهم لم ترتبط بالعرب من قبل[3]، لا من قريب ولا من بعيد وإنّما

---

(١) حلمي علي مرزوق، قضايا الأمّة العربيّة، تقديم: محمد عبد المعز نصر، ص١.

(٢) جان بولي رو: الإسلام في الغرب، ص١٣٧.

(٣) علي حسني الخربوطلي: العلاقات السّياسيّة والحضارية بين العرب واليهود في العصور القديمة الإسلاميّة، معهد البحوث والدراسات العربيّة، ص٣ ـ ٢٨ وما بعدهما. حيث تناول هذه العلاقات منذ أقدم العصور إلى نهاية القرن التاسع عشر، كما عالج بعد ذلك =

«تاريخ هذه القضية أو هذا الصراع يرجع إلى الإمبراطوريّة الرومانية منذ خرّب الهيكل الثاني بعد الميلاد في عهده «تيتوس» ثم «هادريان»، فلقد هاموا على وجوههم في مختلف أنحاء الشّرق الأدنى أو العالم القديم في بلاد العرب والفرس وما بين النّهرين تحدوهم القرابة السامية وذكرى «القورش» الفارسي مخلّصهم الأوّل من الأسر البابلي على عهد بختنصر إلّا أنّ فريقاً منهم ظل متمسكاً بالإمبراطوريّة الرومانية فنزح إلى غربيّها وشماليها، وهي بعد دول وثنية، وكانوا يحقدون على المسيحيّة الناشئة في هذه البلاد ويكيدون لها، ثم أصبحت لهم قضية منذ صاروا قلّة هزيلة في هذا البحر المتلاطم من المسيحيين»[١].

إذن كانت هناك قضية قائمة من قبل قضية صراع بين اليهودية والمسيحيّة، وتربص كل فريق منهم بالآخر وظل العداء بينهما مستمراً حتى جاء الإسلام الذي دعا كلّاً منهما إلى التعاون في هداية البشرية والعمل الموحد في سبيل الله، ولكن اليهود أبوا أن يستمعوا إلى صوت الحق وهكذا تولّد النزاع الذي كان له نتائج سياسية واجتماعية بعيدة الأثر، غير أن هذه الاتهامات التي دأبت اليهودية إلى اليوم على توجيهها إلى الإسلام تنحصر في نقاط قليلة: أولّوية الدّين الإسلامي، وإعجاز القرآن، وتحريف المسلمين للكتاب المقدس، ورداً على هذه الاتهامات هاجم الإسلام اليهودية بعنف، ويفنّد تعاليمها المعقّدة وميلها إلى مذهب التشبيه وعدم إيمانها بالقيامة، وهو يأخذ عليها بصورة خاصة رفضها الاعتراف بأولاد إسماعيل كأحفاد لإبراهيم في الوقت الذي كان فيه هذا الولد المحروم أوّل من آمن وأوّل من تهوّد، وأوّل من أسلم[٢].

والناظر يرى أنّ الاتهامات التي توجهها اليهودية إلى الإسلام اتهامات ساذجة للغاية وغير منطقية كذلك، لأنّ أولويّة الإيمان الإسلامي قائمة على أساس إرادة الله ووحيه لا على إرادة الإنسان ورغبته، وأنّه ﷻ قد أنزله على جميع رسله، وموسى عليه السلام إلا واحداً من أولئك المختارين لهداية البشرية، وقد انتهى

---

= بإسهاب موقف اليهود من المسيحيّة والإسلام والرسول ﷺ، ووازن بين الخطر المغولي والخطر اليهودي وعلاقتهما بالحروب الصّليبيّة وما إلى ذلك.

(١) حلمي علي مرزوق: المرجع السّابق، ص٧٢ ـ ٧٣.

(٢) جان بول رو: الإسلام في الغرب، ص١٣٧ ـ ١٣٨.

دور الأنبياء السّابقين جميعاً بمجيء خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، أما إعجاز القرآن فهو المعجزة الحق اعترف النّاس بها أم لم يعترفوا.

هذه حقيقة ولا سبيل إلى دحضها أو تفسيرها ولو اجتمع على ذلك الإنس والجن جميعاً، وأما اتهام المسلمين بتحريفهم الكتاب المقدس، فإن التّاريخ نفسه يؤكد أنهم أحرص النّاس محافظة على أصله الحقيقي حتى من اليهود أنفسهم، إذن فهذا الاتهام ليس برهاناً إلا على أن اليهود قد اشتهروا عبر التّاريخ بالزيف والتحريف وهذه طبيعتهم وأخلاقهم، وإنما يرمون المسلمين بما يعرفونه في أنفسهم[1].

وأما فيما يتعلق بمهاجمة الإسلام لليهودية فهو محق في ذلك، لأنه على أساس الواقع التّاريخي وقيام أصحابها بتحريف كتابهم المقدس ودستورهم الأعلى، وأما عندما يتحدّث الإسلام عن اليهودية الحق ورسولها، فإن في القرآن اعترافاً صريحاً بقيمتها وقيمها حيث يطلق القرآن على جميع الرسالات السماوية اسم الإسلام، وكل رسول مسلم بنص الكتاب الحكيم نفسه وهذا كله واضح لا يحتاج إلى دليل والقرآن قاطع في ذلك لا يترك مجالاً لأدنى الشّك أو الرّيب[2].

وأما ما ذهب إليه «جان بول رو» من أن الإسلام خطا إلى المسيحيّة خطوة أكبر من خطوته إلى اليهودية، وأنه كان أكثر عناية بحياة عيسى عليه السلام وعلاقته بالله ﷻ، فإنه محق في هذا وجميل منه أن يعترف بالواقع والحقيقة، ومع ذلك فإن هذا الاعتراف منه، ومن أمثاله من الباحثين الغربيين يثير العجب لدى الباحث الموضوعي، حيث يجب أن يتساءل من تلقاء نفسه: كيف إذن تضافرت القوى الصّليبيّة والقوى الصهيونية، وهما عدوان لدودان[3]، على محاربة العرب والإسلام معاً كلما سنحت لهما الفرصة لذلك؟ وإن ظلت العداوة بينهما

---

(١) ارجع على سبيل المثال لا الحصر إلى الباب الأوّل من كتاب «الصهيونية في الستينات»، الفاتيكان واليهود، تحت عنوان «وثيقة التبرئة» لمحمود نعناعة، ص١٣ ـ ٨٧.

(٢) عبد العزيز عزام، العدوان الصّهيوني، ص٨. والآيات القرآنية تدل على ذلك في وضوح ولا حاجة بنا إلى سردها.

(٣) أميل الخوري حرب: مؤامرة اليهود على المسيحية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٧م، ص٢٨ ـ ٤٤.

عداوة تاريخية، وها هو ذا «نورمان بنتويتش»، والأستاذ بالجامعة العبرية يقول: «ولما تضعضعت قوة المسلمين في إسبانيا وقويت شوكة المسيحيين، أطاحوا بحريّة اليهود الدّينيّة، وبأمنهم في هذه البلاد إذ كانوا يعدّون اليهود كفاراً وخطراً على مركز الدّولة المسيحيّة، وفي عام (١٤٩٢م). أي بعد غلبة المسيحيين على «قرطبة» بعام واحد طردوا نصف مليون يهودي، وهم كل الجالية اليهودية[١] التي عاشت تحت ظلال الإسلام في أمن وحرية وسلام وطمأنينة، إذ لم يحدث أبداً أن مسها أحد من المسلمين بسوء، بل كانوا يعنون بها ويفتحون لها أبواب العمل والتعليم وكسب الرزق على مصاريعها جميعاً»[٢].

حتّى «كان اليهود الهاربون من مذابح أوروبا يجدون المأوى والملاذ في العالم العربيّ الإسلامي»[٣].

وهكذا ظل الغرب يضطهد اليهود عبر التّاريخ، قبل الإسلام وبعده، وظل هؤلاء يلجأون خلال العصور المختلفة إلى العرب والمسلمين، للحفاظ على حياتهم وأموالهم، إذن فقضية اليهود ارتبطت بالغرب لأنه قام باضطهادهم قديماً وحديثاً ولم ترتبط بالعرب قط، و«الواقع أن من سخريات التّاريخ الأليمة أن جذور النزاع العربي الإسرائيلي الحالي لم تنبت في تربة العداوات المتبادلة القديمة، وإنما خلال الاضطهاد الذي عاناه كل من العرب واليهود على أيدي الآخرين»[٤]. ولكن على الرغم من ذلك فإن العرب كانوا بيت القصيد للهجوم ودفع الثمن للعدل التّاريخي والعودة إلى أرض الميعاد، وإنشاء الدّولة اليهودية وإفساح المجال والأمن للسفاحين الذين اغتصبوا أرض الآخرين.

وأمام مزاعمهم الباطلة صمّت أذان المفكرين من أمثال «برونو» و«جان بول سارتر» وغيرهم وتبلّدت عقولهم أمام تلك الأضحوكة المقدسة، ولبّت كل القوى المعادية للإسلام والعرب نداء الصهيونية ووقفت إلى جوارها في محاربة العرب وعرقلة كل جهود تبذل لنهوضهم ورقيّهم.

---

(١) حلمي علي مرزوق: المرجع السّابق، ص٨٧.

(٢) علي إبراهيم عبده وخيرية قاسمية، يهود البلاد العربيّة، ص٣ ـ ٤٢.

(٣) كمال الدّين رفعت: الحقيقة في الصراع العربي الإسرائيلي، «الكاتب» يونيو ١٩٧٢م، ص٨ ـ ٢٥.

(٤) كمال الدّين رفعت: المرجع السّابق، ص٨ ـ ٢٥.

ولم يصر المبشرون على إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين إلّا لأنّ إنشاءه يضعف العرب إضعافاً شديداً ويفتح أبواب فلسطين العربيّة أمام التبشير، ولأن فلسطين إحدى نقاط الهجوم على العالمين العربي والإسلامي[(١)] معاً.

وشايع الغرب كلّه قيام الدّولة الإسرائيلية في فلسطين ليتخلص من سيطرتهم الاقتصادية عليه ومكايدهم الاجتماعية فيه، وإشعالهم الاضطرابات في مجتمعه[(٢)].

لأنّ «تاريخهم مع الإسلام هو تاريخهم مع كل دين ومذهب، حاربوه في البدء ظاهراً أعنف حرب، حتى إذا فشلوا ارتدوا يسالمونه مسالمة كانت شراً عليه من الحرب الظاهر»[(٣)].

ولذلك قام بمساعيه الجبارة لإنشاء دولتهم الصهيونية في قلب العالم العربي، بعيداً عن حدوده هو وقريباً من أطماعه وأهدافه الاستعمارية، ومن الجليّ أن الاستشراق قد شارك مشاركة فعّالة في الحركة الصهيونية التي تجاوبت مع كل القوى المعادية للعرب، ولكن الصهيونية أشد خطراً من هؤلاء وهؤلاء لأنها تدّعي لنفسها حقاً ثابتاً من النِّيل إلى الفرات، وتكافح دون هذا الحق المزعوم بكل ما أوتيت من حجج التّاريخ ونبوءات العهد القديم ومصالح الاستعمار والمستعمرين، فهي تطلّ على جمهور الباحثين والعلماء بوجه السبق التّاريخي أو الحضاري المزعوم، وعلى المتحمسين مع الأتباع والمهاجرين بوجه القداسة في تأويل

---

(١) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص١٧٩. وارجع إلى كتاب: «الصهيونية في الستينات» لمحمود نعناعة، حيث جاء في ص٨ منه: «وفي عام ١٩٤٤م عقد في الولايات المتّحدة الأمريكيّة مؤتمر رجال الكنيسة البروتستانية واتخذ قرارات لمصلحة اليهودية العالمية ووقّعها نحو خمسة آلاف كاهن بروتستانتي، واستغل اليهود هذه المقرارات ليضعوا على كاهل الشعب الأمريكي تبعة المشاركة المادية لبريطانيا في الجريمة الكبرى التي أنشأت إسرائيل حلقة متوسطة لا غير.. من حلقاتها المتابعة».

(٢) وهناك أمثلة لا حصر لها لأعمال العناصر الصهيونية الهدّامة في مجتمعات أوروبا الغربيّة مثلما حدث في فرنسا في عهد «الجنرال ديغول»، مثلما يحدث الآن في أمريكا كما اكتشف ذلك حسين الشافعي، نائب رئيس الجمهورية في مصر العربيّة، في محاضرته التي ألقاها بتاريخ ١٩/٤/١٩٧٣م، في المركز العام للشبان المسلمين بالقاهرة.

(٣) محمد خليفة التونسي: مقدمة بروتوكولات حكماء صهيون، ص٨٠.

التوراة وشروح التلمود وتطل آخر الأمر على الاستعماريين والإمبرياليين بوجه المصلحة المادية والقواعد العسكرية في بلاد التحرر وطلاب الخلاص، فدعواها رأس بثلاثة وجوه لا يستطيع الإنسان مهما أوتي من العبقرية أن يرى منه إلا وجهاً واحداً في وقتٍ واحد، والصهاينة بَعْدُ أحرص على التمويه والتضليل، وهذا أخطر ما في الدعاية الصهيونية على الإطلاق، إلا أنها كالاستشراق والتبشير لا تجد سبيلاً أقصر من الاستعمار تتعلق بمطامعه وتنتصر بأسبابه(١).

وهكذا أصبحت الصهيونية بعد أن أخفقت القوى المعادية للعرب في السيطرة عليهم قاعدة الغرب الأساسية لعراقلة تقدّم العرب وتعويق وحدة صفوفهم، واتحدت قوى الاستشراق والاستعمار والتبشير مع القوى الصهيونية للانقضاض على هذا الشعب الذي لم يتآمر أبداً على أحد وإن تآمر عليه الجميع، وقد ساعد الغرب الصّهيونية لا حباً فيها ولكن كرهاً للعرب، لأنه لا يكن لهم سوى الغل والحقد والبغضاء، وهناك دليل قاطع لهذه العداوة لا سبيل إلى إنكاره وهو تعليق «لورنس» على معاهدة «سايس بيكو» حين يقول: «إنني لم أبلغ درجة من الحمق تجعلني لا أدرك أنه لو قيّض للحلفاء أن ينتصروا فإن وعود بريطانيا لن تكون سوى حبر على ورق، ولو كنت رجلاً شريفاً وناصحاً وأميناً لصارحتهم بذلك وسرّحت جيشهم، وجنبتهم التضحية بأرواحهم في سبيل أناس لا يحفظون لهم إلاّ ولا ذمّة»(٢).

وهناك أقوال لبعض قادة اليهود عن السلام الذي يخيّم على البلاد العربيّة التي وقّعت المعاهدات والاتفاقات، والتي لم توقع بعد حتى الآن.

يقول مناحين بيغن: «إن عنصر العنف والقوة جزء لصيق للحركة الصّهيونيّة والعدوان مسألة جوهرية وليست عارضة». ويقول: «ولن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل، ولا في أرض إسرائيل ولن يكون سلام للعرب أيضاً ما دمنا لم نحرر وطننا بأكمله حتى ولو وقّعنا مع العرب معاهدة صلح». ويقول أيضاً: «لا يمكن أن نشتري السّلامة من أعدائنا فهناك نوع واحد من السّلام يمكن أن يشترى، هو **سلام القبور**». ويقول ابن غوريون: «لا معنى لإسرائيل بدون القدس، ولا معنى

(١) حلمي علي مرزوق: قضايا الأمة العربيّة، تقديم محمد عبد المعز نصر، ص٣.
(٢) محمود السمرة: غربيون في بلادنا، ص٩١.

للقدس بدون الهيكل». ويقول موشي ديان: «ولقد عدنا واستولينا اليوم على القدس ولن نتخلى عنها، إن هذا أعظم يوم في التّاريخ اليهودي، اليوم القدس وغداً يثرب». ويقول شامير: «ربما يستطيع إقناعي بعد موتي لأن حدود إسرائيل يجب أن تعود إلى الوراء». ويقول هنري كيسنجر عن حقيقة السلام الذي تصنعه إسرائيل الآن: «الوقت لإسرائيل تفضّل السلام على طريقتها وبإسلوبها ومقصّها وسكّينها، وليس السلام مقابل السلام»[١]. وعلى الرغم مما بين الغرب واليهود من عداوة تراكمت عبر القرون[٢]، فإن هناك رأياً سائداً بأن المسألة الإسلاميّة

---

(١) هذه الأقوال مأخوذة من جريدة الرباط الأردنية، ٢١ ربيع الثاني ١٤١٢هـ، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٩١م.

(٢) أنيس منصور: حتى لا ينسى اليهود ما حدث قبل هذا، أخبار اليوم ١٢ يناير ١٩٧٤م، ص١٤، حيث قدم عرضاً رائعاً لكتاب هو: «Diaspora the Post Biblical History of the Jews» by Werner Keller الذي استعرض التّاريخ اليهودي منذ أقدم الأزمان إلى أحدث الأيام، ودرس أحداثاً كثيرة ذات دلالات خطيرة فيه، وأشار إلى وفد يهود أوروبا الذي تزعمه اليهودي المشهور «مُونتغيوري»، والمحامي الفرنسي «كريميه»، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء فرنسا مرتين، والمستشرق المعروف «مونك» الذين جاءوا إلى القاهرة عام ١٨٤٠م لمقابلة محمد علي، ثم سافروا إلى الآستانة لمقابلة السلطان عبد الحميد الأوّل، طالبين منهما العفو عن جريمة عدد من اليهود الذي قتلوا بطريقتهم الخاصة عدداً من المسيحيين الأبرياء في دمشق ورودس، ثم قاموا باستخراج فمهم لشربه في أحد أعيادهم المعتادة، ونجح الوفد فيما أراد فأفرج اليهود عن اليهود المعتقلين في دمشق، كما أفرج عبد الحميد الأوّل عن اليهود المعتقلين في ورودوس، و«عاد الوفد اليهودي في الشّرق لتحتفي به كل الهيئات الدّينية في أوروبا، وكان هذا الحادث بداية تماسك أوروبي يهودي» مما أدّى ذلك إلى أن أنشئ «الاتحاد الإسرائيلي العربي» عام ١٨٦٠م في فرنسا، و«الاتحاد الإنجليزي اليهودي» عام ١٨٧١م في إنجلترا، و«التحالف الإسرائيلي» عام ١٨٧٣م في النمسا و«العون اليهودي الألماني» عام ١٩٠١م في ألمانيا، وعلاوة على ذلك تناول المؤلف هجرات اليهود إلى البلاد المختلفة وإنشاء الكراسي في الجامعات الأوروبيّة لدراسة اللغة العبرية، كما تناول القرارات التي أصدرتها الحكومات الأوروبيّة ضد اليهود بما فيها قرارات «هتلر» الشهيرة التي أصدرها الزعيم النازي ما بين عام ١٩٣٣م وعام ١٩٤١م، وعلى الرغم من ذلك كله فقد ساعدت الدول الغربيّة بأسرها في إنشاء دولة إسرائيل، وأمدتها بالأسلحة لطرد العرب من وطنهم، وعندما انهزم العرب عام ١٩٦٧م «ظهرت ألوف الكتب تتحدث عن مجد إسرائيل وعبقرية كل من يمسك حجراً في الأرض المقدسة ويلقي به عربياً مسلحاً كان أو غير مسلح» وأثبت الواقع التّاريخي أن العالم لم يستيقظ من ظلمه ضد العرب إلا بعد أن قرّر العرب أنفسهم أن يوقظوه منه يوم ٦ أكتوبر =

بأفقيتها تختلف كلية عن المسألة اليهودية، فبينما لا يمكن لليهودية أن تلعب دوراً إيجابياً في العالم سواء في المستقبل القريب أو البعيد، يملك الإسلام أعداد قوة هائلة لاجتياح الغرب والشّرق معاً إيديولوجياً من جديد، ويمكنه أن يستعين بكل القوى التقدميّة التي تنشد الرّقي والتّطوّر الحقيقيين(١).

ومن هنا تعاونت نزعة التبشير مع الصهيونية لمواجهة المسلمين ويعترف بعضهم بهذه الحقيقة فيقول: «إننا إذا نظرنا إلى العالم لم نر مكاناً يمكن أن يصبح المسلمون فيه أقليّة إلا فلسطين والهند ومن أجل ذلك نرى المبشرين ينصبرون اليهود على المسلمين في فلسطين»(٢).

وقد أشار نجيب عازوري(٣) الكاثوليكي السوري إلى خطورة هذا الصراع في بداية هذا القرن قائلاً: «تبرز في هذه الآونة في تركيا الآسيوية ظاهرتان متناقضتان، على الرغم من وحدة طبيعتهما، وهما: يقظة الأمة العربيّة، وسعي اليهود الخفي لإعادة مُلك إسرائيل القديم على نطاق واسع، لقد كتب لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب الواحدة على الأخرى، وعلى نتيجة هذا الصراع الأخير يتوقف مصير العالم جميعه»(٤).

---

= عام ١٩٧٣م عندما عبروا، فيما نرى، بما قاموا به، من فترة تاريخية أخرى تنير لهم الطريق إلى الأمام، والتقدم والازدهار.

(١) آ. توينبي: الإسلام والغرب والمستقبل، ص٦٧ ـ ٧٣، حيث يرى أن الإسلام يمكن أن يلعب دوراً عظيماً في تقدّم العالم بأسره إذ يمكن أن يحرر الإنسان المعاصر من شروره العديد ويملأه الفراغ الروحي الذي يهدد العالم المعاصر.

(٢) د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ: المرجع السّابق، ص١٨٤.

(٣) من منطقة عازور في منطقة جزين، وهو مؤلف كتاب بالفرنسية: «يقظة الأمة العربيّة»، عام ١٩٠٥م.

**Le Reveil de la Nation arabe.**

(٤) راجع: ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ص٣٣٣، وقد لاحظ ألبرت حوراني أن عازوري لم يكن منسجماً مع نفسه حينما أوعز فيما بعد بأن إنشاء مصارف اليهود والمستعمرات كذلك في الأراضي العربيّة سوف يثمر بنتائج إيجابية فيما يتعلق بتقوية العروبة وتجربتها، ولكن يبدو لنا أن تقوية العروبة تكمن في تحديد مسارها الأيديولوجي وروحها الفكري ودورها التّاريخي، لأن الأساس الأيديولجي يحدد الإطار الاقتصادي وليس العكس كما يزعم «ماركس»، وراجع في هذا كذلك: جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ترجمة ناصر الدّين الأسد وإحسان عباس، ص١٧٢ وما بعدها.

من هنا أخذت الصهيونية تحارب كل ما هو إسلامي وعربي[1]، وتتعمق في دراستها محاولة بكل ما في وسعها أن تنفي أصالتهما وتشكك في دورهما التّاريخي والحضاري والعلمي على حد سواء، لكي تفسح لنفسها مجالاً أوسع، وميداناً أرحب لتحقق أضحوكتها المقدسة التي لعبت بعقول الغرب، ولا تزال تلعب بها، وتظن ظناً أنها سوف تلعب بعقول العرب أيضاً، فتضربهم في عقر دارهم أو تجعلهم عبيداً لها.

ومع ذلك كله فإن الواقع التّاريخي للأمة الإسلامية لا يتوقع للصهيونية مستقبلاً زاهراً، لأنها جسم غريب وُضع في غير تربته، ومهما طال وجوده فيها فلا بدّ له من نتيجة واحدة وهي إزالة ذلك الجسم الغريب من مكانه.

ولعل موقف الاستشراق كان أشد خطراً من ذلك كله، لأنّه الوحيد الذي يستطيع أن يرى الرؤية الموضوعية الواضحة، ويبرز الحقيقة التي لا يشوبها الشك، ولكنه لم يفعل ذلك بل تآمر مع الاستعمار والصهيونية في طمس الحقيقة، واشترك في هذه الجريمة التّاريخيّة ضد شعب لم يقدّم للإنسانية إلا الخير عبر التّاريخ.

صحيح أن هناك اختلافاً في الأهواء بين الباحثين الأوروبيين والصهاينة في أمر كان يجري بينهما على سنة الوفاق في أصول التّاريخ والعقائد أو سبق الشرائع وأصول الحضارات، لأنهم يعلمون جميعاً ما لجدوى السبّق والأصالة في آثار بعيدة في استلاب الحقوق أو تثبيت الادعاءات إلّا أنّ هذا التناقض أو الصّراع الخفي بين الاستعمار والصهيونية والاستشراق تخفّ حدّته على مائدة التآمر على الشّرق والأمة العربيّة بالذات[2].

وهكذا شارك الاستشراق ويشارك الآن[3] مشاركة فعّالة مع الصهيونية في

---

(١) حسن ظاظا: إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٣ وما بعدها.

(٢) حلمي علي مرزوق: المرجع السّابق، ص٨ ـ ٩.

(٣) راجع مقالاً بعنوان: «عصابة المافية الفكرية في المنطقة العربيّة» الذي أعده قسم الأبحاث، أمينة النقاش ومجدي عبد العزيز، التقارير والكتب التي تدرّس في الجامعات الأمريكيّة في العالم العربي وفي الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة بالذات التي تعتبر من قلاع الاستعمار الفكري مشيراً إلى كتاب المستشرق المعروف «مورو برجر»، «المجتمع العربي»، =

محاولة إسقاط الأمة العربيّة من مكانها التّاريخي ودورها العلمي وواقعها الحضاري، كما فعل الاستعمار والتبشير أيضاً وليس غريباً أن تكون هناك عداوة بين أمة وأخرى، ولكن «أن يتضافر على الأمة مثل هذا الثالوت فيشكك في حاضرها ويزيف ماضيها، فذلك هو الضياع أضيع من سقوط الأمة في موازين الواقع ثم في حساب الحضارة والتّاريخ»[١].

وقد وجد هؤلاء جميعاً لغة مشتركة في التآمر على الأمة الإسلامية، دينها وحضارتها وآدابها، وأسهم كل منهم في محاولة إنكار دورها المادي والمعنوي، ثم إسقاطها علمياً وأدبياً أمام العالم بأسره.

ومن هنا يجب علينا أن ندرس الصهيونية وما لها من علاقة بكل من الاستعمار والتبشير والاستشراق، إذ لا يمكننا مواجهتها إلا بعد أن نحيط بمعرفة وسائلها واتجاهاتها وأهدافها[٢].

وقد انزلق إلى هذا التزييف للتاريخ والواقع بعض تلاميذ الاستشراق من العرب فأقاموا الكتب وكتبوا الرسائل، وأثاروا الشكوك في ماضي العرب وحاضرهم، وأدرك الصهاينة ما لهذه الكتب من آثار عميقة على الباحثين وعامة المثقفين فعملوا على تشجيعها وترويجها واستخدموها في الدعاية لقضيتهم الباطلة[٣].

ولكن هذه الكتب قد أحدثت رد فعل شديد في المحيط العربي وانبرى للرد

---

= الذي يعد من أخطر الكتب الاستشراقيّة التي تهتم بالدفاع عن إسرائيل والصهيونية، الجمهورية ١١ يناير ١٩٧٣م، ص٣.

(١) حلمي علي مرزوق: المرجع السّابق، ص٣.

(٢) فتحي الأبياري: يجب أن تعرف عدوك، مجلة «آخر ساعة» ٦ فبراير ١٩٧٤م، ص١٨ ـ ١٩. حيث أكد د. حسن ظاظا، رئيس قسم الدراسات العبرية بجامعة الإسكندرية، العلاقة بين عدد من المستشرقين والصهيونية ومحاولاتها لاصطيادهم، ومنهم: «ولفنسون شادة برجستراسر، جويدي، كراوس، شاخت» وغيرهم، وتتلمذ عدد من الأساتذة العرب على أيديهم منهم: علي الضاني، مراد كامل، فؤاد حسين، محمد حمدي البكري، خليل يحيى نامق، وغيرهم، مما يدل دلالة قاطعة على العلاقة بين الاستشراق والصهيونية وضرورة دراستها لمواجهة نفاذ أثرهما معاً إلى الفكر العربي الإسلامي الحديث.

(٣) حلمي علي مرزوق: المرجع السّابق، ص٥٠.

عليها كثير من المخلصين لوطنهم ودينهم وحضارتهم وتاريخهم، وأمجاد أمتهم في ماضيها وحاضرها، واستطاعوا أن يحقوا الحق ويبطلوا الباطل ولو كره الصهاينة والمبشرون ومن تبعهم من تلامذتهم وأذنابهم.

وإذا كنا بحاجة إلى دليل آخر ما بين الاستشراق والصهيونية من علاقة فهيّا بنا نخطو بعض الخطوات الأخرى لنبرهن بها على ما ذهبنا إليه، لقد حصل «ميتيتيا هوبيليد» الجنرال الإسرائيلي، على الدكتوراه عام (١٩٧١م) موضوعها «عقيدتي: دراسة في أدب نجيب محفوظ» من جامعة كاليفورنيا بأمريكا بإشراف مستشرق له مكانة في الفكر العربي الحديث، وهو «جوستاف فون جروبناوم»، وتفاخر تلميذه الجنرال المذكور عام (١٩٧٢م) أمام جمع غفير من العرب في مدينة نابلس بأنه يعرف الفكر العربي الحديث أحسن مما يعرفونه هم، وأن له علاقة شخصية مع بعض أدباء العرب المعاصرين، ففوجئ العرب بهذا الخبر كما فوجئ الأديب نجيب محفوظ هو الآخر، إذ كان الجنرال الإسرائيلي يراسله عن طريق عنوانه في أمريكا لا في إسرائيل، فظن الأديب أنه يراسل باحثاً لا سفاكاً تخصص في قتل أشقائه بجانب تخصصه في الأدب العربي، ويكفي أن ينظر المرء إلى عنوان رسالته لكي يعرف ماذا أراد الجنرال الإسرائيلي أن يحصل عليه وإلى أي هدف كان يسعى.

وترجم «أبا إيبان» وزير خارجية إسرائيل، قصة «يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم إلى الإنكليزية عام (١٩٤٧م)، ونشرها بمقدمة حافظ عفيفي، السّياسي المصري القديم، ولسنا ضد الترجمة ولا ضد المقدمة، ولكن العنوان المترجم غير العنوان الأصلي، إذ تحوّل الأخير من «يوميات نائب في الأرياف» إلى «العدالة الحائرة» أو «حيرة العدالة»، ونشر «ساسون سومخ» أستاذ في جامعة تل أبيب، دراسته باللغة العربيّة بعنوان «دنيا نجيب محفوظ» قدّم لها بمقدمة نقدّية عن الأديب العربي الكبير، وأشار إلى أنه سيتناوله بدراسات أخرى في المستقبل القريب.

وليس في إمكاننا هنا أن نسير خطوة بخطوة مع رجاء النقاش الذي يؤكد لنا في دراسته الشيقة كالعادة السبب الرئيسي لاهتمام الإسرائيليين بالفكر العربي والثقافة العربيّة والأدب العربي، إذ «يهدفون إلى دراسة العرب وفهمهم فهماً دقيقاً حتى يعرفوا موضع القوة وموضع الضعف فيهم، وحتى يتمكنوا من مواجهة العرب

ورسم الخطط المناسبة لهذه المواجهة بناءً على فهم دقيق ومعرفة واسعة، وهذا هو الذي يفسر لنا اهتمام رجل عسكري مثل «ميتيتيا هوبيليد» بدراسة نجيب محفوظ كمدخل لفهم المجتمع المصري واكتشاف الإنسان في مصر، على أن الدراسة نفسها لا تخضع للمنهج الأدبي بل تعتمد أساساً على فهم العقيدة الدّينيّة والتفكير الاجتماعي عند نجيب محفوظ، فالباحث الإسرائيلي يهدف في الواقع إلى محاولة فهم المجتمع والإنسان في مصر من خلال أدب نجيب محفوظ، وكذلك فإن «أبا إيبان» عندما يختار ترجمة «يوميّات نائب في الأرياف» إنما يهدف إلى تقديم وثيقة عن الحياة الاجتماعية في مصر، ذلك أنّ «يوميات نائب في الأرياف» تكشف الكثير عن الواقع الاجتماعي في القرية المصرية، وهذا هو الهدف الأساسي من الجهود التي تبذلها إسرائيل لترجمة الأدب العربي والفكر العربي إلى العبرية والإنكليزية، إنّ الهدف هو فهم المجتمع العربي والإنسان العربي، ويمكن أن نسمّي هذه الجهود الإسرائيلية كلّها باسم «الحرب الثقافية ضد العرب» وهي الحرب التي تساند الحرب العسكرية وتمهد لها، ولعل مما يلفت النظر أن كثيرين من المستشرقين الذين قاموا بدراسة الأدب العربي القديم والحديث هم اليهود، مثل: «ليفي بروفنسال، وبول كراوس، وإسرائيل، ولفنسون» وغيرهم، إن هذه الظاهرة تعني أن اليهود يصرون على تسليح أنفسهم بفهم واضح للعرب من خلال أدبهم وثقافتهم وفكرهم، وذلك قبل مواجهتهم في الميادين العسكرية أو الاقتصادية. . .» إلخ[1].

مما يدل من جديد على ما بين الاستشراق والصهيونية من علاقة بينة وصلة وثيقة، وهل لنا بعد هذا أن نذهب بعيداً من أسماء المستشرقين اليهود اللامعة مثل: «برلين، ودور كايم، وجولدزيهر، ومرغليوث، وبرنارد لويس، وررودنسون» وغيرهم، وقد كان أغلبهم أساتذة لعدد من أعضاء البعثات العربيّة إلى الجامعات

(١) رجاء النقاش: «أضواء على الحرب الثقافية»، لماذا يدرّسون توفيق الحكيم ونجيب محفوظ في إسرائيل؟ مجلة المصور، ٢٧ ديسمبر ١٩٧٣م، ص٣٩، وعلاوة على ما أشير إليه هنا، فقد تناول دراسة قام بها «جبرائيل باير» أستاذ تاريخ الشعوب الإسلاميّة عن الثقافية الملكية الزراعية في مصر الحديثة، حيث اعترف قائلاً: «بعض الإسرائيليين يتابعون دراساتهم للغة العربيّة والثقافة العربيّة ليعرفوا العدو معرفة أدق» ألم يكفينا هذا؟ بلى!.

الغربيّة، مثل: «طه حسين، ومنصور فهمي، وزكي مبارك، ومحمود عزمي»، وغيرهم.

وعلاوة على ذلك كله فإن الفكر اليهودي تأثر بالفكر الإسلامي، حتى ليمكن القول بكل التأكيد بأن الفكر اليهودي لم يستطع أن يعيش طيلة حياته إلا على عاتق الفكر الإسلامي، فهو متأثر به كل التأثر على الرغم من أن هذه التأثير لم يدرس حتى الآن دراسة شاملة، وإن ظهرت أخيراً دراسات قيمة في هذا الميدان ما يفتح الطريق للمتطلّعين إلى الأمام[1].

**➢ الخاتمة:**

وبعد؛ فهذا بحث عن المشرقيّات تتبعت من خلاله نماذج عن الظّاهرة الاستشراقيّة، للمنظور الفكري الغربي عامّة، والاستعماري والتّبشيري والصّهيوني خاصة، وموقع كلّ منهم في الفكر الإسلامي الحديث، وكيفية تحليله وتبيانه على حقيقة صُورته وتقديمه لبعض المفاتيح التي تفتح السبيل أمام أعين شبابنا الصّاعد

(١) علي سامر النشّار وعباس أحمد الشربيني: الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلاميّة، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٢م، حيث تناول صاحباه دراسة الفكر الفلسفي اليهودي ونشأته، اتجاهات المستشرق، فبدأ في دراسة الفكر اليهودي، التفكير الدّيني في العصر الوسيط، الفترة اليهودية العربيّة، فلاسفة اليهود وتأثرهم بالفكر الإسلامي، مؤكدين بالبراهين القاطعة على اعتماد اليهود على الفكر الإسلامي كليّة خلال تاريخهم منذ أن ظهر الإسلام إلى الآن، إبراهيم موسى هنداوي، الأثر العربي مع الفكر اليهودي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م، حيث تناول بإسهاب كبير النمو العبري وتأثره بالنمو العربي، الأدب العبري الحديث، وتأثره بالأدب العربي، الفلسفة اليهوديّة وتأثرها بالفلسفة الإسلاميّة، علوم العرب الطبيعيّة وأثرها في الفكر اليهودي، وأخيراً الترجمة من العربيّة إلى العبرية وأثرها في تقدم الفكر اليهودي وتطوّره. «غوستاف لوبون»: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٠م، حيث بحث في البيئة والعرق والتّاريخ، ثم نصيب اليهود في تاريخ الحضارة، تاريخ اليهود، نظم العبريين وطبائعهم وعاداتهم دين إسرائيل. وأخيراً الآداب العبرية، مقرراً منذ البداية أنه لم يكن لليهود فن ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في تشييد المعارف البشرية، واليهود لم يتجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ»، إذن، فهل نحتاج إلى أدلة أخرى؟ كلا!.

في عمق وتدبّر، لدراسة هذه الظّاهرة الاستشراقيّة في أبعادها. ومن أهم هذا كلّه الاعتماد على الأصالة المنهجيّة، والموضوعية العلميّة، لكي نتمكن من الإحاطة بالتغيرات السيّاسيّة والجغرافيّة والحضارية والعمرانية التي تجتازها مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة والاستفادة منها والعبور بها إلى فهم أعمق يوضح مسار هذه الظاهرة، لاعتبار أن مشكلة كل ظاهرة في وجودها نابعة من أمتها ووجودها، وكيفية قيامها وتطوّرها ونهايتها، وسرعان ما تتغيّر وتتبدّل وتتحوّر، وتتطوّر ثم تزول وتندثر.

لذلك فهذه هي الخطوط العريضة لبناء الظاهرة الاستشراقيّة التي عرفنا من خلالها القيمة الفكريّة وأثرها على النّفس الإنسانيّة وارتباطها بالعقيدة الإسلاميّة، وانسيابها معها لتشمل كل الأساليب والأنظمة المنبثقة عنها، وامتدادها بعد ذلك لتهيمن على الظاهر والباطن. وإن هذه هي الخطوط العريضة والقواعد الكبرى لتلك الظاهرة كما استنتجتها من تلك الدراسة المستفيضة، فإن كنت قد وفيت في توضيح هذه الظاهرة بعض حقها فذلك إنما كان بفضل الله تعالى ومنته، وإن كان فاتني بعض ما ينبغي الحديث عنه... فإنه مما يغفر لي أنها محاولة لصياغة هذه الظاهرة، وهذه المحاولة هي الخطوة الأولى على طريق البحث المستنير، حيث اقتصرت على الكليات الثلاث (الاستعمار، والتبشير، والصهيونية) في هذا البحث المتواضع، ولم أخض في متاهات الجزئيات، لأن هذه الجزئيات لها أصول يرجع إليها. أما ما هو خارج عنها، فذلك ما أرجو أن ييسر الله لي في المستقبل القريب الوقت الكافي لإتمام البقية الباقية.

# الفصل الرابع

# دور القوى التبشيرية والاستعمارية والصهيونية في تهويد فلسطين

# الفصل الرابع

## دور القوى التبشيرية والاستعمارية والصهيونية في تهويد فلسطين

إن القضية الفلسطينية تعتبر من أهم القضايا العربية الإسلامية الحديثة والمعاصرة، وفلسطين بجذورها التاريخية تتألف من عناصر سامية عربية توطنت فيها ابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد عندما نزحت شعوب شبه الجزيرة العربية إلى أرض كنعان وإلى فينيقيا وإلى ما عرف باسم السواحل السورية أو الشامية. فالعنصر العربي السامي عنصر أصيل في فلسطين يعود بتاريخه إلى خمسة آلاف عام على الأقل. وقد شهدت فلسطين والمناطق العربية وجود مختلف الأديان على مر التاريخ مثل:

١ ـ اليهودية.

٢ ـ النصرانية.

٣ ـ الإسلام.

غير أن هذه العناصر مجتمعة تمثل عناصر عربية مستوطنة في الوطن العربي ولم يكن لها علاقة بالمسيحيين الغربيين أو باليهود الغربيين الذين بدأوا يتدفقون على المنطقة بسبب عوامل عسكرية وسياسية واضطهادات لحقت بهم في تلك الدول الغربية الأمر الذي شجع الكثير من اليهود والمسيحيين للمجيء إلى الولايات العربية التي كانت تتمتع بحكم إسلامي يظلل الجميع بعدالته ونظامه.

لقد تبين أن الكثير من اليهود بدأوا يفدون إلى الولايات العربية نتيجة الاضطرابات التي مورست بحقهم في دول غربي أوروبا، وفيما بعد دول شرقي أوروبا، بل إن العهد الأيوبي لا سيما في عهد صلاح الدين رحب بالعديد من الموجات اليهودية القادمة من غرب أوروبا، وتباعاً فإن الدولة العثمانية لم تر مانعاً من استقبال موجات مهاجرة من اليهود على أن تمثل هذه الموجات رعايا عثمانيين خاضعين لقوانين وأنظمة الدولة العثمانية، وقد عاش اليهود كسواهم في ظل العدالة الإسلامية.

لقد بدأت الأطماع اليهودية ترتبط بفلسطين منذ أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عندما وجه نابليون بونابرت حملته الشهيرة إلى مصر وبلاد الشام، حيث أعطى «وعد نابليون» اليهود حق العودة إلى فلسطين، وقد تضمن نداء نابليون بونبارت إلى الفرنسيين والأوروبيين وإلى اليهود المطالبة بالدعم والمؤازرة لعودة أورشليم إلى العنصر اليهودي لذلك عندما وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر وبلاد الشام عام (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩م) وقفت الأسر اليهودية وفي مقدمتها: أسرة فارحي إلى جانب نابليون بونابرت، لأن هذه المؤازرة مرتبطة بإنشاء كيان لليهود في القدس الشريف.

ونظراً لفشل الحملة الفرنسية وعدم بقائها في مصر أو في عكا نجد أن الأماني اليهودية لم تتحقق آنذاك.

في عام (١٨٠٥م) وبعد أن تولى محمد علي باشا حكم مصر، حاول اليهود سواء في مصر أو في فلسطين مضاعفة نفوذهم مقابل دعم الدولة المصرية، غير أن محمد علي باشا رفض رفضاً قاطعاً هذه المحاولات اليهودية، بل نرى أن القنصل البريطاني في فلسطين يحاول منذ منتصف القرن التاسع عشر أن يدعم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأن يكون لليهود في فلسطين كيان مستقل يلبي طموحاتهم وتطلعاتهم، غير أن الدولة العثمانية كانت ترفض باستمرار أن يكون للعناصر الدينية أو القومية استقلال عن الدولة.

في عام (١٨٦١م) نشأت متصرفية جبل لبنان في ظل حماية دولية مؤلفة من فرنسا وإنكلترا وروسيا، والنمسا وبروسيا فضلاً عن قوة عسكرية فرنسية على الأرض اللبنانية، وكان هذا النظام يعتبر أول حركة انفصالية بموافقة الدولة العثمانية وبفرمان سلطاني عثماني، وفي ظل الضعف والتقهقر العثماني نشأ هذا الوضع وهذا الشكل الانفصالي (المشرَّع) عثمانياً ودولياً مما فتح أعين الزعماء الصهيونيين قبل تيودور هرتزل، ومن بين هؤلاء الزعيم الصهيوني لرونس أولفنت (Oliphant) الذي حرص أن يزور شخصياً متصرفية جبل لبنان بعد إنشائها بسنوات، فاطلع على أحوالها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية وطالب مع زعماء صهيونيين آخرين بأن يحصل اليهود على متصرفية يهودية في فلسطين تماثل متصرفية جبل لبنان، وقد أشار إلى ذلك في كتاب «متنزهات في جبل لبنان».

وفي الفترة ذاتها كان يحدث في مكان آخر تطورات إقليمية على غاية من الأهمية، يأتي في مقدمتها مبادرة رئيس وزراء بريطانيا اليهودي الأصل دزرائيلي للمسارعة إلى شراء أسهم قناة السويس عندما طرحت هذه الأسهم للبيع نتيجة الضائقة المالية في مصر، وذلك حتى تكون بريطانيا واليهود على قرب من شبه جزيرة سيناء ومن فلسطين.

وبالفعل فقد استطاعت بريطانيا واليهود من شراء هذه الأسهم التي قدرت آنذاك بـ (٤) ملايين جنيه استرليني، بل أكثر من ذلك، فإن عام (١٨٨٢م) شهد احتلالاً عسكرياً بريطانياً لأهم ولاية عثمانية هي ولاية مصر.

إن الحركة الصهيونية اليهودية بالتعاون مع القوى الغربية كانت تعتمد بشكل أساسي للوصول إلى غاياتها البعيدة على:

١ ـ المال كعصب قوي يخدم أهداف الصهيونية والغرب الاستعماري.

٢ ـ الإعلام كوسيلة لبث الأفكار الصهيونية ولبث الأهداف والغايات اليهودية.

٣ ـ التمتع بالمثابرة والمصابرة للوصول إلى الهدف دون ملل أو كلل.

٤ ـ التعاون مع مختلف القوى لتنفيذ غاياتها وأهدافها.

## ➢ ١ ـ ولادة الحركة الصهيونية في (بال) في سويسرا (١٨٩٧م):

نتيجةً لجهود يهودية من زعامات وقيادات منتشرة في أوروبا الغربية والشرقية على السواء، فقد تبلورت فكرة تأسيس حركة صهيونية للمطالبة بإنشاء وطن قوميّ لليهود خاصّة بعد الاضطهاد الذي شهده اليهود في أوروبا الشرقية وفي بعض بلدان أوروبا الغربية، ولا بدّ من التوضيح بأن هذا الاضطهاد لم يكن اضطهاداً دينياً أو قومياً أو عنصرياً أو سامياً (Antisemitisme) بل كان سببه مواقف اليهود المتآمرة على الأوروبيين وبسبب استغلالهم المالي والاقتصادي لكثير من رجال الأعمال والشعوب الأوروبيّة، وبما أنّ اليهود هم مصادفة من العنصر الساميّ كالعرب، فقد ادعى اليهود بأنّهم يتعرّضون للاضطهاد لأنّهم من العنصر السامي، وبما أنه لا يوجد في أوروبا عناصر ساميّة إلّا اليهود، فقد ارتبط اضطهاد اليهود باضطهاد العنصر السامي، وهو ما اصْطُلِح على تسميته باسم (اللاساميّة) (Anti-semitisme).

انطلاقاً من هذا الواقع اليهودي في أوروبا وهو واقع سياسي بالدرجة

الأولى، فقد بدأت الصحف اليهوديّة توظّف الواقع اليهودي لمآرِب لها علاقة مباشرة بإنشاء الوطن القومي اليهودي. وكان في مقدّمة هؤلاء الصحفي النمساوي «تيودور هرتزل» الذي كان يملك صحيفة تصدر بالألمانية هي صحيفة العالم (Die Welt)، وابتدأ هذا الزّعيم الصهيوني بالدّعوة لعقد المؤتمر الصهيوني الأوّل في (بال) في سويسرا في صيف عام (١٨٩٧م). وقد جمع هذا المؤتمر الكثير من زعماء اليهود في العالم وأهم القرارات المتخذة فيه:

ضرورة إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين الذي أطلقوا عليها زوراً وبهتاناً (الأرض الموعودة).

لقد صاحب هذا المؤتمر اتصالات دولية لتسويق قرارات وتوصيات الحركة الصهيونية فقام «هرتزل» وعلى مدار سنوات بالاتصال مع المسؤولين في: الدّولة العثمانية، بريطانيا، ألمانيا، إيطاليا، فرنسا، البابا، وسواهم الكثير. وحاول «هرتزل» تسويق مشروعه بإقناع أوروبا بأنّ الدولة اليهودية في فلسطين ستكون جسراً لتلك الدّول في المشرق العربي. وفي عام (١٨٩٨م) وكصحافي، طلب هرتزل لقاء مع السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م)، وقد فوجئ السلطان في هذا اللقاء بأن «هرتزل» يطالب بمساعدة اليهود بإنشاء «كانتون» يهودي في فلسطين، وأنّ اليهود في العالم على استعداد لدفع خمسين مليون ليرة ذهبية لإنقاذ الدّولة العثمانية من ديونها وأزمتها الاقتصادية. فما كان من السلطان العثماني إلَّا أن غَضِبَ وطَرَد الصحافي النمساوي وحاخام اليهود في استامبول قائلاً: «إنّي لا أستطيع أن أبيع جزءاً من فلسطين أو من الأراضي المُقدّسة ولا أي جزء في الإمبراطورية العثمانية، لأنها ليست مُلك يميني، بل مُلك شعبي، إنْ شعبي حرَّر هذه البلاد واستشهد الكثير من أجلها، فليذهب اليهود بملايينهم، وإن أرادوا العيش في بلادي كرعايا عثمانيين فإنّ باستطاعتهم الإقامة في هذه البلاد، ولن يستطيعوا امتلاك هذه البلاد إلّا على أجسادنا...».

إنّ هذا الموقف العثماني يُمَثّل صفحة بيضاء في تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني وفي تاريخ الدولة العثمانية. وقدَ دفع السلطان فيما بعد لقاء هذا الموقف عَرْشَه ونفوذه. ولقد أشار «تيودور هرتزل» في مُذكراته متمنيّاً لو أن انقلاباً يخلع السلطان عن عرشه أو يتمّ اغتياله للتخلص منه لتحقيق الحُلُم اليهودي في الأراضي المقدسة، ولكن هذا الموقف العثماني لا يعني مطلقاً أنّ الملل أو

اليأس أصاب «تيودور هرتزل» أو قادة الحركة الصيهونية، بل على العكس فقد استمرّ هرتزل في مساعيه لتحقيق ما قرَّرته الحركة الصهيونية.

إنّ ما تميّزت به الحركة الصهيونيّة من وجود مال وإعلام وتصميم جعلت تيودور هرتزل يرفض عروضاً دولية بديلة عن فلسطين فقد عُرِضت عليه أماكن كثيرة لإقامة دولة يهودية في غير فلسطين منها: الأرجنتين، أوغندا، قبرص، شبه جزيرة سيناء وسواها، غير أنه رفضها واستمر في مساعيه وتصميمه لتحقيق إقامة دولة يهوديّة في فلسطين. ومما أشار إليه في عام (١٨٩٨م) ما يلي:

إن إقامة دولة يهودية سيتحقق بعد خمس سنوات، وعلى الأكثر فإنّه سيتحقق بعد خمسين سنة. وبالفعل فقد تحقق الحُلُم اليهودي في عام (١٩٤٨م). وفي أيّار (مايو) عام (١٩٠٤م) تُوفّي «تيودور هرتزل» وبوفاته طُوِيت صفحة نشيطة من نشاط الحركة الصهيونيّة. ولكن جاء من بعده قادة يهود لم يكونوا أقل نشاطاً منه. نذكر منهم على سبيل المثال: حاييم وايزمن، ودايفيد بن غورون، غولدا مائير، ومناحيم بيغن، وسواهم الكثير.

لقد كان لردود الفعل العربية منذ أوائل القرن التاسع عشر أثر واضح في القرارات العثمانية حيث رفض العرب في صحفهم في بيروت والقاهرة، ودمشق وبغداد الاستيطان اليهودي في فلسطين، وكانت الدولة العثمانية يَهُمُّها تلبية مطالب العرب فضلاً عن تخوفها من الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فأصدر السلطان العثماني عدّة فرمانات سلطانية يمنع فيها المهاجرين اليهود من الدخول إلى فلسطين. وقد سُمِحَ لهم بالدخول فقط كحجاج لزيارة الأراضي المقدَّسة لمدة شهر، وعلى الأكثر لمدُّة ثلاثة شهور. ولكن تميّزت الزيارات الدينية لليهود بالتسرُّب غير الشرعي إلى داخل الأحياء اليهودية في فلسطين والهرب من الشرطة العثمانية أو دفع الرشاوى لبعض العسكريين. ومهما يكن من أمر، فقد دعا السَّيِّد مُحَمَّد رشيد رضا في صحيفة المنار الصّادرة في القاهرة عام (١٨٩٨م) إلى عقد مؤتمر عربيّ وإسلاميّ لمواجهة أخطار الحركة الصهيونية.

من الأهمة بمكان، القول بأن الحركة الصهيونية لم تكن قادرة على تحقيق

أهدافها لولا مساعدة الدول الاستعمارية لها، لأنها كانت أداة وجسر عبور لهذا الاستعمار الغربي في المشرق العربي بالإضافة إلى أن أوروبا كانت تسعى باستمرار للتخلّص من اليهود ومن مشكلاتهم ومن فسادهم في المجتمعات الأوروبية. لذلك تمّ الوفاق بين الحركة الصهيونية والحركة الاستعمارية. ففي عام (١٩٠٧م) عُقِدَ في لندن (مؤتمر كامبل بانرمان) شارك فيه جميع الدول الأوروبية ملوكاً ورؤساء ووزراء مع مستشارين واختصاصيين في التاريخ والجغرافية وعلم النفس والنفط والاقتصاد والسياسة والقانون وسوى ذلك. وبحث المؤتمرون في قضية واحدة أساسيّة مستقبل العالم العربي بعد انهيار الدّولة العثمانية، وخطورة هذا العالم على أوروبا. لقد رأى المؤتمرون أنّ العالم العربي سيكون بعد عِدّة سنوات قُوَّة بشريْة تتعاظم مع مرور السنين تجمع ملايين البشر ويعيشون في منطقة غنيّة بالإمكانيات الاقتصادية والبشرية والمواد الخام بما فيها النفط. من أجل ذلك رأى المؤتمرون إيجاد وسائل لمنع تفاقم أخطار العرب، ولمنع استمرار وِحْدَتِهم وَقُوَّتِهم، قرَّر المؤتمرون السعي بجدية لإقامة دولة غريبة في المنطقة تعرف باسم (الدولة الحاجز ـ Puffer State) التي تَشْطُر وتقسم المشرق العربي عن المغرب العربي على أن تكون هذه الدّولة جسراً لأوروبا.

ومما يلاحظ بأنّ الدّول الاستعمارية الأوروبية وَعَتْ منذ فترة مُبّكرة أهمية تفتيت العالم العربي بإنشاء دولة وجسم غريب في المنطقة يعمل باستمرار على تقسيمها وتفتيتها وإضعافها عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، لذلك كان التعاون المثمر والجدّي بين الحركة الصهيونية ودول الاستعمار الغربي.

لم تكتفِ دول الغرب الاستعماري بمقررات مؤتمر لندن، بل تعاونت في الوقت نفسه مع الحركة الصهيونية ومع الماسونية ومع الدونمة (اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ظاهراً وبقوا على يهوديتهم سراً) ورجالات جمعية الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة المتعصبّة ضد كل عربي، فعملوا جميعاً على إحداث ثورة انقلابية ضد السلطان عبد الحميد الثاني حيث أجبروا مفتي الإسلام محمد ضياء الدين على إصدار فتوى شرعية بخلع السلطان عبد الحميد عن العرش في ٢٣ نيسان (أبريل) (١٩٠٩م)، وذلك جراء مواقف السلطان الرافضة تحقيق الحُلُم اليهودي في فلسطين.

## ➢ ٢ ـ تطوّرات القضية الفلسطينة (١٩١٣ ـ ١٩١٨م):

يعتبر عام ١٩١٣ عاماً مهمّاً في تاريخ القضية العربية وفي تاريخ الولايات العثمانية العربية، وفي تاريخ القضية الفلسطينية. فبعد أن اتفق أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية على عقد أول مؤتمر عربي في باريس في حزيران (يونيه) من عام (١٩١٣م) شارك في هذا المؤتمر قيادات عربية من بيروت والمناطق اللبنانية أمثال: عبد الغني العريسي، الشيخ أحمد طبارة، أحمد مختار بيهم، سليم علي سلام، خليل زينية، ميشال سرسق. كما شارك في المؤتمر قيادات عربية أخرى مثل: عبد الحميد الزهراوي (سوريا)، عوني عبد الهادي (فلسطين)، وآخرون من العراق ومصر وشرقي الأردن، ومن بلاد الاغتراب، وقد اجتمع الجميع في باريس في منتصف حزيران (يونيه) (١٩١٣م) لمعالجة القضايا التالية:

١ ـ إصلاح الولايات العربية على مختلف الصعد.

٢ ـ المطالبة باعتماد اللامركزية.

٣ ـ جعل اللغة العربية لغة رسمية في الدولة إلى جانب اللغة العثمانية.

٤ ـ مناقشة مشكلة الهجرة اليهودية إلى فلسطين وهجرة العرب السوريين إلى خارج بلادهم.

وبالفعل فقد عقد المؤتمر برئاسة عبد الحميد الزهراوي ونوقشت هذه القضايا مع قضايا أخرى عديدة، وأُلقيت الخطب المتعددة حولها باللغتين العربية والفرنسية.

والأمر اللافت للنظر أن الحركة الصهيونية كعادتها كانت تستغل جميع المؤتمرات الإقليمية والدولية في محاولة منها لكسب وتأييد المشاركين في المؤتمر، كما حدث في مؤتمر كامبل بانرمن، وها هي الزعامات الصهيونية تجتمع مع القيادات العربية للحصول على تأييدها والسماح لها بالهجرة اليهودية إلى فلسطين خاصة والبلاد السورية عامة، وتبين لهذه الزعامات الصهيونية بأن القيادات العربية رفضت رفضاً قاطعاً الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لأن البلاد السورية تعاني مشكلات اقتصادية وتعاني من هجرة أبنائها إلى الخارج فضلاً من أن الشعب العربي لا يمكن أن يقبل بإحلال اليهود مكان الفلسطينيين، وانتهى الأمر في المؤتمر العربي الأول في باريس (١٩١٣م) عند هذا الحد.

وفي الفترة الممتدة بين أعوام (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) حدثت تطورات هامة كان لها أثر بارز على القضية الفلسطينية وعلى البلاد السورية بشكل عام، من بين هذه التطورات:

١ ـ اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م).

٢ ـ وقوف القوميين الأتراك ضد القوميين العرب.

٣ ـ مراسلات الحسين ـ ماكماهون السرية.

٤ ـ اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية.

٥ ـ إصدار بريطانيا وعد بلفور المتضمن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

٦ ـ هزيمة الدولة العثمانية (١٩١٨م).

ويلاحظ من خلال القضايا والأمور السابقة كما كانت المؤامرات والتطورات مؤثرة جداً على فلسطين وعلى البلاد السورية عامة. لقد أعدم جمال باشا في بيروت ودمشق بين عامي (١٩١٥ ـ ١٩١٦م) كل من كان له علاقة بالعروبة وبالقومية العربية وكل من طالب بالاستقلال، كما أعدم في الوقت ذاته كل من ثبت أنه اتصل بالفرنسيين أو بالإنكليز. مما أثار حفيظة الشعب العربي والشريف حسين الذي طالب بوقف حركة الإعدامات. من جهة ثانية نجد أنه في فترة الحرب العالمية الأولى بدأت مراسلات الحسين ـ مكماهون حول مستقبل فلسطين والبلاد السورية. ويلاحظ الدارس أن الدبلوماسية البريطانية كانت تخدع باستمرار العرب للوقوف إلى جانب القوات البريطانية والحلفاء في فترة الحرب، بالإضافة إلى ذلك ففي الوقت الذي كانت القوات العربية تهاجم القوات العثمانية وتدعم جيوش الحلفاء في حربها كان الإنكليز والفرنسيون يعتمدون اتفاقية سرية لتقسيم البلاد السورية بما فيها العراق بينهما، وهي التي عرفت باسم اتفاقية سايكس ـ بيكو.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) (١٩١٧م) وبعد قيام الثورة الشيوعية البلشفية المناوئة للرأسمالية كشفت الحكومة الشيوعية أسرار اتفاقية سايكس ـ بيكو وحذرت العرب من الوقوف إلى جانب بريطانيا وفرنسا، وقد حاول الشريف حسين الاستفسار عمّا صرح به الروس، فقامت بريطانيا مجدداً بنفي ما صرح به مؤكدة على مساعدة العرب في الحرية والاستقلال، ومما يؤسف له أن الشريف حسين صدق الادعاءات البريطانية.

وفي الوقت ذاته أصدرت بريطانيا وعد بلفور وهو تصريح وزير الخارجية البريطانية إلى الزعيم الصهيوني روتشيلد يؤكد فيه أن بريطانيا تدعم إقامة دولة يهودية في فلسطين، ومما يلاحظ بأن التصريح البريطاني تصرّف بفلسطين وكأنها «أرض بلا شعب لشعب بلا وطن» خلافاً للحقيقة وللواقع.

وبالرغم من جميع هذه المؤامرات واضحة المعالم فقد استمرت القوى العربية، وفي مقدمتها الشريف حسين تقف موالية لدول الحلفاء ظناً منها بأن فرنسا وإنكلترا ستحققان حرية واستقلال بل ووحدة العرب.

انتهت الحرب العالمية الأولى (١٩١٨م) ودخلت القوات البريطانية والفرنسية إلى لبنان وفلسطين وشرقي الأردن والعراق ودخلت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل بن الشريف حسين مع القائد اللنبي إلى دمشق في أيلول (سبتمبر) عام (١٩١٨م).

ولم تستطع فرنسا السيطرة على سورية عام (١٩١٨م) بل احتلتها عام (١٩٢٠م). عينت بريطانيا أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين من اليهود البريطانيين هو: هربرت صموئيل لتنفيذ وعد بلفور ولتسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وبالفعل فقد رأينا أن فرقة يهودية كانت تعمل مع الجيش البريطاني في فلسطين سخر عملها مع عمل القوات البريطانية لتهويد فلسطين في الفترة الممتدة بين أعوام (١٩١٨ ـ ١٩٤٨م).

شهدت القضية الفلسطينية والقضية السورية تطورات مهمة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. فلقد ظنَّ الشريف حسين بأنَّ الحلفاء سيفون بعهودهم لإعطائه ملكاً عربياً مع ابنيه الأمير فيصل والأمير عبد الله (الملك عبد الله فيما بعد).

وتولى الأمير فيصل بن الشريف حسين حكم سوريا، وأنشأ في دمشق الحكومة العربية الأولى التي شارك فيها جميع أبناء الأمة السورية (لبنان ـ العراق ـ سوريا)، وفي شرقي الأردن تولى الإمارة فيها الأمير عبد الله. في الوقت الذي لم تبادر فرنسا إلى تعيين لبناني مسؤولاً على لبنان فعينت مفوضاً سامياً عليه، كما أنّ بريطانيا لم تعين في فلسطين مسؤولاً فلسطينياً عليها، وهكذا في الفترة الانتقالية في العراق غير أن سقوط الحكم الفيصلي في دمشق ٢٤ تموز (يوليه) (١٩٢٠م) مهد للأمير فيصل أن يتولى حكم العراق بعد سنوات قليلة بقرار بريطاني.

في كانون الثاني (يناير) من عام (١٩١٩م) عُقد مؤتمر فرساي في باريس لبحث نتائج هزيمة الدولة العثمانية وألمانيا والنمسا ولبحث مستقبل البلاد العربية وفي مقدمتها البلاد السورية.

وكالعادة فقد تحركت الحركة الصهيونية ممثلة بالزعيم الصهيوني وايزمن الذي التقى في باريس مع القيادات البريطانية والفرنسية والأمريكية والإيطالية واليابانية فضلاً عن لقائه مع الأمير فيصل بن الشريف حسين. وكان محور هذه اللقاءات إقناع هذه القيادات بضرورة إقامة دولة يهودية في فلسطين، وكانت مباحثات الزعيم الصهيوني مشجعة إلى حدٍّ ما.

كما التقى الزعيم الصهيوني بالبطريرك الماروني إلياس الحويك الذي كان في باريس على رأس وفد ماروني للمطالبة بفصل لبنان عن سوريا تحت الانتداب الفرنسي، غير أن البطريرك لم يستطع أن يقدم أي وعد لحاييم وايزمن.

ولقد تبين بأن مؤتمر فرساي (١٩١٩م) لم يتوصل إلى نتائج حاسمة حول مستقبل فلسطين والبلاد السورية، لذا وباقتراح من رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت وبالاتفاق مع الرئيس الأمريكي تم تدويل القضية السورية بإرسال لجنة كينغ كرين الأمريكية لتقصي الحقائق في فلسطين والبلاد السورية، وقد وصلت اللجنة بالفعل إلى فلسطين والبلاد السورية في حزيران (يونيه) (١٩١٩م)، وجالت في مدن فلسطين وشرقي الأردن وسوريا ولبنان، وانتهت إلى وضع تقرير قدمته للرئيس الأمريكي ويلسون، يتضمن صفحات عديدة تتلخص في أنَّ غالبية البلاد السورية تطالب بما يلي:

١ ـ حرية واستقلال ووحدة البلاد السورية.

٢ ـ رفض إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

٣ ـ لا مانع من التعاون مع الدولة الأجنبية كدولٍ تستشار في الأمور الفنية على أن يدفع السوريون كلفة هذه الاستشارات. ومما يؤسف له أن تقرير اللجنة لم يؤخذ به لأن الرئيس الأمريكي ولسن لم يُجدد له للرئاسة الأمريكية.

ارتبطت القضية الفلسطينية بالقضية السورية ارتباطاً وثيقاً، وبما أنَّ الوحدة السورية كانت الشغل الشاغل للسوريين برئاسة الأمير فيصل بن الشريف حسين، فقد تداعت القوى السورية السياسية الفاعلة (لبنان ـ سورية ـ فلسطين ـ شرقي

الأردن ـ العراق)، وعقدت فيما بينها المؤتمر السوري العام في آذار (مارس) (١٩٢٠م) في دمشق، وفي هذا المؤتمر صدرت قرارات أساسية وحاسمة يأتي في مقدمتها:

١ ـ إعلان الأمير فيصل ملكاً على البلاد السورية.

٢ ـ التأكيد على وحدة وحرية واستقلال البلاد السورية.

٣ ـ رفض مزاعم الحركة الصهيونية، ورفض إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين.

غير أن القوى المعادية للسوريين وللعرب رفضت هذه القرارات، وتلك القوى المعادية هي:

١ ـ فرنسا.

٢ ـ إنكلترا.

٣ ـ الحركة الصهيونية.

٤ ـ بعض القوى المحلية المعادية.

وهكذا يلاحظ بأن الثلاثي الاستعماري شعر أن تلك القرارات تتناقض مع أطماعه في فلسطين والبلاد السورية عامة، لذا تعاونت القوى الثلاث لفرض حقائق جديدة في البلاد السورية، وهذه الحقائق والوقائع إنما تتمثل بإجراءات يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ اجتمعت دول الحلفاء في أيار (مايو) (١٩٢٠م) في مؤتمر سان ريمو في إيطاليا لتؤكد تنفيذ اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية الهادفة إلى تقسيم البلاد السورية بين فرنسا وإنكلترا وأن لا عودة للوحدة السورية.

٢ ـ في ٢٤ تموز (يوليه) (١٩٢٠م) هاجمت القوات الفرنسية الجيش العربي في منطقة ميسلون فضلاً عن هجمات الطائرات الفرنسية لدمشق، وقد حققت القوى الاستعمارية انتصاراً على الجيش العربي معلنة فشل المشروع الوحدوي الذي طرح في المؤتمر السوري العام.

٣ ـ تأكيداً لتقطيع أوصال ووحدة البلاد السورية فقد أعلن الجنرال غورو في أول أيلول (سبتمبر) (١٩٢٠م) دولة لبنان الكبير مؤكداً انفصال لبنان عن سوريا، وبذلك فشل المشروع الوحدوي مرة جديدة.

٤ ـ عملت بريطانيا على اتخاذ قرارات بريطانية صهيونية لتهويد فلسطين مقدمة لسيطرة اليهود على الأراضي المقدسة.

تأسيساً على ما تقدم فقد بدأت الثورات في البلاد السورية احتجاجاً على تقسيم سوريا الطبيعية، فقامت الثورات وردود الفعل المستمرة في فلسطين ضد البريطانيين والهجرة اليهودية التي بدأت بالتزايد إلى الأراضي الفلسطينية. كما قامت ثورات في منطقة جبل عامل في لبنان وردود فعل واسعة في بيروت وطرابلس وبعلبك وصور وسواها ضد الاستعمار الفرنسي وضد الاستعمار البريطاني، كما قامت الثورة السورية الكبرى في بلاد حوران والمناطق السورية ضد ممارسات فرنسا الاستعمارية والتقسيمية.

وفي فلسطين قامت ثورات عديدة ضد المشروع الصهيوني، وفي مقدمتها ثورة (١٩٣٥م) بقيادة الشيخ عز الدين القسام[١]، ومن الملاحظ أن بريطانيا كانت تخادع الشعب الفلسطيني باستمرار فكلما قام الشعب الفلسطيني بثورة، اضطرت بريطانيا لإرسال لجنة تحقيق بريطانية لتحقق في التطورات الفلسطينية وفي المشكلات التي كانت تحدث بين الفلسطينيين واليهود.

وفي الفترة الممتدة بين أعوام (١٩٣٦ ـ ١٩٤٥م) بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بدعم المشروع الصهيوني بقوة في فلسطين. فبعد الدعم البريطاني جاء الدعم الأمريكي حيث أوصت الولايات المتحدة الأمريكية، بل أيدت هجرة مئة ألف يهودي إلى فلسطين، وقد تبنى الرؤساء الأمريكيون المشروع الصهيوني أمثال: ترومن وروزفلت، حيث تكاثر عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في عهدهما.

بعد إنشاء هيئة الأمم المتحدة عام (١٩٤٥م) نوقشت القضية الفلسطينية في جلساتها، وكانت هيئة الأمم بشكل عام مؤيدة للمشروع الصهيوني لا سيما الدولة التي يحق لها حق النقض «vito»، وهذه الدولة هي:

١ ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(١) بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسّام في ١٩٣٥/١١/٢٠م، تولى قيادة الثور القائد فوزي القاوقجي وبعض القيادات الأخرى.

٢ ـ الاتحاد السوفياتي.

٣ ـ إنكلترا.

٤ ـ فرنسا.

٥ ـ الصين الوطنية (وكانت سياستها تابعة للولايات المتحدة).

وانطلاقاً من الموقف الدولي المؤيد للمشروع الصهيوني في فلسطين في مقابل التفكك العربي والانقسامات العربية نجد أن الموقف الصهيوني بشكل عام كان أقوى من الموقف العربي، خاصة وأن غالبية الدولة العربية كانت خاضعة أو محتلة أو مرتبطة مع بريطانيا أو فرنسا. وكانت الدول المستقلة يعتبر استقلالها استقلالاً شكلياً.

في عام (١٩٤٧م) نوقشت القضية الفلسطينية في أروقة الأمم المتحدة، وقد اتفقت دول الاستعمار على تقسيم فلسطين إلى دولتين:

١ ـ دولة يهودية.

٢ ـ دولة عربية.

لقد جوبه هذا المشروع برفض تام من قبل الفلسطينيين والعرب، لأن فلسطين على مر العصور هي للفلسطينيين ولا يعقل أن يقبل الفلسطيني أو العربي باقتطاع جزء عزيز من فلسطين ليكون هذا الجزء يهودي وتقام عليه الدولة اليهودية التي سيؤدي إقامتها ليس إلى تقسيم فلسطين وحسب، وإنما إلى تفتيت العالم العربي لأن إسرائيل ستكون قاعدة استعمارية للغرب بشكل عام.

### ➢ ٣ ـ نتائج الرفض العربي وردود الفعل العربية:

إن الدول الأوروبية عامة والولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفياتي خاصة لم تكترث لردود الفعل العربية، لأن القرار الدولي قد اتخذ بإنشاء الدولة اليهودية، وفي هذه الفترة كانت القوى اليهودية المسلحة تستعد لمقاتلة الفلسطينيين في الداخل ومقاتلة الجيوش العربية إذا ما قررت إعلان الحرب على اليهود.

وبما أن بريطانيا كانت قد عقدت العزم على الانسحاب من فلسطين في أيار (مايو) (١٩٤٨م). وقد انسحبت الجيوش البريطانية من فلسطين بالفعل بعد أن أعدت اليهود عسكرياً، وتركت لهم ذخائر لتكون عوناً لهم في مواجهة العرب،

وفي ١٥ أيار (مايو) (١٩٤٨م) أعلن الزعيم الصهيوني دايفد بن غوريون ولادة الدولة اليهودية على أجزاء من فلسطين، وهي الأجزاء التي تتضمنها قرار الأمم المتحدة عام (١٩٤٧م).

وقد أكد آنذاك بن غوريون بأن اليهود قد حققوا الحلم اليهودي وحققوا مضامين وعد بلفور، كما حققوا مشروع الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل الذي أعلنه في مؤتمر بال في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين بعد خمسين عاماً.

ومن جديد كانت ردود الفعل العربية، ضد إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين، فأعلنت بعض الدولة العربية الحرب لتحرير فلسطين كل فلسطين أما الدول التي أعلنت الحرب وشاركت بها فهي: لبنان ـ سوريا ـ الأردن ـ مصر ـ العراق.

وقد شنت جيوش هذه الدول الحرب على ما عُرف آنذاك باسم العصابات والمنظمات الصهيونية مثل: منظمة الهاجاناة، ومنظمة شترن، وسواها.

ومما يؤسف له أن القوى اليهودية التي عرفت باسم عصابات أو منظمات استطاعت في المرة الأولى والمرة الثانية من الانتصار على الجيوش العربية مجتمعة.

أما أسباب هزيمة العرب في نكبة فلسطين عام (١٩٤٨م) فيعود إلى أمور عديدة يأتي في مقدمتها:

١ ـ ارتباط بعض الأنظمة العربية بالإنكليز أو الفرنسيين.

٢ ـ خيانة بعض الأنظمة العربية.

٣ ـ استخدام بعض الجيوش العربية أسلحة فاسدة مثل الجيش المصري والجيش السوري بمؤامرة مدبرة مع القوى الأجنبية والقوى المحلية.

٤ ـ عدم وحدة الجيوش العربية في خططها وأهدافها ومعاركها.

٥ ـ عدم خبرة الجيوش العربية في فن القتال وفنون الحرب إذ لم يتسنّ لهذه الجيوش المشاركة في حروب سابقة.

٦ ـ وجود قيادة صهيونية موحدة في قرارتها وأهدافها، وتحركاتها.

٧ ـ وجود منظمات يهودية عسكرية مدربة تدريباً عسكرياً حديثاً على النمط الغربي سواء مع الجيوش البريطانية خاصة والغربية عامة أو مع الجيوش الأمريكية أو سواها.

٨ ـ مشاركة اليهود في معارك الحربين العالميتين الأولى والثانية مما أعطى هذه المنظمات خبرة في العمل العسكري.

٩ ـ دعم القوى الاستعمارية الكبرى للمشروع الصهيوني عسكرياً وسياسياً.

وهكذا نرى أن العوامل المحلية الفلسطينية والعوامل العربية والدولية أدت إلى قيام دولة إسرائيل التي تبين بأنها سيطرت على أراضٍ جديدة أوسع مما أعطاها إياه قرار التقسيم عام (١٩٤٧م).

## ➢ ٤ ـ تطورات القضية الفلسطينية بين أعوام (١٩٤٨ ـ ٢٠٠٧م):

بعد إعلان الدولية اليهودية في ١٥ أيار (مايو) (١٩٤٨م) ابتدأت الحرب العربية الإسرائيلية كما سبق وذكرنا وانتهت بخسارة الجيوش العربية، لذا استطاع جيش الإنقاذ بقيادة القائد فوزي القاوقجي الذي بدأ بتأسيسه عام (١٩٤٨م) وهو جيش شعبي استطاع أن يحقق انتصارات على اليهود، ونتيجةً لتدخل الأمم المتحدة، فقد عقدت اتفاقيات الهدنة بين إسرائيل والدول العربية المتحاربة معها وهي: مصر، الأردن، سوريا، وأخيراً لبنان، وذلك في عام (١٩٤٩م).

إن نتائج حرب (١٩٤٨م) أدت إلى استنكار الشعب العربي، لذا حدثت بعض التحولات والنتائج الأساسية لهذه الحرب نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

١ ـ انقلاب في سوريا عام (١٩٤٩م) ضد الرئيس شكري القوتلي.

٢ ـ اغتيال الزعيم رياض الصلح، واغتيال الملك عبد الله في تموز (يوليو) من عام (١٩٥١م).

٣ ـ ثورة ٢٣ تموز (يوليو) (١٩٥٢م) في مصر بقيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ضد الملك فاروق.

٤ ـ ثورة بيضاء في أيلول (سبتمبر) (١٩٥٢م) ضد الرئيس اللبناني بشارة الخوري.

٥ ـ مطالبة عبد الناصر بجلاء القوات البريطانية عن قناة السويس خاصة ومصر عامة عام (١٩٥٤م).

٦ ـ عقد مصر لصفقة السلاح التشيكي وكسر احتكار السلاح الغربي عام (١٩٥٥م).

إزاء هذه التطورات المتلاحقة قررت الدول الاستعمارية، وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل شن عدوان ثلاثي على مصر الدولة الكبرى في العالم العربي، ورأت فرصة مناسبة لشن هذا العدوان عندما أعلن الرئيس عبد الناصر في عام (١٩٥٦م) تأميم قناة السويس شركة مصرية مساهمة. وبالفعل فقد شنت الدول الثلاث عدوانها الثلاثي للقضاء على قوة مصر العسكرية والسياسية لإفشال مخططات مصر في تقوية جيشها الذي بات يشكل خطراً على إسرائيل بعد مضي أربع سنوات على قيام الثورة المصرية.

ولا يمكن أن ننسى مطلقاً أن من عوامل الثورية اللبنانية عام (١٩٥٨م) ضد الرئيس كميل شمعون هي العوامل المتعلقة بالقضية الفلسطينية، لأن الرئيس كميل شمعون كان مرتبطاً بالسياسة الأميركية والسياسة الغربية بشكل عام.

في عام (١٩٦٤م) دعا الرئيس عبد الناصر لعقد أول مؤتمر عربي لبحث القضية الفلسطينية، وقد لبَّى الملوك والرؤساء دعوة عبد الناصر، فعقد المؤتمر في القاهرة وكانت له ردود فعل إيجابية على الصعيد الفلسطيني والعربي حكومات وشعوباً، وكان ذلك مقدمة لإعلان منظمة التحرير الفلسطينية لتتحدَّث باسم الشعب الفلسطيني بعد أن انتخب رئيساً لها السيد أحمد الشقيري كانت الانطلاقة لهذه المنظمة عام (١٩٦٤م) تلتها انطلاقة عسكرية لمنظمة فتح (العاصفة) التي تضاعف حجم نضالها ضد إسرائيل لا سيما بعد حرب حزيران (يونيه) (١٩٦٧م).

إن حرب حزيران (١٩٦٧م) بين إسرائيل من جهة وبين مصر وسوريا والأردن من جهة ثانية أسفرت وللأسف عن نكسة عربية جديدة حيث ظهر التآمر الأميركي والغربي والإسرائيلي ضد الجيوش العربية وضد الشعب الفلسطيني. وكانت الحكومات العربية والشعوب العربية والإعلام العربي يتحدثون باستمرار قبل حرب (١٩٦٧م) عن تصميم كامل لتحرير جميع الأراضي الفلسطينية والقضاء على الكيان الإسرائيلي! ولا بديل عن تحرير الأرض كامل الأرض وطرد اليهود الأجانب من فلسطين.

بعد عام (١٩٦٧م) بدأت مبادرات دولية وأمريكيا ومن هيئة الأمم المتحدة لتسوية موضوع القضية الفلسطينية. وبعد أن كان منذ عام (١٩٤٨م) جزء من فلسطين بيد اليهود باتت بعد عام (١٩٦٧م) جميع الأراضي الفلسطينية تحت سيطرة اليهود، لذا ابتدأت المبادرات لإعادة جزء من الأراضي المحتلة عام (١٩٦٧م) وليس إعادة أراضي عام (١٩٤٨م)، ومما يؤسف له أن الكيان الإسرائيلي في هذه الفترات كانت مستمرة في شن اعتداءاتها على العالم العربي سواء على مصر أو سوريا أو الأردن أو لبنان، ومن بينها الاعتداء الشهير على مطار بيروت عام (١٩٦٩م) حيث دمرت ١٣ طائرة لشركة طيران الشرق الأوسط. ومما يؤسف له أنه في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل متحالفة أشد التحالف مع أميركا ودول الغرب نجد أن العالم العربي إلى مزيد من التفكك والصراعات الداخلية. وكان من أهم الأحداث الخطيرة التي وقعت في أيلول (سبتمبر) عام (١٩٧٠م) المعارك الدامية بين الجيش الأردني والمنظمات الفلسطينية في الأردن، وهو ما عرف آنذاك باسم «أيلول الأسود» وبغض النظر عن الأسباب الحقيقية لهذه الصراعات العربية، فإننا نجد أن نتائجها كانت سلبية على كل صعيد. وبالرغم من أن الرئيس عبد الناصر استطاع أن ينجح من خلال قمة عربية عقدت في القاهرة عام (١٩٧٠م) أن يوقف الصراع الأخوي، ولكن ذيوله كانت سلبية على العمل الوطني والعمل القومي. ومن المحطات الرئيسية في تاريخ القضية الفلسطينية أنه وبعد انتهاء مؤتمر القمّة، فقد توفي الرئيس عبد الناصر في ٢٨ أيلول (سبتمبر) (١٩٧٠م)، وبوفاته طويت صفحة مشرقة من تاريخ النضال العربي الوطني والقومي وخسرت القضية الفلسطينية ركناً أساسياً من أركانها ودعائمها.

لقد ترك عبد الناصر جيشاً مصرياً استعاد مكانته بين أعوام (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠م) وأثبت من خلال الاستنزاف ضد إسرائيل إمكانيات عسكرية مصرية متقدمة.

وقد تم الاهتمام بتقوية هذا الجيش في الفترة الذي تولى فيها الرئيس أنور السادات الحكم (١٩٧٠ ـ ١٩٨١م) وبالفعل فقد خاض الجيش المصري مع الجيش السوري والأردني حرب أكتوبر (١٩٧٣م) وانتهت هذه الحرب بانتصارات أساسية حققتها الجيوش العربية. ولأول مرة ثبت خطأ مقولة: (إن الجيش الإسرائيلي جيش لا يقهر) لذا وجدنا بأن القضية الفلسطينية وابتداء من عام

(١٩٧٣م) ابتدأت تأخذ حيزاً هاماً في القرارات العربية والدولية، غير أن المؤامرة الإسرائيلية والدولية كانت على الدوام بالمرصاد لأي انتصار أو نهضة عربية. فمن المعروف أن الضمانة الوحيدة لبقاء إسرائيل إنما تتمثل باستمرار الانقسامات العربية وشرذمة العالم العربي، بل وباستمرار مؤامرات تقسيم العالم العربي، لذا ابتدأت المؤامرة الكبرى للقضاء على القضية الفلسطينية بالفتنة الكبرى التي انطلقت في ١٣ نيسان (إبريل) عام (١٩٧٥م)، وهي الفتنة التي كانت بدايتها شرارة للحرب اللبنانية مقدمة لتفاعل هذه الأزمة بين الفلسطينيين وبين الأحزاب اليمينية المسيحية في لبنان، وكانت إسرائيل والقوى المتآمرة ترى من خلال سياق وتطورات الأزمة اللبنانية أن تقسيم لبنان إلى دويلات طائفية ومذهبية هي المبرّر الوحيد لبقاء إسرائيل دولة عنصرية دينية في المنطقة يماثلها دويلات: سنية وشيعية ودرزية ومارونية ينتج عنها فيما بعد تقسيم بعض دول العالم العربي وإنشاء دويلات قبطية في مصر وبربرية في الجزائر ومسيحية في جنوب السودان وسواها في العالم العربي.

وبدون أدنى شك، فإن الأزمة اللبنانية بين أعوام (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠م) ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالقضية الفلسطينية، بل ازدادت القضية اللبنانية والقضية الفلسطينية خطورة بعد زيارة الرئيس أنور السادات في عام (١٩٧٧م) للكنيست الإسرائيلي (البرلمان) تحت شعار الرغبة في السلام، وكانت هذه الزيارة مقدمة لعقد اتفاقيات كامب دايفد عام (١٩٧٨م) برعاية أميركية، غير أن هذه الاتفاقية لم تحل جزئياً إلا موضوع انسحاب الجيش الإسرائيلي من الأراضي المصرية و(الأردنية) التي لم يحتل منها إلا الأراضي الفلسطينية السابقة في حين أن إسرائيل ما تزال حتى اليوم تحتل الجولان العربي السوري، ومزارع شبعا اللبنانية.

ومما يؤسف له أن المؤامرات الإسرائيلية والدولية وبالرغم من جهود السلام، فقد استمرت على فلسطين والفلسطينيين وازدادت المؤامرات الإسرائيلية والغربية على العالم العربي ونتيجة لتداعيات القضية الفلسطينية واتفاقيات كامب دايفد قامت قوى المعارضة في مصر باغتيال الرئيس أنور السادات عام (١٩٨١م)، وفيما بعد قامت إسرائيل بدعم من .U.S.A والقوى اليمينية في لبنان باجتياح جنوبي لبنان وصولاً إلى بيروت بقيادة وزير الدفاع آنذاك شارون، وبين

حزيران (يونيه) (١٩٨٢م) وآب (أغسطس) من العام نفسه انسحبت المنظمات الفلسطينية من بيروت وجنوبي لبنان بقيادة ياسر عرفات، إمَّا إلى اليمن أو تونس أو البقاع، كما أنَّ قلة من هذه المنظمات بقيت في بيروت.

وفي الفترة الممتدة بين (١٩٨٢ ـ ١٩٩٢م) كانت المفاوضات السريَّة بين بعض الدول العربية وبعض الزعامات الفلسطينية وإسرائيل لحلّ مشكلة الشعب الفلسطيني، ففي عام (١٩٩١م) عقد مؤتمر مدريد ومن بعده فوجئ العالم العربي، وبالتحديد في عام (١٩٩٣م) باتفاقيات أوسلو السريَّة التي كانت قد بدأت منذ أكثر من سنتين وبأسلوب سرِّي، غير أنَّ قرارات مؤتمر مدريد واتفاقية أوسلو ومن بعدها جميع الاتفاقيات التي عقدت في السر والعلن بما فيها اتفاقيات ما عرف باسم «خريطة الطريق» لم تؤد إلى أية نتيجة عملية بالنسبة للقضية الفلسطينية. ومما يؤسف له بأن الرئيس السابق صدام حسين عندما أعلن الحرب على إيران ولمدة جاوزت الثماني سنوات عندما أعلن الحرب على إيران ادّعى بأن تحرير فلسطين يمر من خلال إيران. وبعد أن اجتاح الكويت ادّعى أيضاً بأن هذا الاجتياح مرتبط بالقضية الفلسطينية. ويذكر أيضاً دعمه العسكري اللامحدود للعماد ميشال عون في حرب لبنان الداخلية.

ومهما يكن من أمر، فإن تهويد فلسطين، وتطورات القضية الفلسطينية بأبعادها العربية والدولية بما فيه انطلاق الانتفاضة، والعمليات الجهادية في فلسطين والعراق إنما ارتبطت جميعها بما سمّي بأزمة الشرق الأوسط. وينبغي أن نؤكد أن لا حلَّ لهذه الأزمة بأبعادها الإقليمية والعربية والدولية إذا لم تحلّ قضية فلسطين حلاً عادلاً مع قناعتنا بأن ما حدث وما يحدث من تطورات منذ عام (١٩٤٨م) حتى عام (٢٠٠٧م) لا يمكن مطلقاً أن يؤدي إلى حل جذري. فالحلول التي سبق أن طرحت والتي ما تزال مطروحة، ولو برعاية دولية إنما هي في حقيقتها تسويات مؤقتة، ولا يمكن أن تحل قضية فلسطين حلاً جذرياً ولو بعد عشرات السنوات إلا نتيجة وحدة عسكرية عربية تؤدي إلى تضافر جميع الجهود العربية، لأن التاريخ العربي أثبت أن الصليبيين الذين استمروا مئتي عام في بلاد الشام لم يطردوا منها إلا نتيجة وحدة سياسية وعسكرية بين مصر وبلاد الشام سواء في العهد الأيوبي أو العهد المملوكي. لذلك لا بدَّ من إعادة فلسطين كامل فلسطين ولو بعد عقود من السنين عن طريق الوحدة العربية الشاملة، لا سيما وحدة مصر وبلاد الشام.

## ➢ المصادر:

### وثائق غير منشورة:

١ ـ **وثائق وزارة الخارجية البريطانية (.F.O)**: وهي الوثائق والمراسلات المتبادلة بين السفراء والقناصل البريطانيين وبين وزارة الخارجية البريطانية، والمراسلات المتبادلة بين وزارة الخارجية وبين وزارتي المستعمرات والحربية البريطانية المحفوظة في مكتبة السجلات العامة في لندن (P.R.O) للفترة الممتدة بين (١٩٢٠ ـ ١٩٤٨م) وهي مصنفة في أربع مجموعات تحت الرقم العام (F.O. 371) على النحو التالي:

**F.O. 371/ Turkey 44.**
**F.O 371/ Syria 89.**
**F.O. 371/ Lebanon 88.**
**F.O. 371/ Palestine and Transjordan.**

٢ ـ **وثائق ومراسلات اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية (١٩٤٤ ـ ١٩٤٧م).**

٣ ـ **وثائق جامعة بيروت العربية وتتضمن**: ملف وثائق ومراسلات اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية.

(وثائق غير موجودة في مجموعة وثائق ومراسلات اتحاد الأحزاب).

٤ ـ **مضابط جامعة الدول العربية، القاهرة وتتضمن**: مضابط ومحاضر جلسات اللجنة التحضرية للمؤتمر العربي العام في الإسكندرية ١٩٤٤م.

٥ ـ **مضابط ومحاضر مجلس النواب اللبناني ١٩٤٤ ـ ١٩٤٦م.**

٦ ـ **مجموعة محمد جميل بيهم الوثائقية، وهي تتضمن ما يلي:**

أ ـ وثائق ووسائل غير مصنفة.

ب ـ وثائق ومراسلات وتقارير متبادلة بين محمد جميل بيهم وبين الأحزاب والهيئات والقيادات المحلية والعربية والدولية، وهي مصنفة في عدة مجلدات اخترنا منها ما يلي:

- محمد جميل بيهم: رسائل ووثائق ١٩١١ ـ ١٩٦٥م، الملف ٣.
- محمد جميل بيهم: رسائل ووثائق ١٩٠٨ ـ ١٩٣٥م، الملف ٤.
- محمد جميل بيهم: رسائل ووثائق ١٩٣٦ ـ ١٩٦٥م، الملف ٥.
- محمد جميل بيهم: رسائل ووثائق ١٩٤٤ ـ ١٩٤٧م، الملف ٦.
- محمد جميل بيهم: رسائل ووثائق ١٩٠٢ ـ ١٩٦٥م، الملف ٧.

٧ ـ **وثائق مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية (بيروت سابقاً):** ويتضمن مجموعة كبرى من الوثائق والبيانات والمراسلات غير المنشورة، وهي من ضمن مجموعة الهيئة العربية العليا لفلسطين ومجموعة الحاج محمد أمين الحسيني، ومجموعة عزة دروزة، ومصنفة في عدة ملفات، وقد اخترنا منها وثائق عديدة في الملفات التالية:

١ ـ ملف ب II.
٢ ـ ملف ب III.
٣ ـ ملف ب IV.
٤ ـ ملف ب I/VII.
٥ ـ ملف ب I/VIII.
٦ ـ ملف ت I.
٧ ـ ملف ث IV/2.
٨ ـ ملف ث V.
٩ ـ ملف ر I.
١٠ ـ ملف ر VIII.

**وثائق منشورة:**


١ ـ مجموعة شهادات العرب في فلسطين أمام اللجنة الملكية البريطانية، جمع جميل الشقيري، مطبعة الاعتدال، دمشق ١٩٣٨م.
٢ ـ ملف وثائق فلسطين، جـ١، (٦٣٧هـ ـ ١٩٤٩م) جامعة الدولة العربية، القاهرة، ١٩٦٩م.
٣ ـ ميثاق جامعة الدول العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
٤ ـ وثائق الحركات الوطنية الفلسطينية (١٩١٨ ـ ١٩٣٩م)، مجموعة أكرم زعيتر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٩م.
٥ ـ الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، جـ١، (١٩١٥ ـ ١٩٤٦م)، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.
٦ ـ وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية، (١٩١٨ ـ ١٩٣٩م)، جمع وتصنيف د. عبد الوهاب الكيالي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، جمعية صندوق فلسطين، (بغداد)، بيروت، ١٩٦٨م.


**كتب وثائقية وعامة باللغة العربية:**


٧ ـ أحمد طربين: محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩م.
٨ ـ أسعد داغر: مذكراتي على هامش القضية العربية، دار القاهرة للطباعة، القاهرة، ١٩٥١م.
٩ ـ أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، دار الكاتب العربي، بيروت، طبعة جديدة بدون تاريخ، بينما الطبعة الأولى عام ١٩٣٥م.

١٠ ـ أنيس صايغ: الهاشميون وقضية فلسطين، صحيفة المحرر والمكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٦٦م.
١١ ـ بشارة الخوري: حقائق لبنانية، جـ٣ (١٩٤٧ ـ ١٩٥٢م)، منشورات أوراق لبنانية، درعون ـ حريصا، لبنان، ١٩٦١م.
١٢ ـ حسان حلاق: موقف لبنان من القضية الفلسطينية، (١٩١٨ ـ ١٩٥٢)، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٨٢م.
١٣ ـ حسن الحكيم: مذكراتي، صفحات من تاريخ سورية الحديث، (١٩٢٠ ـ ١٩٥٨م)، القسم الأول، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٥م.
١٤ ـ دورين انغرامز: أوراق فلسطين، (١٩١٧ ـ ١٩٢٢م)، ترجمة ونشر دار النهار، بيروت، ١٩٧٢م.
١٥ ـ ريتشارد ستيفنس: الصهيونية الأميركية وسياسة أميركا الخارجية، ١٩٤٢ ـ ١٩٤٧م، تعريب: جورج نجيب واكيم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧م.
١٦ ـ زين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، وبيروت، ١٩٧١م.
١٧ ـ ساطع الحصري: يوم ميسلون، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٨م.
١٨ ـ صالح صائب الجبوري: محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية، دار الكتاب، بيروت، ١٩٧٠م.
١٩ ـ عارف العارف: النكبة، نكبة بيت المقدس، جـ١، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩م.
٢٠ ـ الملك عبد الله: الآثار الكاملة للملك عبد الله، الدار المتحدة للنشر، بدون تاريخ.
٢١ ـ عبد العزيز نوار: وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث، ١٥١٧ ـ ١٩٢٠م، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٤م.
٢٢ ـ عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥م.
٢٣ ـ فوزي القاوقجي: فلسطين في مذكرات القاوقجي، جـ٢، إعداد خيرية قاسمية، مركز الأبحاث ودار القدس، بيروت، ١٩٧٥م.
٢٤ ـ كميل شمعون: مراحل الاستقلال، لبنان ودول العرب في المؤتمرات الدولية، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٤٩م.
٢٥ ـ محمد جميل بيهم: فلسطين أندلس الشرق، صادر ـ ريحاني، بيروت، ١٩٤٦م.

٢٦ ـ محمد جميل بيهم: قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، جـ٢، دار الكشاف، بيروت، ١٩٥٠م.
٢٧ ـ محمد فايز القصري: حرب فلسطين (١٩٤٨م)، جـ١، دار المعرفة، مصر، ١٩٦١م.
٢٨ ـ محمد فيصل عبد المنعم: أسرار (١٩٤٨م)، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٨م.
٢٩ ـ مناحيم بيغن: يوميات مناحيم بيغن، تعريب: معين أحمد محمد، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٨م.

## كتب وثائقية وعامة باللغة الأجنبية:

1 - Ben Gurion, D; Rebirth and Destiny of Israel. ed. Mordekhai Nurock, (Philosophical library, New York, 1954).
2 - Cohen, I., A short History of Zionism, (Frederik Muller LTd, London 1951).
3 - ESCO Foundation for Palestine, vol. I (New Haven, Yale university Press 1947 - 1949).
4 - Friedeman, I., The question of Palestine 1914 - 1918, (Routledge and Kegan paul, London 1973).
5 - Glubb, J.B.; A Soldiers with the Arabs, (Hodder and stoughton, London 1957).
6 - Howard, H.; The King-Grane Commission, (Khayate library, Beirut 1963).
7 - Hull, C.; the Memoirs of Cordell Hull, vol II, (New York 1948).
8 - Hurewitz, J.C.; Diplomacy in the Near and Middle East, vol. II, (D. Van Nostrand company inc. Princeton, New York, London 1956).
9 - Jansen, M.E; The united state and The Palestinian People, (The institute for Palestine Studies, Beirut 1970).
10 - The Jewish Agency for Palestine (The Agency, New York 1947).
11 - John, R. Hadawi, S.; The Palestine Diary 1945 - 1948, vol. II, (The Palestine Research cente, Beirut 1963).
12 - Kish, L.T.; Palestine Diary, (victor Collancy LTd, London 1938).
13 - Longrigg, S.H.; Syria and Lebanon under French Mandate, (Oxford university Press, London, New York, Toronto 1958).
14 - Stein, L; The Balfour Declaration, (Vallentine and Mitchell, London 1961).
15 - Terry, J.J.; Attitudes of united states congressman, (Palestine Research center, Beirut 1973).
16 - Uninted Nations Resolutions on Palestine and the Arab-Israeli conflict 1947 - 1974, Ed.G. Tomeh, (The Institute for Palestine Studies, Centre for Research and Documentation, Beirut-Abu Dhabi 1975).
17 - Weizman, ch.; Trial and Error, (H. Hamilton, London 1949).

**الدوريات العربية:**

١ ـ البيان، نيويورك، ١٩٣٨م.
٢ ـ الحياة، بيروت، ١٩٤٨م.
٣ ـ السمير، بروكلن، نيويورك، ١٩٣٨م.
٤ ـ الشعب، دمشق، ١٩٣١م.
٥ ـ العاصمة، دمشق، ١٩٢٠م.
٦ ـ المنار، القاهرة، ١٩٢٣م.
٧ ـ النهار،بيروت، ١٩٤٤ ـ ١٩٤٨م.
٨ ـ الهدى، نيويورك، ١٩٣٨م.
٩ ـ الوطن العربي، باريس، ١٩٧٩م.

**الدوريات الأجنبية:**

1 - Arab World and Diplomatic History, vol. 2 (1942 - 1952) by Menahem Mansoor (washington 1972).
2 - Cahiers de L'Orient Contemporain, vol. I (Paris 1944) Centre d'Études de L'Orient contemporain de l'Institut d'Études Islamique de L'université de Paris.
3 - The Detroit News (Detroit) 1938.
4 - Le jour (Beyrouth) 1947 - 1948.
5 - KeesinG's Contemporary Archives 1946 - 1948, vol. VI, Weekly, Diary of world-Events (London).
6 - the Middle East and North Africa (London 1977).
7 - the New York times (New York) 1945 - 1946.

# الفصل الخامس

# المؤامرات الاستعمارية والتبشيرية ضد مسلمي أندونيسيا

# الفصل الخامس

## المؤامرات الاستعمارية والتبشيرية ضد مسلمي أندونيسيا

### ➢ تاريخ أندونيسيا الحديث والمعاصر:

**جغرافية أندونيسيا:**

تنتشر بين المحيطين الهادئ والهندي وبين آسيا وأستراليا مئات من الجزر الكبرى والصغرى، يطلق عليها بمجملها اسم «أندونيسيا» وهي تقع على خط الاستواء بين خطي ٢٠ شمالاً و٢٠ جنوباً. ويطلق اسم أندونيسيا على مجموعة الجزر الواقعة في جنوب شرقي آسيا التي تضم مدغشقرة وسومطرة وجاوه، وبورنيو، وسيليبس، وتيمور، وجزائر الملوك، وغينيا الجديدة، وشبه جزيرة الملايو، وبعض الجزر الأخرى المنتشرة. وقد أطلق على مجموعة الجزر هذه أسماء متعددة، فسميت باسم جزر الملايو، وباسم جزر الهند الشرقية وغيرها، وأطلق عليها العرب اسم جاوه، وما زالوا حتى اليوم يحتفظون بتلك التسمية[١]. وقد سماها بعض الجغرافيين باسم «ماليزيا» بمعنى جزر ملايو أو أرخبيل ملا، غير أن الوطنيين الأندونيسيين يفضلون اسم أندونيسيا وقد جعلوه الاسم الرسمي للبلاد[٢].

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي أخذ اسم أندونيسيا يغلب على ما عداه من الأسماء، ومعناه جزر الهند، لأن كلمة أندونيسيا تتكون من كلمتين إحداهما: «أندو» ومعناه: الهند، والثانية «نيسيا» ومعناها: الجزر. ويطلق هذا الاسم حالياً على مجموعة الجزر التي كانت

---

(١) محمود شاكر: جغرافية العالم الإسلامي، ص٨٤، الرياض، ١٩٧٨م انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٦٩، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٢) أندونيسيا الثائرة، ص١٧، إصدار المركز العام لجمعيات استقلال أندونيسيا، القاهرة، ١٩٤٦م.

خاضعة لحكم هولندا، ولكن اسم أندونيسيا من الناحية الجغرافية يشمل أيضاً جزر الفليبين التي كانت تابعة للولايات المتحدة الأميركية. غير أن أول من استعمل كلمة أندونيسيا اسماً على تلك الجزر هو العالم الإثنولوجي الأمريكي «لوغان» (Logan) عام (١٨٥٠م) في مجلة الأرخبيل الهندي وآسيا الشرقية عند كلامه عن الشعوب القاطنة هناك. كما استخدمها الكثير من العلماء والمجلات بما فيها دائرة المعارف البريطانية. كما أن هولندا سبق أن أطلقت عليها اسم «الهند الهولندية» بسبب سيطرتها عليها.

### مساحة أندونيسيا:

تبلغ مساحة أندونيسيا بعد تقسيمها حوالي ٧٨٢,٦٦٣ ميلاً مربعاً[١] بعد أن كانت مساحتها ٩١٠,٠٠٠ ميلاً مربعاً. وكان عدد سكانها عام (١٩٤٦م) حوالي ٩٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، بينما عدد سكانها حسب إحصاء عام (٢٠٠٦م) أكثر من (٢٣٤) مليون نسمة. وهي بذلك تعد من أكبر البلاد الإسلامية في العالم، ولا بدّ من الإشارة إلى أن ٩٢٪ من سكان أندونيسيا يعتنقون الإسلام، بينما بعضهم يعتنق النصرانية، وقلة يدينون بالبوذية والكونفوشية والهندوسية. ونظراً لعدد سكانها المسلمين، فهي تمثل أكبر تجمع للمسلمين في العالم الإسلامي[٢].

### أصل السكان:

يرجع أصل سكان أندونيسيا إلى الجنس المغولي الطوراني، وقد وفدوا إليها من وراء جبال هيمالايا، ووصلوا إلى الساحل الهندي، ثم ركبوا البحر، فبلغوا جنوب أفريقيا، ثم اتجهوا ناحية الشرق، فوصلوا إلى تلك الجزر الواحدة تلو الأخرى، ثم واصلوا سفرهم الطويل حتى بلغوا شمال أستراليا ونيوزيلنده. ومكسيكو والبيرو وكاليفورنيا في أمريكا. وقد جاؤوا أيضاً عن طريق البر فوصلوا إلى كمبوجا (الهند الصينية)، ومن هنا عبروا البحر إلى تلك الجزر.

---

(١) ١,٩١٤,٤٤٠ كلم$^{2}$

(٢) انظر: ديتس سميث: أندونيسيا شعبها وأرضها، ص٣٣ ـ ٣٤، تعريب حسن محمود، تقديم: حسن جلال العروسي، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة، نيويورك، ١٩٦٢م. انظر أيضاً: أندونيسيا الثائرة، ص١٨، ٢٢. أنظر أيضاً: موقع انترنت خاص باندونيسيا عام ٢٠٠٦م.

وفي عام (٥٤٥م) وصلت أول جماعة من الهنود إلى «فالمبانج» في جنوب سومطرة. وكانت في تلك المرحلة كما يشير تاريخ الصين مملكة معمورة ومشهورة، وبها جامعة مفتوحة أبوابها لكل من يؤمها. وقد مرّ عليها جماعات من الصين والهند الذين باتوا مع مرور السنين من أهل البلاد الحقيقيين والقدامى. وبين أوائل القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر بدأ الإسلام بالانتشار في أندونيسيا، وأقاموا دولة استقطبت الكثير من المسلمين والعرب، غير أن هذه الدولة لم تدم كثيراً بسبب سيطرة الاستعمار الغربي على البلاد في أوائل القرن السادس عشر[١].

تنقسم تلك الجزر إلى ثلاث مجموعات:

**المجموعة الأولى**: وتتكون من جزيرة سومطرة وجاوه وبورنيو وسيليبس، وسواها، وتسمى «سوندا الكبرى».

**المجموعة الثانية**: وهي مجموعة الجزر الصغرى التي تقع بين جزيرة غينيا الجديدة شرقاً، وجزيرة جاوه غرباً مثل: جزر تيمور، بالي، سولار، الور، فالوريس، وسواها وتسمى «سوندا الصغرى».

**المجموعة الثالثة**: وهي مجموعة الجزء التي تقع بين سيليبس غرباً وغينيا الجديدة شرقاً، وتسمى جزر الملوك أو البهارات التي ورد ذكرها في كتب التاريخ مثل: بابوا، تراناتي، أمبون، باندا وسواها.

وقد ورد في كتب أخرى مثل كتاب أندونيسيا الثائرة، تقسيم آخر لجزر المحيط الهادي[٢].

فهذه الجزر إذن تتمتع بموقع ممتاز ذي أهمية خاصة، هذا فضلاً عن وجود الموارد الأولية الضخمة، والأيدي العاملة التي تستخدم في استغلال هذه الموارد لصالح الصناعات الأوروبية، كما أنها تشكل سوقاً لتصريف المنتجات الصناعية الأوروبية. فلا عجب إذا ما بدأ التنافس الاستعماري عليها من أجل ذلك[٣].

---

(١) Funk and Wagnalls New Encyclopedia, vol.14, p.48, U.S.A.

(٢) أندونيسيا الثائرة: ص٢٠ ـ ٢١، انظر أيضاً: ص٢٧ ـ ٣٠.

(٣) أندونيسيا الثائرة، ص١٩.

وتتميز أندونيسيا بكثرة البحيرات والأنهار والمناظر الطبيعية الخلابة، وهي غنية بالمعادن مثل: البترول والفحم الحجري والقصدير والرصاص والذهب والحديد، كما أنها غنية بالمحصولات الزراعية مثل: المطاط والسكر والشاي والبن والنارجيل والتبغ والكينا وأنواع عديدة من التوابل والأخشاب والأرز والفواكه، والأحجار الكريمة واللآلئ والأسماك. وكان احتياطي القصدير والمطاط يمثل أكثر من ثلاثة أرباع القصدير والمطاط في العالم[١].

**الجذور التاريخية لأندونيسيا:**

نشأت في الجزر الأندونيسية عدة ممالك منذ قبل الإسلام وحتى مجيء الاستعمار، ومن هذه الممالك ما كان سلطانها يمتد على رقعة صغيرة من الأرض، ومنها ما يتعدى ذلك حتى يشمل الجزر كلها، بل يمتد ليشمل جزراً أخرى غير الجزر الأندونيسية. ومن هذه الممالك والإمبراطوريات:

١ ـ **إمبراطورية سري ويجايا** (Sri Wijaya)[٢]: وتأسست جنوبي سومطرة في أوائل القرن الخامس الميلادي، وازدهرت هذه الإمبراطورية، ونشرت سلطانها على أكثر الجزر الأندونيسية، وعلى شبه جزيرة الملايو، ووصل نفوذها إلى الفليبين شمالاً، وإلى جزيرة سيلان في الغرب، وبقيت هذه الدولة حتى انتشر الإسلام بين أهلها. واتخذت مدينة «فلمبانج» في سومطرة الجنوبية عاصمة لها.

٢ ـ **مملكة تاروماناجارا**: تأسست في غربي جزيرة جاوه في القرن السابع الميلادي، وبقيت حتى القرن الثاني عشر الميلادي، حيث حلت محلها مملكة سوندا عام (١١٠٠م).

٣ ـ **مملكة متارم**: وقامت في جاوه الوسطى، وبقيت حتى انتشر الإسلام بين أبنائها، وقد اتسعت رقعتها وتألفت من ثمان وعشرين مقاطعة أو دويلة، كما أصبحت شبه جزيرة الملايو جزءاً من هذه المملكة.

---

(١) د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٧٠.

(٢) أطلق عليها هذا الاسم نسبة لمؤسسها «سري ويجايا» الذي اشتهر بشجاعته وذكائه، وذلك في القرن الخامس الميلادي. للمزيد من التفاصيل الوافية انظر: أندونيسيا الثائرة، ص٣٦ ـ ٣٩.

٤ ـ **مملكة جاوه الشرقية.**

٥ ـ **إمبراطورية ماجاباهيت (Madjapahit)**[(١)]: قامت في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي واستمرت حتى القرن الخامس عشر الميلادي. ونشرت سلطانها على الجزر الأندونيسية كلها، إضافة إلى الفليبين والملايو وجزء من الهند الصينية حتى ضعفت. وقد انفصلت بعض الممالك عنها مثل: مملكة ميتنكايو في سومطرة الوسطى، ومملكة آتشيه في شمال سومطرة، وانتشر فيها الإسلام، وكانت أقوى الممالك الأندونيسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبقيت حتى عام (١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م)، وكان لها دور كبير في قتال الهولنديين.

كما قامت ممالك أخرى في جزر أخرى في جنوب شرقي آسيا، مثل مملكة بروني وسرواك، وممالك أخرى في جزيرة سيليبس وجزر السوند الصغرى، كما تعرضت أندونيسيا للغزو الصيني الذي احتل جزيرة جاوه (سنة ١٣٦٢م)[(٢)]. والأمر الملاحظ أن العديد من هذه الممالك والإمبراطوريات قد انتشر فيها الإسلام بعد أن اعتنق ملوكها الدين الإسلامي.

**الإسلام في أندونيسيا:**

يعتقد أن الإسلام انتشر في أندونيسيا بعد أن توقفت موجة الفتوحات الإسلامية، حيث انصرف الناس بعدها إلى النشاط الزراعي والصناعي والتجاري، وانطلقت السفن التجارية من سواحل جزيرة العرب إلى المشرق تحمل معها البضائع، وإلى جانبها أخلاق التجار المسلمين التي تنبع من العقيدة، إلى جانب الدعاة، وكثيراً ما كان التجار يتخذون بضاعتهم وسيلة للاتصال بالناس والعمل على هدايتهم[(٣)].

وتشير بعض المصادر التاريخية أن التجار المسلمين من الهنود والفرس والعرب قد وصلوا في القرن التاسع الميلادي إلى مدينة «قدح» إحدى الولايات

---

(١) أطلق عليها هذا الاسم نسبة لمؤسسها «ماجاباهيت».

(٢) د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٧٠ ـ ١٧١. انظر أيضاً: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢٠، ص٣٧١ ـ ٣٧٢. وللمزيد من التفاصيل عن هذه الإمبراطوريات والممالك. انظر: أندونيسيا الثائرة، ص٣٣ ـ ٤٥.

(٣) دنيس سميث: أندونيسيا شعبها وأرضها، ص٥٣ ـ ٥٤.

في شبه جزيرة الملايو، مما يدل على وجود اتصالات أولية بين المسلمين وسكان هذه المناطق. كما ذكرت بعض كتب تاريخ الملايو روايات تحدد تاريخ دخول الإسلام إلى أندونيسيا بالقرن الثالث عشر الميلادي(١). كما أشار الرحالة الإيطالي «ماركوبولو» الذي زار الشاطئ الشمالي من جزيرة سومطرة عام (١٢٩٢م) حيث أشار:

«أن سكان مدن هذه المملكة مسلمون»، «وإن الكثيرين... قد تحولوا إلى دين محمد عن طريق التجار الشرقيين الذي يتعاملون كثيراً معهم»(٢).

كما دلت الاكتشافات الأثرية المكتوبة باللغة الملايوية وبالرسم العربي على انتشار الإسلام بين سنوات (٧٠٢ ـ ٧٧٩ للهجرة). ويمكن القول: إن تاريخ دخول الإسلام أندونيسيا كان محصوراً بين أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادي.

كما زار بعض التجار الأندونيسيين بغداد في أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد، وعندما عادوا إلى بلادهم كانوا يحملون بين جوانحهم عقيدة الإسلام، وعندما وصلوا إلى بلادهم قاموا بدعوة واسعة النطاق له، وبدأ الإسلام ينتشر بين السكان، ولكن على شكل أفراد وجماعات بسيطة، ونجحوا في تأسيس مملكة برلاك الصغيرة المسلمة.

ونجح التجار والدعاة في نشر الإسلام في أندونيسيا، واتخذت كل الوسائل لهداية الناس، وانخراطهم في الإسلام. كما عامل الدعاة سكان البلاد معاملة طيبة تدل على الخلق الإسلامي الرفيع الذي أسهم في إقبال الناس على الإسلام. فقد اتخذ بعض الدعاة التجارة وسيلة للصلة والتعامل معهم، فكانوا يتعاملون بصدق ونزاهة وأمانة. وتم التزاوج بينهم وبين سكان البلاد فتدخل المرأة في دين زوجها، ثم لا يلبث أن يتبعها أهلها وأقرباؤها، ويحرص السكان على تعلم اللغة العربية لأنها لغة القرآن ولغة المسلمين التجار. ولم ينتشر الإسلام انتشاراً واسعاً

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، جـ٢٠، ص٣٧٤. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٧٢.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، جـ٢٠، ص٣٧٤ ـ ٣٧٨، د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٧٢.

إلا نتيجة لاعتناق الأباطرة والملوك والحكام الدين الحنيف، مما شجع بقية السكان وأفراد الشعب على اعتناقه، فضلاً عن معاملة التجار المعاملة الصادقة انطلاقاً من العقيدة الإسلامية السمحة، مما دعا القبائل الأندونيسية للإقبال على الإسلام، لا سيما وإنه ساوى بين الجميع.

والأمر الملاحظ أن المذهب الشافعي انتشر انتشاراً واسعاً بين السكان. ومهما يكن من أمر فإن السكان قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية بما فيها من المساواة بين الناس والعدل والإخاء والحرية بخلاف الديانات التي كانت تسود أندونيسيا. وكانت المناطق الساحلية أكثر تقبلاً للإسلام لكثرة التجار المسلمين. ولم يبق بعيداً عن الإسلام إلا تلك القبائل المعزولة في الغابات، ولم يكن بالإمكان الاتصال بها.

ولما دخل الكثير من السكان في الإسلام وحدوا صفوفهم، وأسسوا عدة ممالك إسلامية في أندونيسيا منها: مملكة برلاك في سومطرة، ومملكة بنتام في جاوه، ومملكة ديماك في وسط جاوه، ومملكة متارام في شرقي جاوه، ومملكة آتشبه في شمال سومطرة. وتم القضاء على إمبراطورية ماجاباهيت، وانتهى حكم الهندوس فيها[١].

وعلى العموم فقد انتشر الإسلام في أندونيسيا عن طريق التجارة والتجار المسلمون فضلاً عن دور المسلمين من الهند وفارس. وقد تأكد ذلك من خلال انتشار بعض المصطلحات الهندية والفارسية فضلاً عن العربية في اللغة الأندونيسية[٢].

ومن الأهمية بمكان القول: إن أندونيسيا شهدت ضعفاً في ممالكها نتيجة للتنافس والتنازع الخارجي والداخلي، بالإضافة إلى عدم مواكبة التطور الذي كان ينتشر في أوروبا ومناطق أخرى من العالم، الأمر الذي أدّى إلى استعمارها واستثمار مواردها وخيراتها.

---

(١) محمود شاكر: المرجع نفسه، ص٣٧٨ ـ ٣٨٠.

(٢) للمزيد من التفاصيل الوافية حول انتشار الإسلام في سومطرة، وشبه جزيرة الملايو وجاوة وجزر الملوكو ويورنيو وسوندا الصغرى وسواها. انظر: أندونيسيا الثائرة، ص٥٠ ـ ٥٣.

**الاستعمار البرتغالي:**

قام الاستعمار البرتغالي للسيطرة على أندونيسيا على مبدأ استغلال الموارد الاقتصادية التي اشتهرت بها البلاد لا سيما التوابل والبهارات والافاويه وسواها. وما الدعوة لنشر النصرانية سوى شعار حمله البرتغاليون لتحقيق أهدافهم الاقتصادية الكبرى. وباتت هذه الأهداف الاقتصادية محور السياسة البرتغالية طوال قرن من الزمن.

لهذا احتل البرتغاليون ملقا عام (٩١٧هـ ـ ١٥٠٩م)، واتخذوا منها قاعدة لشن الحملات على الجزر الأندونيسية وخاصة جزر الملوك (جزر التوابل)، وقد تمكنوا من السيطرة على شمالي سومطرة عام (٩٢٨هـ ـ ١٥٢٠م)، ووصلوا إلى جزيرة سيليبس عام (٩٤٧هـ ـ ١٥٤١م)[١]. كما أن الإسبان قد وصلوا إلى جزيرة بورنيو وإلى جزر الملوك عام (٩٢٨هـ ـ ١٥٢٠م)، بعد مقتل قائدهم ماجلان في جزر الفليبين بعد أن أظهر تعصبه الديني علناً وأراد فرضه على السكان. ولم تستطع إسبانيا تثبيت أقدامها في أندونيسيا[٢].

وكانت أحوال أندونيسيا السياسية والعسكرية ملائمة لتحقيق أهداف البرتغاليين، لأن الصراع كان على أشده بين الحكام المسلمين والممالك الهندوكية القديمة. واستغل البرتغاليون هذه الأوضاع، واحتلوا أندونيسيا بعد تحقيق النصر على أهل البلاد، ولكنهم لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم إلا بعد أن عقدوا معاهدات واتفاقيات مع حكام البلاد المسلمين.

وبعد أن استولى البرتغاليون على أندونيسيا حرصوا على إنشاء القواعد العسكرية الحصينة في الجزر، وأقيمت الحراسة البحرية لمنع السفن الأجنبية المنافسة من الوصول إليها، وتركزت كل التجارة في ملقا، وعادت هذه التجارة بأرباح وفيرة، ولكن البرتغاليين كانت تعوزهم اليد العاملة للمحافظة عليها[٣].

والحقيقة فقد أبدى الأندونيسيون مقاومة واضحة المعالم ضد البرتغاليين. وقد اتخذت تلك الحروب شكل الحروب الصليبية، وذلك نظراً لقرب عهد

---

(١) تشستربين: الشرق الأقصى، ص٤٥ ـ ٤٧.

(٢) د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٧٥.

(٣) تشستربين: المرجع السابق، ص١١٨ ـ ١١٩.

الأسبان بمحاربة المسلمين في الأندلس وإخراجهم منها فضلاً عن الصراع العثماني ـ الأوروبي في الوقت ذاته. وكان البرتغاليون يهدفون إلى ضرب اقتصاديات المسلمين في أندونيسيا والسيطرة على تجارتهم، ومحاولة نشر النصرانية، ولذا فإن المقاومة ضدهم كانت عنيفة من قبل المسلمين، وقام المسلمون بثورات ضد البرتغاليين، وقاوموا نشر النصرانية، وخاصة بعد أن قتل أحد ملوك أندونيسيا غدراً عام (٩٧٨هـ ـ ١٥٧٠م) وهو هارون سلطان جزيرة ترنات الذي امتدت سلطته حتى الفليبين[١].

والأمر الملاحظ أن الحملات البرتغالية توالت على شرق آسيا بهدف استنزاف خيرات البلاد والسيطرة على البهارات واحتكارها لصالحهم، واستخدموا كل أنواع القمع والإرهاب ضد المسلمين، ومنها إعدام دفعات متتالية من الأهالي، وبناء حصن بحجارة انتزعوها من قبور المسلمين. وظل البرتغاليون يحتكرون نقل تجارة التوابل إلى أوروبا حتى عام (٩٨٨هـ ـ ١٥٨٠م)[٢]، حيث استولت إسبانيا على البرتغال، فآلت إليها البرتغال بكل ما لها من ممتلكات، غير أن إسبانيا لم تستطع الاحتفاظ بممتلكات البرتغال، وذلك بعد هزيمتها أمام إنجلترا في موقعة الأرمادا البحرية عام (٩٩٧هـ ـ ١٥٨٨م). وهذا ما هيأ المجال لدول أخرى أن تتقدم، فأسرعت هولندا التي كانت في حرب مع إسبانيا لتسيطر على أندونيسيا[٣].

ويلاحظ أن الاستعمار البرتغالي لم يكن دافعه دينياً فحسب كما يرى بعض المؤرخين، بل كان يهدف بالدرجة الأولى إلى استنزاف خيرات البلاد، ونهب مواردها الاقتصادية، كما اهتم ببناء الحصون والقلاع الحصينة، واحتكر تجارة الشرق، لهذا كانت النتيجة ضرب المسلمين اقتصادياً، وأصبحت لشبونة عاصمة البرتغال مركزاً رئيساً للسلع الشرقية. وليس هذا فحسب بل انفتح المجال أمام الجمعيات التبشيرية لنشر النصرانية. ومع ذلك فإن البرتغال لم تحقق كل أهدافها

---

(١) تشستربين: المرجع السابق، ص١١٨ ـ ١١٩.
(٢) د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرقي آسيا الحديث، ص١٧٦.
(٣) د. إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث، جـ١، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٧٦.

بعد القضاء على استقلالها ومنافسة الدول الأوروبية لها، ومقاومة المسلمين لها[1].

**الاستعمار الهولندي:**

وصل الأسطول الهولندي إلى سومطرة وجاوه نتيجة ضعف الدولة الإسلامية البنتامية عام (١٠٠٥هـ) حزيران (يونيه) (١٥٩٦م) لأول مرة، وحدث بينهم وبين السكان معارك بعد أن دخلت أول سفينة هولندية ميناء «بنتام». وقد حاول ربان السفينة إقناع السكان أن هدف الهولنديين التجارة فحسب، مع الإشارة إلى أن الاستغلال الاقتصادي لموارد البلاد يعتبر في رأس أولويات الدول الاستعمارية، لأنه سيعقبه أو سيسير معه جنباً إلى جنب الاستعمار السياسي والعسكري استناداً إلى روح العصر السائد آنذاك.

وبالفعل ونتيجة للصراع الهولندي ـ البرتغالي في المنطقة آثر الأندونيسيون الوقوف إلى جانب هولندة، مما سهل لها احتكار الغلات ومنتجات وموارد البلاد. ولم يمض وقت قصير حتى امتد النفوذ الهولندي إلى جميع مرافق البلاد، مما سمح لها بالاستقرار وتشييد الحصون والبوارج الحربية التي استطاعت بواسطتها إحكام سيطرتها على البلاد الأندونيسية، وكل ما جاورها من مناطق[2].

وكانت اتفاقيات هولندا عام (١٦٠٠م) مع الأندونيسيين نقطة ارتكاز أساسية لاستغلالها خيرات البلاد، وقد اعتقد الأندونيسيون آنذاك أن هولندا ستكون حليفتهم ضد البرتغال. لقد حاول البرتغاليون الوقوف في وجه الهولنديين، فحركوا سفنهم وأساطيلهم من الهند إلى أندونيسيا لمقاومة الهولنديين، واعتبروا كل سفينة ليست لهم غنيمة يأخذونها ومنها السفن الأندونيسية، فاصطدم البرتغاليون مع الأندونيسيين، وعجز الأسطول البرتغالي عن تحقيق غايته، وفي الوقت نفسه اعتبر الأندونيسيون الهولنديين حلفاء لهم ضد البرتغاليين، وهكذا

---

(١) د. شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص١٩٨، ص١٨٨ ـ ٢٨٩. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٧٧.

(٢) أندونيسيا الثائرة، ص٦٨.

بدأت البرتغال تتزحزح عن مراكزها في تلك الجزر، وإن احتفظت بمركز ملقا مدة أربعين سنة[1].

ونتيجة لذلك أسست هولندا شركة تجارية في ٢٠ آذار (مارس) (١٦٠٢م) سميت بشركة الهند الشرقية الهولندية لاحتكار تجارة التوابل والأفاويه في الشرق، وقد خولتها حكومة هولندا عقد معاهدات ومحالفات لفتح ما تشاء من الأراضي وبناء الحصون وغير ذلك. وقد عزمت الشركة الهولندية على عقد معاهدات مع عدة دول وقوى محلية ودولية من أجل طرد البرتغاليين من الهند ومن أندونيسيا.

والأمر الملاحظ، أنه في عام (١٦١٠م) عين أول حاكم هولندي من قبل شركة الهند الشرقية، للاهتمام بأمور الشركة واستثماراتها هو «بيتر بوت»، وتبين لهذا الحاكم أن الإقامة في «بنتام» يواجه صعوبات بسبب موقف حاكم المنطقة وسكانها، لذا آثرت الشركة الانتقال إلى جاكرتا (بتافيا) استناداً إلى عقد وقعه «بيتر بوت» مع سلطان جاكرتا، على أن تدفع الشركة مقابل اتخاذ جاكرتا مقراً لها مبلغاً معيناً من المال سنوياً. وكان هذا العقد الموقع بين الشركة والسلطان بمثابة مقدمة أساسية لاستقرار هولندا في البلاد الأندونيسية[2].

ومنذ ذاك التاريخ بدأت الشركة تحقق أرباحاً كبيرة، ووطدت أقدامها في أندونيسيا بعد سيطرتها تماماً على جاكرتا، كما أن أنطوني فان ديميين الذي عين حاكماً عاماً في عام (١٦٣٣م) هو الذي شاد صرح الإمبراطورية الهولندية وقضى نهائياً على البرتغاليين، وسقطت كوتشين في عام (١٦٦٠م)، وأعقبتها المحطات التجارية الصغيرة الأخرى في يد الهولنديين الواحدة تلو الأخرى. واحتكرت الشركة الهولندية التجارة بجزيرة جاوه، وحافظت على نفوذها السياسي، وانتزعت الأملاك من أيدي ملاكها، فلما قاومها السكان أخمدت مقاومتهم بالقوة[3].

ومما يؤسف له أن هولندا لم تراع التحالف والاتفاقيات التي تمت ضمناً

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢٠، ص٣٨٣، د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٧٧.

(٢) أندونيسيا الثائرة، ص٦٨.

(٣) د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٧٨. انظر أيضاً: بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية: ص٥٦ ـ ٥٨. انظر أيضاً:
Panikar, K.M: Malabar and the Dutch, Bombay 1930.

بينها وبين الأندونيسيين، فما إن حرجت البرتغال من ساحة الصراع العسكري حتى انقض الهولنديون على الجزر الأندونيسية، وعلى السكان يعملون سلباً ونهباً وقتلاً وشنقاً. واستطاعت هولندا توطيد نفوذها في أندونيسيا، وقضت على مقاومة المسلمين في هذه الممالك، وإن كانت قد عجزت عن القضاء على السلطان عبد الفتاح سلطان بنتام لولا أنها اتبعت أسلوب الغدر والخيانة ضده. وبدأت توسع سلطاتها تدريجياً وتقيم القلاع والحصون، ومن أهمها حصن بتافيا (جاكرتا) حالياً. ومع ذلك لم تستطع هولندا بسط نفوذها على المناطق الداخلية. واتخذ الهولنديون جزر المحيط الهادئ أساساً لنشاطهم، فعملوا على تنمية تجارتهم مع الصين واليابان، واحتل أسطولهم جزيرة فرموزا بعض الوقت، وكانت لهم علاقات تجارية مع الصين، وبفضل هذه العلاقة أدخل الشاي إلى بلاد الغرب، كما كان لاتصالهم باليابانيين أثر في إثارة الرغبة لدى الأوروبيين لمعرفة تلك الجزر[١].

وهكذا فقد نجح الهولنديون في السيطرة على ملقا وسيلان وكوتشين بالهند وأندونيسيا وأقاموا منها إمبراطورية تقوم على الاحتكار التجاري.

**الصراع الأوروبي ـ الأوروبي على خيرات أندونيسيا:**

نتيجة للمنتجات الأولية الغنية التي تتميز بها البلاد الأندونيسية، فقد أضيف إلى الصراع الاستعمار في المشرق العربي، الصراع الاستعماري في الشرق الأقصى، وفي مقدمتها في أندونيسيا. فقد بدأ الصراع الهولندي ـ البريطاني في المنطقة منذ عام (١٦١٩م) من أجل السيطرة على مقدرات البلاد، وقد انعكس ذلك على مناطق أخرى في الشرق والغرب. وفي هذه الأثناء باتت شركة الهند الشرقية الهولندية غير قادرة على حماية مرافقها نتيجة للأخطار الداخلية والخارجية، مما دعاها للجوء للحكومة الهولندية وأوكلتها إدارة الجزر الأندونيسية مقابل شروط اقتصادية، وكان ذلك عام (١٨٠٠م)، ومنذ التاريخ أصبحت جاوه في حوزة الحكومة الهولندية.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الحكومة الهولندية تستعمر أندونيسيا، وتسير على

---

(١) د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٧٩.

السياسة التعسفية نفسها التي سارت عليها الشركة في حكمها لتلك البلاد. واتبع الهولنديون نظام الحكم غير المباشر ليسهل لهم السيطرة على هذه المساحات الواسعة، فكانوا ينصبون الأمراء والزعماء المحليين لحكم الأهالي ويعرضونهم لسخط المواطنين وتذمرهم، وأدخلت هولندا بعض المحاصيل الجديدة إلى أندونيسيا وأجبرت الأهالي على زراعتها، وتسليم محصولها إلى السلطات الحاكمة بالثمن الذي تحدده، كما استنزفوا ثروات البلاد وخيراتها[١].

ونظراً لأهمية وغنى ثروات أندونيسيا، فقد تقدمت بريطانيا في عام (١٨١١م) واستولت على جاوه بقيادة القائد «ستافورد رافلز» الذي سيطر على بتافيا، وقد استمرت تحت حكم الإنجليز حتى عام (١٨١٦م). ونظراً للتسويات السياسية الدولية التي تعقد بين دول الاستعمار، فقد تم الاتفاق بين إنجلترا وهولندا على جلاء الإنجليز عن جاوه، مقابل تنازل هولندا عن «ملقا» التي استولت عليها بعد انهزام البرتغاليين، وبذلك رجعت السلطة الهولندية إلى جاوه مرة أخرى، وأصبحت ملقا في شبه جزيرة الملايو تحت سيطرة النفوذ البريطاني[٢].

وفي الوقت ذاته، وفي خلال الحروب النابليونية التي اجتاحت أوروبا في القرن التاسع عشر، استولت القوات الفرنسية على هولندا، ومدت فرنسا نفوذها إلى أندونيسيا للاستيلاء على مستعمرات هولندا عام (١٨١١م)[٣]، في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تتدخل في أندونيسيا، فاحتلت مراكز الشركة الهولندية في أندونيسيا (جاوه، تيمور، مكسر، سومطرة)، غير أنه بانهزام نابليون وعودة استقلال هولندا مرة ثانية عادت ممتلكاتها في أندونيسيا بموجب اتفاق عقد بين هولندا وبريطانيا عام (١٨١٤م) تنازلت بموجبه هولندا عن سيلان (الهند) والكاب في جنوب أفريقيا وبعض جزر الهند الشرقية والغربية. كما استولت بريطانيا على

(١) د. إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي، جـ١، ص٢٩٠. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٨٠.
(٢) أندونيسيا الثائرة، ص٦٩.
(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: بانيكار: المرجع السابق، ص٥٨ ـ ٥٩. وانظر كذلك: **Panikar, K.M: Malabar and the Dutch.**

سنغافورة والملايو. وانتهى التنافس بينهما في الشرق الأقصى عام (١٨٢٤م)، ورفع الهولنديون رايتهم من جديد فوق بتافيا (جاكرتا)[١].

ونتيجة للحروب التي خاضتها هولندا في القارة الأوروبية وفي أندونيسيا، تراكمت الديون على الحكومة الهولندية، فزادت الضرائب على الأندونيسيين، وأجبرت الأهالي على زراعة محاصيل تحتاج إليها السوق العالمية، فثار الشعب وقاوم المستعمر.

هذا ويمكن تقسيم النفوذ الهولندي في أندونيسيا إلى ثلاث فترات تاريخية، وهي:

١ ـ **المرحلة الأولى**: بين أعوام (١٨١٧ ـ ١٨٥٠م) وهي مرحلة البناء والتشييد، وفيها خاضت هولندا حروباً ضد بريطانيا وبلجيكا وضد الأندونيسيين، فارتبكت ماليتها واشتدت حاجتها إلى المال، ففرضت ضرائب باهظة على السكان، واقتصر دور السلطات الهولندية على توطيد نفوذها في جزيرة جاوه.

٢ ـ **المرحلة الثانية**: بين (أعوان ١٨٥٠ ـ ١٩٠٤م) وفي خلال تلك المدة بدأت الأوضاع تستقر بالنسبة للهولنديين في جزيرة جاوه، فبدأوا ينطلقون إلى توسيع ملكهم، فحدثت بينهم وبين مملكة آتشيه في شمالي سومطرة حرب مقدسة كبّدتهم خسائر كبيرة في الأموال والعتاد والرجال.

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: بين أعوام (١٩٠٤ ـ ١٩١٤م) وفي هذه الفترة بلغ النفوذ الهولندي أوج قوته، فاستطاعت هولندا أن تخضع معظم ملوك أندونيسيا لسلطانها، إما بطريق الحرب أو بطريق الخدعة، ولكنها لم تحاول أن تظهر للشعب الأندونيسي بوجهها الاستعماري البغيض، فحكمت البلاد عن طريق حكامها وسلاطينها القدامى، مع الاحتفاظ لهم بما كانوا يتمتعون به من أبهة وجاه[٢].

وفي هذه المراحل الثلاث شهدت أندونيسيا استنزافاً اقتصادياً لخيراتها

---

(١) محمد أسد شهاب: صفحات من تاريخ أندونيسيا، ص٣٢ ـ ٣٥، د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٨١.

(٢) علي الطنطاوي: أندونيسيا، ص٥٥.

ومقدراتها، فكانت هولندا والمؤسسات الاقتصادية الهولندية تتقدم وتتطور، بينما كانت أندونيسيا وشعبها تستنزف مقابل فتات من هذه الخيرات التي هي في الأساس من حق الأندونيسيين. مما دعا الشركات الأجنبية الأخرى لاستثمار أموالها في أندونيسيا، كما شهدت البلاد موجة من الهجرة الأوروبية والآسيوية طمعاً في استغلال موارد البلاد.

**الحركة الإسلامية والوطنية الأندونيسية في مواجهة الاستعمار الهولندي:**

شهدت أندونيسيا طيلة فترة الاستعمار الهولندي حركة استنزاف اقتصادي على غاية من الخطورة، واستمرت هذه الحركة رغم معارضة الأندونيسيين لها بسبب التفاوت في الأساليب والإمكانيات بين الهولنديين والأوندونيسيين، غير أن عدة عوامل أساسية أدّت بالأندونيسيين للتحرك والمقاومة، وهذه العوامل تتمثل بما يلي:

١ ـ حركة العلماء المسلمين القادمين من مكة المكرمة لا سيما في مواسم الحج، حيث قاموا بدور بارز في إثارة روح المقاومة وتحدي السيطرة الهولندية.

٢ ـ المساجد والكتاتيب الإسلامية التي كانت تبث روح التحرر والجهاد ضد العدو المغتصب للأرض ولخيراتها.

٣ ـ الدولة العثمانية التي كانت تعتبر في تلك الفترة دولة عظمى ومؤثرة في سير الأحداث الدولية والعربية والإسلامية. فقد كانت هولندا ودول أوروبا تخشى القوة العثمانية.

٤ ـ الإمبراطورية المغولية في الهند، كانت تعطي الأندونيسيين قوة دفع إضافية ضد الهولنديين.

ومن الحركات المناهضة للهولنديين حركة السلطان عبد الفتاح سلطان بنتام عام (١٦٣٠م)، الذي اتصل بالدولة العثمانية لمساعدته والوقوف معه ضد الاحتلال الهولندي لأندونيسيا، وقد قدم العثمانيون مساعدات وإرشادات ونصائح عسكرية، غير أن انشغال الدولة العثمانية في أوروبا والمشرق لم يسمح لها بتقديم المساعدات، وبالتدخل العسكري اللازم، غير أن الدعم العثماني المعنوي أثر إيجاباً على مقاومة السلطان عبد الفتاح ضد الهولنديين الذي استطاع تكوين جيش من الأندونيسيين، كما بنى أسطولاً قوياً لمواجهة الأسطول الهولندي. وبسبب

عدم التوازن العسكري فقد استطاع الهولنديون هزيمة الأندونيسيين والقضاء على ثوراتهم المتكررة سواء حركة السلطان عبد الفتاح، أو حركة القائد سرياتي في جاوه، أو حركة الشيخ يوسف، غير أن ذلك لا يعني مطلقاً انتهاء فكرة المقاومة الإسلامية الأندونيسية(١).

ومن الحركات التحريرية الأندونيسية البارزة، هي الحركة التي قام بها الأمير «ديبونجارا» في جاوه، واستمرت لمدة خمس سنوات بين أعوام (١٨٢٥ ـ ١٨٣٠م)، ونظراً للمقاومة الباسلة، فقد أنفقت الحكومة الهولندية لمواجهة حركة المقاومة ملايين من الروبيات، فضلاً عن الشهداء المسلمين وكثرة القتلى من الهولنديين الذين بلغ عددهم حوالي خمسة عشر ألفاً. ولم تنته هذه الحركة الإسلامية إلا نتيجة قيام الحاكم الهولندي «دي كوك» بخداع الأمير «ديبو نجارا» نتيجة التشاور والتباحث معه، فخدعه واعتقله، وأصدر قراراً بنفيه إلى جزيرة سيليبس حيث انتقل إلى رحمة ربه في ٨ شباط (فبراير) عام (١٨٥٥م). ومنذ نشوء حركته بات «ديبو نجارا» رمزاً من رموز الوطنية والإسلام في أندونيسيا، وقد أطلق اسمه على أهم شوارع جاكرتا(٢).

وكان لحركة «ديبو نجارا» آثارها الإيجابية فيما بعد على تفعيل دور الحركة الوطنية والإسلامية في أندونيسيا، بدليل استمرار الجهاد ضد الهولنديين، فقامت جماعة بدري الإسلامية التي قادها مؤيدوها وأنصارها وأعلنوا الجهاد ضد الهولنديين واستطاعوا الانتصار، وأقاموا حكماً يرأسه ثمانية علماء، ومن أشهر الأبطال فيها الشيخ مصطفى سحاب، ثم أشعلت هولندا الحرب الأهلية، بينما أعلنت الحرب على جماعة بدري، واستمرت الحرب خمسة عشر عاماً في الفترة الممتدة بين (١٨٢٥ ـ ١٨٤٠م). وكان الهولنديون كعادتهم ينتصرون على الملوك المحليين لا بالقوة العسكرية وإنما بالخديعة والمكر والخيانة، وإن كان النصر يتم أحياناً على بعض الملوك بالعنف والقوة والسلاح(٣).

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: بانيكار: آسية والسيطرة الغربية، ص١١٨ ـ ١٢٠. انظر أيضاً:
**Cobden, Richard; Political Writings of Cobden, Vol 2, pp.25 - 106, London 1867**
في هامش ص١٨٣.

(٢) د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٨٤.

(٣) أندونيسيا الثائرة، ص٦٩ ـ ٧٠. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا =

ومن أشهر الحروب التي قامت في البلاد ضد الهولنديين، تلك التي قامت في مملكة «آتشيه» بين أعوام (١٨٧٣ ـ ١٩٠٣م)، وهي الحرب التي انهكت القوات الهولندية. ولوحظ أنه نتيجة لهذه الحرب فقد استفادت المقاومة في سومطرة من إنهاك القوات الهولندية، غير أن الهولنديين استطاعوا فيما بعد احتلال قصر السلطان علي الدين محمود شاه في مدينة كوتاراجا في ٢٤ كانون الثاني (يناير) عام (١٨٧٤م)، كما أسر الحبيب عبد الرحمن منفث الذي يمثل روح المقاومة، ثم أبعد خارج البلاد.

وبعد أن توفي السلطان علي الدين محمود شاه بايع الشعب ابنه الأمير محمد داود في أحد مساجد مدينة أندرفورا، وعلى الفور أعلن الجهاد المقدس ضد الهولنديين، وقد أبلت المقاومة الإسلامية بلاءً حسناً ضد الاستعمار الهولندي الذي بذل ـ كعادته ـ جهوداً عظيمة للقضاء على هذه الحركة وسواها من حركات الجهاد والمقاومة. وفي عام (١٨٧٩م) استطاعت هولندا السيطرة على معظم ولايات «آتشيه» باستثناء المقاطعات التي كانت ما تزال تجارب الهولنديين بقيادة المجاهد تونكو عمر وزوجته[١].

ومن الأهمية بمكان القول: إن الحكومة الهولندية وبالرغم من الخسائر المادية والخسائر البشرية التي تكبدتها، غير أنها كانت تعتبر أن مصالحها على المحك، ويجب أن تقوم بجميع المبادرات لحفظ مصالحها في أندونيسيا، لهذا أرسلت عام (١٨٩٢م) المستشرق الهولندي الدكتور «سنوك» لدراسة الموقف عن قرب، وقد كتب تقريراً جاء فيه: «توجد في جميع أرجاء آتشيه حركة مقاومة شديدة ضد هولندا تحت قيادة رجال الدين، وإني على يقين بأن تلك الحركة لا يمكن إخمادها إلا بقوة السلاح»[٢].

وبالرغم من هذا التقرير، غير أن الحكومة الهولندية حاولت في بعض الأحيان اتباع أسلوب اللين والتقرب من الشعب، غير أن هذه السياسة لم تجدِ نفعاً، بل فوجئت بأن حركة المقاومة اشتعلت مجدداً في «آتشيه» في عام

---

= الحديث، ص١٨٥، د. إسماعيل ياغي، محمود شاكر: المرجع السابق، ص٢٩١.

(١) د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٨٥.

(٢) أندونيسيا الثائرة، ص٧٠.

(١٨٩٦م) بقيادة الزعيم تونكو عمر الذي انضم إليه الزعماء والعلماء، وتمت مواجهات عنيفة بين الجانبين. وفي أول تموز (يوليه) (١٨٩٨م) توجهت القوات الهولندية إلى مدينة غاروت مركز قيادة تونكو عمر لممارسة ضغوطها العسكرية إلى المجاهدين، الأمر الذي اضطر تونكو عمر للانتقال إلى «آتشيه الغربية»، فعمدت القوات الهولندية لمحاصرته في مقره الجديد في ١٣ أيلول (سبتمبر) عام (١٨٩٨م)، لكنه استطاع الإفلات منها. واستمر يقود الشعب مقاتلاً ضد الاستعمار الهولندي حتى سقط شهيداً في ميدان القتال في ١١ شباط (فبراير) عام (١٨٩٩م). وبعد وفاته تولت القيادة زوجته «شوت ينأدين» التي استمرت تقاوم الهولنديين حتى مطلع القرن العشرين، حيث انتهت المقاومة المنظمة عام (١٩٠٤م). وبذلك سقطت آخر مملكة مستقلة في أندونيسيا تحت براثن الاحتلال الهولندي[١].

لقد حاولت الحكومة الهولندية تغيير سياستها لخداع الشعب الأندونيسي، فاعتمدت سياسة «الباب المفتوح» مما سمح لسواها من الدول والشركات ورؤوس الأموال الأجنبية للتدفق على أندونيسيا، فانتشرت الشركات والمؤسسات لاستغلال الأراضي والمناجم، وتسربت الأراضي إلى المحتكرين الأجانب، وازداد الفقر، وذهبت خيرات أندونيسيا إلى الشركات الأجنبية[٢].

لقد تنبه بعض الأندونيسيين لهذه السياسة الاقتصادية الاحتكارية، وأدركوا أن لا سبيل للخلاص أو للحد من الاحتكارات الأجنبية إلا بتأسيس شركات وطنية، فأسس طلبة الطب عام (١٩٠٨م) أول جميعة منظمة أطلقوا عليها اسم «بودي أوتومو» أي «النزعة الفاضلة». كما أسس التجار أول شركة لهم باسم «الشركة التجارية الإسلامية» في عام (١٩١١م)، وفي عام (١٩١٢م) ظهر أول حزب سياسي هو «الحزب الوطني» بزعامة الأساتذة د. شبتو ود. سواردي، ود. دويس دكر[٣]، وطالب هؤلاء باستقلال البلاد ورحيل هولندة عنها. وكانت ردود فعل الحكومة الهولندية قوياً بحق هؤلاء، حيث تم اعتقالهم ونفيهم إلى خارج البلاد.

---

(١) أندونيسيا الثائرة، ص٧١. (٢) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٣) الدكتور دويس دكر هولندي انقلب على الهولنديين نتيجة فظائعهم وممارساتهم ضد الشعب الأندونيسي.

وفي عام (١٩١٢م) أسس العلماء المسلمون بقيادة الشيخ أحمد دحلان جمعية منظمة لمقاومة التبشير والتعليم المسيحي الذي كانت تستعمله الحكومة الهولندية لمقاومة الحركات الإسلامية والوطنية. وقد أطلق دحلان على تلك الجمعية اسم «الجمعية المحمدية»، كما أسس المدرسون الحكوميون جمعية خاصة لتنظيم صفوفهم لمواجهة السلطات الهولندية[١].

وفي عام (١٩١٣م) ظهر حزب جديد مقاوم هو «الحزب الإسلامي» «شركت إسلام» برئاسة الحاج عمر سعيد شكرو أمينوتو، فانضم إليه الكثير من المسلمين في أنحاء البلاد، وبدأ يشكل قوة ضاغطة على الحكومة الهولندية نظراً لمطالبه الشعبية والوطنية. ولما أبدت الحكومة سياسة التعاون مع الأحزاب والقوى السياسية، طالب هذا الحزب بحقوق الشعب، فتبين لقادته خداع هولندا ومماطلتها مدعية أن المجلس النيابي يمكن إقامته وبواسطته تتحقق المطالب الوطنية، مما دعا بعض القوى الأندونيسية للاحتجاج والتمرد على سياسة المماطلة ونشأت حركات متطرفة، كما لجأ بعضهم إلى تكوين الحزب الشيوعي الأندونيسي عام (١٩٢٠م). ولم يأت عام (١٩٢٢م) إلا وقد عم أندونيسيا مبدأ «عدم التعاون». ثم تفاقم الأمر وعمت الاضرابات والاضطرابات والاحتجاجات، وإلى اندلاع نار الثورة في عامي (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧م)، فاضطرت هولندا للاستعانة ببعض الدول الأوروبية لقمع الثورة.

ونتيجة لحركات القمع المستمرة، تأججت نار الثورة وتفاعلت الحركة الوطنية مع فئات الشعب، وظهر حزب جديد في عام (١٩٢٧م) هو «الحزب الوطني الأندونيسي» بزعامة الزعيم أحمد سوكارنو[٢] الذي يرجع إليه الفضل في

---

(١) انظر: أندونيسيا الثائرة، ص٧٩.

(٢) ولد أحمد سوكارنو عام ١٩٠١م في مدينة «بليتار» (Blitar) في جاوه الشرقية من أم بوذية براهماتية ومن أب جاوي اسمه سوكيمي كان مدرساً. وكلمة سوكارنو لغة مشتقة من سو بمعنى: طيب، جميل، ممتاز، وكارنو بمعنى: بطل؛ أي البطل الجميل أو الممتاز. تلقى سوكارنو دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية في أندونيسيا. تزوج من أوتاري (Oetari)، ابنة الحاج عمر سعيد جوكر أمينوتو زعيم حزب «شركت إسلام» ما لبث أن طلقها وتزوج بسواها عام ١٩٢٣م، ثم تزوج فيما بعد بأكثر من واحدة، كما أقام علاقات غير شرعية مع الكثيرات من هولنديات ويابانيات وأندونيسيات وأوروبيات وأميركيات عام ١٩٢٥م =

تفعيل أعمال المقاومة وتأجيجها ضد المحتل الهولندي. ورأت السياسة الهولندية خطراً واضحاً في هذا الحزب فعمدت إلى تقويضه بإلقاء القبض على زعيمه سوكارنو وزملائه، وألغت الحزب والاجتماعات الحزبية، ومارست الرقابة الشديدة على الصحف، واعتقلت الزعماء المسلمين والوطنيين منهم الزعيم محمد حتي وشهرير.

والأمر الملاحظ أن القوى الإسلامية الوطنية كانت تطالب هولندا باستمرار تحقيق وعودها التي أطلقتها للأندونيسيين قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) وهي إعطاء أندونيسيا الاستقلال وحق تقرير المصير، غير أن هولندا لم تفِ بوعودها، كما أن مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس في كانون الثاني (يناير) عام (١٩١٩م) لم يحقق هذه المطالب. لهذا استمرت المطالبات بالحرية والاستقلال، ففي ١٤ شباط (فبراير) من عام (١٩٤١م) عقد اجتماع بين ممثلي الحكومة الهولندية وممثلي الأحزاب الوطنية في مدينة جاكارتا بجاوه وقدمت الأحزاب مذكرة إلى الحكومة تتضمن مطالبها بشأن إنشاء البرلمان الحقيقي، وجعل مركز أندونيسيا السياسي كمركز هولندا نفسها، ولا تخضع للحكومة الهولندية بل للتاج الهولندي فقط، وتكون أندونيسيا شريكة مستقلة لبلاد هولندا تحكم نفسها بنفسها وتدافع عن نفسها وتنظم علاقاتها بالدول(١). وقد وعدت ملكة هولندا في خطبة شهيرة لها في ٦ كانون الأول (ديسمبر) عام (١٩٤٢م) بتحقيق الوعود التي لم تتحقق في الفترة المرجوة.

---

= تخرج برتبة منهدس معماري، وفي عام ١٩٢٧م، أسس مع آخرين «الحزب الوطني الأندونيسي»، ونظراً لنضاله نفته هولندا أكثر من مرة إلى بعض الجزر الأندونيسية النائية.

في عام ١٩٤٥م تم اختيار سوكارنو رئيساً للجمهورية قبل إعلان استقلال أندونيسيا عام ١٩٤٦م. وبعد أن تولى الحكم تعرض لمحاولات اغتيال عديدة باءت جميعها بالفشل. اتهم فيما بعد بالفساد بالتعاون مع القوى الشيوعية، التي أراد أن يسلمها مقاليد الحكم، لهذا سلم مقاليد الحكم إلى الجنرال سوهارتو في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٦٧م بعد أن ثار الشعب ضده، وفي ١٢ آذار (مارس) ١٩٦٧م أقسم سوهارتو اليمين الدستورية أمام المجلس الاستشاري الأعلى وتسلم السلطة. انظر: محمد أسد شهاب: صفحات من تاريخ أندونيسيا المعاصرة، ص٧٤ ـ ١٤٤.

(١) أندونيسيا الثائرة، ص٨٢.

وخلال فترة ما بين الحربين تعرضت أندونيسيا لأزمة اقتصادية نتيجة منافسة الشركات الأجنبية والأزمة العالمية، فتعرض الاقتصاد الأندونيسي لضربات شديدة، وقل الإقبال على شراء المنتجات الزراعية والصناعية الأندونيسية، وتوقفت حركة التبادل التجاري، وانخفض مستوى المعيشة وواجهت الصناعات الوطنية مقاومة من الصناعات الأجنبية فصمد بعضها وتوقف بعضها الآخر، وأصر الشعب الأندونيسي على مقاومة الصناعات الأجنبية. لذا نشأت أحزاب سياسية ذات برامج اقتصادية، مثل الحزب الأندونيسي الذي أنشأه الدكتور محمد حتي وكيل رئيس الجمهورية أحمد سوكارنو، والحزب الوطني الذي أنشأه أحمد سوكارنو أحد القادة الأندونيسيين البارزين وحزب اتحاد الشعب الأندونيسي الذي أنشأه سوتومو. وقد عرف هذا الحزب فيما بعد باسم «حزب أندونيسيا العظمى»، وكان له أيضاً برنامج اقتصادي شامل، فنادى بتكوين بنك وطني أندونيسي لتمويل المشروعات الاقتصادية الوطنية، وإيجاد اتحادات ونقابات لمختلف المهن للنهوض بمستوى الصناعة والصناعيين[1]. غير أن هولندا عملت على إفشال جميع هذه المحاولات الهادفة للنهوض بالمجتمع الأندونيسي، وقيدت الحريات واعتقلت الزعماء السياسيين ونفتهم إلى الخارج.

ويرجع اهتمام هولندا والشركات الأوروبية المستمر بأندونيسيا لأهميتها في الاقتصادين الهولندي والأوروبي، إذ إن الأموال المستثمرة في أندونيسيا بلغت عام (١٩٣٧م) مبلغ ٣٧٠ مليوم جنيه، منها ٢٥٠ مليوناً لهولندا، و٥٠ مليوناً لبريطانيا، و٢٤ مليوناً لأمريكا، وقد زادت رؤوس الأموال هذه زيادة كبيرة وحققت أرباحاً كبيرة على حساب الشعب الأندونيسي، وإن نظرة فاحصة للدخل الأندونيسي تكفي لمعرفة الغبن الواقع على الأندونيسيين. فالأندونيسيون البالغة نسبتهم ٩٧,٥٪ من عدد السكان لا يتجاوز ما يحصلون عليه من دخل البلاد ١٢,٥٪ بينما نجد أن الهولنديين الذين لا تتجاوز نسبتهم ٠,٥٪ من عدد السكان يتجاوز دخلهم ٦٥٪ من هذا الدخل، ويحصل الأجانب ونسبتهم ٣٪ على دخل نسبته ٢٢,٥٪[2].

---

(١) د. إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي، جـ١، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٨٩.

(٢) للمزيد من التفاصيل عن الحياة الاقتصادية في أندونيسيا راجع: أندونيسيا الثائرة، =

وعندما بدأت ملامح الحرب العالمية الثانية تظهر في الأفق وقعت هولندا في قبضة الاحتلال الألماني في عام (١٩٤٠م) واستغل الأندونيسيون حاجة هولندا إلى معاونتهم في المطالبة بمنحهم دستوراً حقيقياً يحقق رغبة الشعب في اشتراكه الفعلي في الحكم، ولكن هولندا رفضت هذه المطالب. وبينما كانت المفاوضات الأندونيسية الهولندية تتعثر إزاء تمسك كل طرف بوجهة نظره، داهم أندونيسيا الخطر الياباني. وكانت اليابان إحدى دول المحور، واستولت على أندونيسيا عام (١٩٤٢م)، فوقعت أندونيسيا بذلك تحت الاحتلال الياباني(١).

**احتلال اليابان لأندونيسيا:**

احتل اليابانيون أندونيسيا لأسباب تتعلق بتاريخ اليابان الحديث، وبتطورها الاقتصادي في القرن التاسع عشر، وأخذها بأسباب الحضارة الأوروبية في نظمها الاقتصادية والسياسية، كما مارست سياسة التصنيع على نطاق واسع، مما دفعها إلى إيجاد مجال حيوي لها في الدول المجاورة خاصة بعد زيادة عدد سكان اليابان وزيادة الإنتاج الصناعي زيادة كبيرة. ولذا نظرت اليابان إلى الشرق الأقصى كمجال حيوي لنشاطها التجاري. ونادت بمبدأ «آسيا للآسيويين»، وعملت على منع التدخل الأوروبي في الشرق الأقصى، فخاضت اليابان حرباً مع الصين بشأن كوريا عام (١٨٩٤م)، وضمتها إليها. ثم أعقبتها الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥م) بخصوص الاستيلاء على إقليم منشوريا، وإبعاد النفوذ الروسي عن سواحل المحيط الهادي المواجه لليابان. وفي عام (١٩٣٧م) دخلت اليابان في حرب مع الصين، وعدها المؤرخون بداية للحرب العالمية الثانية. ثم أخذت اليابان تتطلع إلى أندونيسيا بعد أن ارتبطت معها بروابط تجارية واسعة، وحاولت اليابان إدخال أندونيسيا في مضمار الاتحاد الاقتصادي الذي أطلقت عليه اسم «منطقة الرخاء الآسيوية» المشتركة بهدف إبعاد النفوذ الأجنبي عن تلك المنطقة الآسيوية، ورفضت هولندا ذلك، ولكن اليابان أصرت على ذلك ونفذته بالقوة فكان الاحتلال الياباني(٢).

---

= ص٨٥ ـ ١٠٥، مع الاطلاع على الجداول والاحصاءات الخاصة بالإنتاج الزراعي والصناعي.

(١) د. إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي، جـ١، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، جـ٢٠، ص٣٠٥ ـ ٣٠٩.

لقد حاول اليابانيون في أول الأمر وخلال ثلاث سنوات ونصف استمالة الأندونيسيين، وإفهامهم أن سبب مجيئهم إلى البلاد ليس سبباً استعمارياً، وإنما لإنقاذ الشعب الأندونيسي من براثن الاحتلال الهولندي الذي احتكر واستغل خيرات البلاد. وما هي إلا سنوات قليلة حتى تبين أن اليابانيين في تعسفهم واستغلالهم ليسوا أقل احتكاراً من الهولنديين، الأمر الذي أدّى إلى ولادة حركات تحريرية واستقلالية ضد اليابانيين، فقامت ثورات عديدة منها ثورات: بليتار، تاسيكمالايا، أندرامايو في جاوه وثورات أخرى في سومطرة وبورينيو الغربية وسواها.

وكانت العوامل التي أدّت إلى قيام هذه الثورات ضد اليابان، هي العوامل ذاتها الاقتصادية والسياسية التي قامت ضد الهولنديين، لأنه تبين بأن اليابانيين بدأوا باستغلال خيرات البلاد وتصديرها إلى الخارج واحتكارها على غرار ما كانت تفعله هولندا.

ولما وجد الشعب الأندونيسي أن اليابان غير جادة في منحها الاستقلال، وأن احتلالها وتصرفاتها لا تختلف عن الاحتلال الهولندي، وإرضاءً للأندونيسين صرح الجنرال كوسيو رئيس الحكومة اليابانية في ٦ أيلول (سبتمبر) (١٩٤٤م) بموافقة حكومته على استقلال أندونيسيا، غير أنها ماطلت ولم تفِ بوعودها. لهذا فإنهم هبوا للدفاع عن الاستقلال ومقاومة الاستعمار الياباني، وكان جهاده متواصلاً ضد الاستعمارين الغربي والشرقي[(١)].

وقاد زعماء البلاد حركة مقاومة سرية ضد اليابان، كما عمل زعماء البلاد وعلى رأسهم أحمد سوكارنو ومحمد حتي على إلهاب الشعور الوطني خشية أن تقع بلادهم تحت النفوذ الياباني، كما أسس المسلمون حزب الله بقيادة زين العارفين من جمعية نهضة العلماء، واشترك جميع الأندونيسيين في مقاومة اليابانيين. فلجأت سلطات الاحتلال اليابانية إلى إلقاء القبض على الزعماء الأندونيسيين ومحاكمتهم، وإعدام بعضهم، ونفي بعضهم الآخر خارج البلاد، ثم شددت قبضتها على الشعب الأندونيسي، وفرضت الأحكام العسكرية عليه. وظل

---

(١) انظر: أندونيسيا الثائرة، ص١٧٠.

هذا الوضع قائماً حتى هزيمة اليابان واستسلامها دون قيد أو شرط عام (١٩٤٥م) بعد ضرب الولايات المتحدة الأميركية لمدينتي هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية[١].

**إعلان استقلال أندونيسيا (١٩٤٥م):**

بانتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) تقدم اليابانيون بمشروع لاستقلال أندونيسيا، وكانت اليابان دولة منهزمة أمام الحلفاء، غير قادرة على فرض أي مشروع في هذه الفترة، لهذا فإن زعماء البلاد رفضوا أن يكون استقلالهم منحة وحاولت القوات اليابانية ـ رغم هزيمتها ـ ممارسة ضغوط على الأندونيسيين، وحاولت منع جموعهم المحتشدة في جاكارتا عاصمة أندونيسيا، المطالبة بالحرية والاستقلال، وقد بلغ عدد هذه الجموع المحتشدة في العاصمة والمناطق (٧٠) مليوناً تطالب جميعها بـ«مرديكا» أي الاستقلال. وقد تزعم هذه الحشود أحمد سوكارنو ومحمد حتي وأعلنا في ١٧ آب (أغسطس) عام (١٩٤٥م) استقلال أندونيسيا بعد أن سأل سوكارنو الجماهير في هذا الاحتفال: «ماذا تريدون؟» فأجابوا جميعاً: «الاستقلال». «وهل أنتم مستعدون للدفاع عنه؟» قالوا: «نعم بدمائنا وأرواحنا».

لقد أعلن الاستقلال، ومنذ هذا التاريخ بدأ الأندونيسيون يهاجمون القوات اليابانية لانتزاع السلطة منها والاستيلاء على أسلحتها. وفي أيام قليلة تسلم الشعب الأندونيسي مقاليد الحكم وإدارات الدولة. وتعتبر الثورة الأندونيسية من الثورات الكبرى في العالم في التاريخ الحديث والمعاصر.

**المحاولات الهولندية ـ البريطانية لاحتلال أندونيسيا:**

نزل البريطانيون في جزيرة جاوه في آخر أيلول (سبتمبر) (١٩٤٥م) بعد أن ادعوا في السابق أن نزولهم في أندونيسيا سيكون هدفه تجريد اليابانيين من أسلحتهم وتسلم الأسرى، وإنه ليس لهم شأن في الشؤون السياسية في البلاد. وما أن نزل البريطانيون ومعهم الجنود الهنود في جاكارتا (بتافيا) حتى تبين أن

---

(١) إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي، جا، ص٣٠٢. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٩٢ ـ ١٩٣.

القوات البريطانية سهلت للقوات الهولندية دخول العاصمة وعملت على حمايتها من غضب وثورة الشعب.

والواقع فإن الشعب الأندونيسي ثار ثورة جامحة ضد الهولنديين والبريطانيين، وقاوم هذا الاحتلال الجديد، وأبلي بلاءً حسناً حتى إن معارك مدينة «سورابايا» أطلق عليها اسم «ستالينجراد أندونيسيا» نظراً لما لقيته القوات البريطانية من مقاومة باسلة من الأندونيسيين في مواجهة الدبابات والطائرات والبوارج البريطانية. واستمر هذا الواقع إلى أن أعلن رئيس وزراء بريطانيا المستر أتلي في تشرين الثاني (نوفمبر) (١٩٤٥م) بأن مهمة القوات البريطانية في أندونيسيا هي إعادتها إلى هولندا المستعمرة، بل أكثر من ذلك فإن بريطانيا أجبرت القوات اليابانية المنهزمة مواجهة الشعب الأندونيسي[١]. ومما يؤسف له أنه في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تساعد الاستعمار الهولندي لاستعمار أندونيسيا، كانت في الوقت ذاته تساعد الحركة الصهيونية لاستعمار واحتلال فلسطين.

**قضية أندونيسيا في مجلس الأمن:**

في كانون الثاني (يناير) (١٩٤٦م) افتتحت هيئة الأمم المتحدة في لندن اجتماعاتها، وفي (٢٢) منه بعث الدكتور ديمتري مانوبلسكي رئيس الوفد الأوكراني إلى رئيس مجلس الأمن رسالة جاء فيها:

«خلال شهور عديدة وجهت أعمال حربية ضد الأهالي الوطنيين في أندونيسيا، اشتركت فيها القوات البريطانية النظامية، كما اشتركت فيها القوات اليابانية المسلحة. وتعتقد الحكومة الأوكرانية أن هذا الموقف يخلق حالة تهدد السلم والأمن العالمي وفاقاً للمادة الرابعة والثلاثين من ميثاق الأمم المتحدة». وبهذه الرسالة طلب المندوب الأوكراني إدراج قضية أندونيسيا في جدول أعمال المجلس.

وبالفعل فقد تبين أن الدول العربية كانت في مقدمة الدول التي وقفت إلى جانب أندونيسيا، ومنها: مصر وسوريا، والمملكة العربية السعودية، والعراق، كما وقفت جامعة الدول العربية بشخص أمينها العام عبد الرحمن عزام باشا مؤيداً

---

(١) أندونيسيا الثائرة، ص١٧٣ ـ ١٧٤.

قضية أندونيسيا ومطالب شعبها، وقد أصدرت الجامعة قرار تأييد في ٨ نيسان (أبريل) (١٩٤٦م). كما أكد مجلس الأمن في اجتماعاته على حرية واستقلال أندونيسيا الذي سبق أن أعلنه الشعب الأندونيسي عام (١٩٤٥م). كما تبين من الناحية القانونية أنه لم يعد لهولندا أو لليابان أو لإنجلترا أية حقوق أو سلطات قانونية أو فعلية على البلاد[١].

ونتيجة لتوصيات وقرارات مجلس الأمن، فقد جرت مفاوضات قاسية بين الهولنديين والأندونيسيين، توصل الطرفان بعدها إلى توقيع اتفاقية عام (١٩٤٧م)، وتمت المصادقة على هذا الاتفاقية عام (١٩٤٧م)، وبدأ الطرفان وضع بنودها موضع التنفيذ، وأخطرت هيئة الأمم المتحدة بذلك. غير أن الطرفين اختلفا في تفسير بنودها، وفشلت الجهود جميعها في تنفيذ الاتفاق، وذلك لعدم توافر الثقة بينهما. ونتيجة لذلك هاجمت القوات الهولندية القوات الأندونيسية للقضاء على الاتفاقية المذكورة، وتدخل مجلس الأمن وفرض وقف إطلاق النار، وأوصى بالدخول في مفاوضات في حل النزاع بالطرق السلمية، وعين لجنة وساطة لمساعدة الطرفين على الوصول إلى اتفاق. غير أن هولندا كانت تضع العراقيل أمام اللجان الدولية حتى تبقى على وجودها العسكري، في حين تطالب الحكومة الأندونيسية بالاستقلال وإنشاء اتحاد هولندي أندونيسي. ولم تكتف هولندا بذلك بل أعلنت الحرب عام (١٩٤٩م)، واحتلت جاكرتا عاصمة الجمهورية، وألقت القبض على الرئيس أحمد سوكارنو ووكيله محمد حتي وزجت بهما في السجن[٢].

وإزاء تدهور الموقف في البلاد اجتمع مجلس الأمن عام (١٩٤٩م)، وطالب بوقف إطلاق النار وبعودة قوات الطرفين إلى خطوط الهدنة، ورفضت هولندا ذلك، واستمرت في أعمالها العدوانية، غير أن مجلس الأمن أصر على وقف جميع الأعمال العدوانية، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، فاستجابت هولندا للقرار بعد تهديد الولايات المتحدة الأميركية لها ودول أوروبا. فوافقت على عقد مؤتمر للمائدة المستديرة في لاهاي، وتم عقده في عام (١٩٤٩م)،

---

(١) أندونيسيا الثائرة، ص١٨١ ـ ١٩٥.

(٢) إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: المرجع السابق، ص٣٠٢ ـ ٣٠٤.

ونجح المتفاوضون في إعلان استقلال أندونيسيا واتحادها مع هولندا في السياستين الخارجية والعسكرية. وقد وافق مجلس الأمن على قرارات مؤتمر المائدة المستديرة في لاهاي[١].

وكانت الجماعات الإسلامية قد شكلت حزباً واحداً عرف باسم «مجلس الشورى الإسلامي» أو ما يسمى «ماشومي» وذلك إثر الاحتلال الياباني. وكان الرئيس أحمد سوكارنو قد عهد إلى عامر شرف الدين برئاسة الوزراء ووزارة الدفاع، وسانده الاتحاد السوفياتي وأبرز دور الحزب الشيوعي في الحصول على الاستقلال، غير أن الأندونيسيين عارضوا تعيين عامر شرف الدين، واضطر نائب رئيس الجمهورية إلى إقالته، وتولي مهمة رئيس الوزراء، فثارت ثائرة الشيوعيين، وأعلنوا الثورة على الحكومة وشكلوا حكومة جمهورية أندونيسيا السوفياتية برئاسة عامر شرف الدين ومركزها ماديون. وأعلن المسلمون الجهاد ونجحوا في القضاء على الثورة الشيوعية، وحكم على أنصارها بالإعدام عام (١٩٤٨م)[٢].

لقد دام الشكل الاتحادي للدولة حتى عام (١٩٥٠م)، وقامت وحدة بين الدويلات، وأصبح اسم الدولة جمهورية أندونيسيا، وشكل الحكومة محمد ناصر زعيم حزب ماشومي، ثم استقالت، وشكل الحكومة الجديدة الدكتور سويكيمان وهو من زعماء حزب ماشومي الإسلامي أيضاً، واستمرت في عملها عاماً حيث استقالت، ثم تقرر إجراء انتخابات لمجلس نيابي في عام (١٩٥٥م)[٣]، وألف الحزب الوطني حكومة ائتلافية اشتركت فيها الأحزاب المختلفة، وعلى رأسها حزب ماشومي. ومما يجدر ذكره أن مؤتمر باندونج قد عقد في العام نفسه أي في عام (١٩٥٥م)، وكان أول مؤتمر لدول عدم الانحياز، ويمثل تسعاً وعشرين دولة آسيوية وأفريقية، وكان من أبرز قادته: جمال عبد الناصر (مصر)، نهرو (الهند)، تيتو (يوغوسلافيا)، سوكارنو (أندونيسيا)[٤].

---

(١) د. إسماعيل إحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٩٤.
(٢) د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٩٥.
(٣) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢٠، ص٣٩٨ ـ ٣٩٩.
(٤) ديتس سميث: أندونيسيا شعبها وأرضها، ص٢١٧ ـ ٢١٨.

**محاولات التحول من الديمقراطية إلى الشيوعية أطاحت بالرئيس سوكارنو:**

في عام (١٩٥٦م)، أعلن الرئيس أحمد سوكارنو عن سياسته الجديدة وهي «الديمقراطية الموجهة» إثر زيارته للاتحاد السوفياتي والصين، متأثراً بالتجربة الشيوعية لذا عمد إلى حل الحزب المناهض له وهو «حزب مسجومي»، وأصدر تشريعات أقرب ما تكون بالتشريعات الشيوعية، فعارض الساسة والشعب هذه السياسة، ورفضت الأحزاب السياسية هذه الدكتاتورية، وطالب الشعب باستقالة الحكومة وعودة الدكتور محمد حتي نائب رئيس الجمهورية الذي استقال احتجاجاً على هذه السياسة، فانسحبت الأحزاب الإسلامية من الوزارة وأجبرتها على الاستقالة، وأعلن الرئيس أحمد سوكارنو حالة الطوارئ، وتطبيق الأحكام العرفية في البلاد، ولم يستطع الرئيس سوكارنو تشكيل حكومة ائتلافية، فشكل الوزارة بنفسه بالتعيين، وحدثت أزمة دستورية وحل المجلس النيابي، وتأسس مجلس جديد على أساس «الديمقراطية الموجهة»[١] مما أحدث تخوفاً عند الأندونيسيين من انجرار أندونيسيا نحو الشيوعية، وهي الدولة الإسلامية المحافظة، وهي الدولة التي استضافت دول عدم الانحياز، وكانت من أبرز المؤسسين لهذه الكتلة[٢].

وبعد أن طبق سوكارنو سياسته الجديدة، اعتقل الزعماء المسلمين، وبعد أن حل حزب (مسجومي) (ماشومي)، نشط الحزب الشيوعي، وخلا له الميدان فأعلن أنه سيكون الحزب الوحيد في البلاد، وأنه سيحول السياسة وفق أهدافه ومبادئه، فهاجم الحزب المدارس الإسلامية في عام (١٩٦٤م)، وتكررت هذه الأحداث في عدة مدن. وفي عام (١٩٦٥م) أعلن الشيوعيون ثورتهم متعللين بمرض سوكارنو وعدم اهتمام الجيش بالأمر والأخطار التي تهدد البلاد. وقاد قائد الحرس الجمهوري الثورة في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) (١٩٦٥م)، واعتقل بعض الجنرالات المسلمين، وتم قتلهم والتمثيل بجثثهم. ولكن الجنرال عبد الحارث ناسوتيان أمر الجنرال سوهارتو بالقضاء على الثورة. ونجح سوهارتو بعد ساعات في القضاء على ثورة الشيوعيين، وهب الشعب لملاحقتهم، وسيطرت القوات المسلحة على الوضع. وبدأ الصراع بين سوكارنو وقادة

(١) د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٩٦.
(٢) محمود شاكر: المرجع السابق، ص٤١٠ ـ ٤١٢.

الجيش. وانتهى هذا الصراع بإزاحة سوكارنو من السلطة عام (١٩٦٧م)، وتعيين الجنرال سوهارتو رئيساً للجمهورية. وفي ضوء ذلك اعترفت الحكومة بالحزب الإسلامي الأندونيسي، وأصبح مجموع الأحزاب في أندونيسيا عشرة[١].

**تأميم أندونيسيا للمؤسسات والشركات الهولندية:**

خلال الأحداث الأندونيسية جرت مفاوضات بين هولندا وأندونيسيا حول جزيرة إيريان الغربية، وكانت هولندا تضع العراقيل بشأنها بسبب استثمارها لهذه المنطقة نتيجة وجود النفط في الجزيرة، لذلك عمدت هولندا للمطالبة بجعل جزيرة إيريان جزءاً من هولندا، وقد ساندت الدولة الغربية هذا الطلب، بينما ساند الاتحاد السوفياتي أندونيسيا بسبب اتجاهها الجديد نحو الشيوعية، غير أن الأمم المتحدة لم تؤيد أندونيسيا، فانسحبت أندونيسيا من الأمم المتحدة محتجة بعد فشل المجتمع الدولي في حل المشكلة. لذا بادرت الحكومة الأندونيسية بتأميم المصانع والشركات الهولندية ومختلف المنشآت التابعة لهولندا، ولما تفاحل الأمر، وعرضت القضية مجدداً أمام الأمم المتحدة تدخلت الأمم المتحدة عام (١٩٦٣م)، ووضعت إيريان تحت إشراف أندونيسيا. وانتهت هذه المشكلة في إطار سياسة الأمر الواقع، وعادت أندونيسيا بعد ذلك للأمم المتحدة، ومارست عضويتها بشكل كامل[٢].

ومن الأهمية بمكان القول: إن أندونيسيا التي ناضلت طويلاً ضد هولندا ودول الاستعمار الأخرى مثل: بريطانيا واليابان، استطاعت بالفعل أن تثبت وجودها كدولة آسيوية مهمة، بل وكدولة إسلامية، غير أن الاجتهادات السياسية للرئيس الأول لأندونيسيا أحمد سوكارنو في تبنيه للمبادئ الشيوعية، أطاح بالعديد من المبادئ التي قامت عليها ثورة أندونيسيا ضد دول الاستعمار، لأن الشعب الأندونيسي، وهو الذي قاوم الاستقلال واستثمار خيرات بلاده، رفض أيضاً المبادئ والتشريعات الشيوعية المستوردة التي لا تتلاءَم ومعتقداته الدينية والسياسية، مما أوقع البلاد في فتنة داخلية أنهت رئاسة حكم أحمد سوكارنو الذي لا يستطيع أحد أن يتنكر لنضاله وجهاده من أجل استقلال وحرية بلاده.

---

(١) د. إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: التاريخ الإسلامي، جـ١، ص٣٠٩ ـ ٣١٠. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٩٧.

(٢) انظر: محمد أسد شهاب: صفحات من تاريخ أندونيسيا المعاصرة، ص٢١٩.

ونتيجة للأحداث الداخلية فقد قتل عام (١٩٦٥م) ما بين ٣٠٠ ألف إلى مليون قتيل أندونيسي[(١)].

ومنذ أن تولى سوهارتو رئاسة الجمهورية عام (١٩٦٧م) حاول بدوره توطيد الأمن والاستقرار السياسي والاقتصادي في البلاد، فاعتمد سياسات جديدة في الداخل والخارج، غير أن تدخل الجيش الأندونيسي في السياسة وفساد بعض السياسيين أدخل البلاد في متاهات سياسية وعسكرية، وزاد من الفتن الداخلية مما اضطر بسوهارتو إلى الاستقالة وتسليم الحكم عام (١٩٩٩م). وكانت أندونيسيا خلال هذا العهد عانت من مشاكل أخرى غير المشاكل السياسية والعسكرية والاقتصادية، فقد قامت بعض المؤسسات التبشيرية (التنصيرية) باستغلال الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد، فلجأت هذه المؤسسات والهيئات إلى تقديم المساعدات لا سيما في المناطق المتخلفة من أندونيسيا، والمساعدة على بناء المدارس والمستشفيات، مما ساهم في انتشار المسيحية سواء في المناطق الوثنية أو بعض المناطق الإسلامية. وكان التعاون قائماً لسنوات عديدة بين الحكم والشيوعيين في محاربة الحركات الإسلامية ومنعها من تقديم يد العون إلى الجماعات الإسلامية الفقيرة في المناطق النائية، بينما لم يكن الحكم يرى مانعاً من تسرب المؤسسات والجمعيات التبشيرية من ممارسة نشاطاتها الدينية تحت الخدمات الإنسانية، غير أن الرئيس الأندونيسي يودو يونو (٢٠٠٤ ـ     ) يعمل بدعم من حزب العدالة الإسلامية على تطبيق الشريعة الإسلامية.

## ➢ دور المنظمات والأحزاب الإسلامية والوطنية والقومية في أندونيسيا في حركة التحرير والاستقلال[(٢)]:

ارتبطت حركة الأحزاب الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالحركات الاستقلالية قبل وجود الأحزاب السياسية الأخرى، وقد بدأ الاستعمار الهولندي في أوائل القرن

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ج٢٠، ص٤١٢ ـ ٤١٥. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٩٧.

(٢) هذه الدراسة معتمدة بشكل أساسي على المصادر والكتب التالية: محمد أسد شهاب: صفحات من تاريخ أندونيسيا المعاصرة، أندونيسيا الثائرة، د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، إسماعيل ياغي، محمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي، ج١.

السابع عشر الميلادي بمحاولة لإبادة العقيدة الإسلامية المتمثلة في الحكومات والسلطنات الإسلامية، وبدأ الاستعمار بمحو التعاليم والعقيدة الإسلامية، وبدأت المقاومة منذ ذلك الوقت، وقاوم المسلمون الاستعمار بكل قواهم وبكل ما عندهم من طاقات، ولم تنتظم هذه المقاومات انتظاماً يمكّنها من السيطرة على الموقف، لمجابهة الهولنديين الذي يملكون أسلحة حديثة وقوات كبيرة ومعدات عديدة. وهكذا استمرّ الصراع بين مد وجزر يفوز المسلمون حيناً وينكسرون أحياناً، حتى عام (١٨٠٠م). إذ بدأت الحركات الإسلامية تنتظم بقيادة المجاهد المسلم المعروف باسم «بونجول»[١]. وقاد هذا البطل المقاومة ضد الاستعمار الهولندي سبعة وعشرين عاماً بين أعوام (١٨١١ ـ ١٨٣٨م). وفي هذه الأثناء قامت جاوه بالانتفاض ضد الهولنديين بقيادة القائد المسلم الأمير «ديفورنقورو» في عام (١٨٢٥م) وانتهت هذه الحركة بأسر الأمير في وقت المفاوضة.

من هنا ابتدأت نواة الأحزاب الإسلامية، وتطور الصراع من دموي إلى سياسي. وفي عام (١٩٠٠م) أصبح الصراع قوياً: صراع سياسي وعسكري لإزاحة الهولنديين من الأراضي الأندونيسية.

وفي عام (١٩٠٥م) تأسست أول منظمة إسلامية بالطريقة الحديثة باسم (شركت داقنع إسلام) وانضم إليها المسلمون وأصبحت هذه المنظمة أكبر هيئة إسلامية بقيادة الحاج سمنهودي في مدينة «صولو». ومن أهداف هذه المنظمة توحيد جهود الأندونيسيين، وتحسين الحالة الاقتصادية للشعب الذي صار زمامه بأيدي المستعمرين، وكانت هذه أول حركة شعبية منظمة تنظيماً حسناً، لهذا تخوفت هولندا من هذه الحركة، وبدأت تقاومها بشتى الأساليب السياسية والعسكرية لتفريق أعضائها وتشتيت قادتها[٢]. ومنذ ذلك الحين بدأت المجابهة الإسلامية ضد الاستعمار الهولندي بصفة علنية فعالة. واستمرت هذه الحركة

---

(١) بونجول: اسم مدينة في جزيرة سومطرة الغربية.

(٢) لا بد من الإشارة إلى أن انتصار اليابانيين في الحرب بين روسيا واليابان عام ١٩٠٥م أثبتت أن الآسيويين يستطيعون هزيمة الغربيين. وكانت ثورة الصين عام ١٩١١م قد هزت أرجاء العالم وأثبتت بدورها أن الشعوب الآسيوية قادرة على التحرر من الأنظمة العفنة القديمة، وإن باسطاعتها أن تتسلم مقدراتها بنفسها. انظر: ديتس سميث: أندونيسيا شعبها، وأرضها، ص١١٨.

تناهض الهولنديين حتى عام (١٩١١م)، وفي مؤتمرها العام قررت مضاعفة الجهود بصفة أكبر وأوسع وتقرر تحويل اسم (شركت داقنغ إسلام) إلى اسم (شركت إسلام)، وانتخب الحاج عمر سعيد جوكر رئيساً عاماً للحزب(١). ومنذ هذا التاريخ تطورت المجابهة من سياسية اقتصادية إلى سياسية مسلحة، وصارت نواة للحركة الاستقلالية وأساساً مثالياً للأحزاب الأخرى التي جاءت بعدها.

ومن أوائل الجمعيات التي عملت على ولادة حركة وطنية أندونيسية بحتة كانت جمعية «بودي أبتومو» أي «رفعة المقاصد» التي أسسها ثلاثة من طلبة الطب في عام (١٩٠٨م) لتشجيع الاهتمام بالحضارة الأندونيسية، وصار أحد الثلاثة فيما بعد وهو «سوتومو» من أهم زعماء حركة التحرير الأندونيسية. أما الجمعية ذاتها فكانت نزعتها ثقافية اهتم بها الخاصة في البدء قبل الطبقات العامة، غير أن جذورها وأفكارها انتشرت وكان لها أثر واضح فيما بعد على الحركة الفكرية والسياسية في أندونيسيا(٢).

وكذلك قامت منظمات وأحزاب إسلامية كثيرة، تعمل كل منها في ميدان منها «الجمعية المحمدية» تحت قيادة الحاج محمد دحلان، ولها أعمال كبيرة في حقل التربية والتعليم.

وفي فترة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٨ ـ ١٩٣٩م) ظهرت الأحزاب السياسية والجمعيات الدينية التي تبنت قضية الاستقلال، وأدّى العلماء المسلمون دوراً كبيراً فيها. وقد أثر ذلك على كفاح الأندونيسيين فطبعه بطابع الجهاد الإسلامي من أجل التخلص من الحكم الهولندي ونيل الاستقلال، مع الإشارة إلى أن الشيوعيين كانوا يحاولون توظيف الحركات الوطنية لبث الدعاية لهم، تسهيلاً لوصولهم للحكم.

ومن هذه الأحزاب الإسلامية الناشطة في أندونيسيا حزب شركة إسلام والجمعية المحمدية، والجمعية العائشية، وحزب جاوه الفتاة، وحزب الأمراء، وجمعية نهضة العلماء، وجمعية اتحاد علماء المسلمين، وغيرها من الجمعيات

---

(١) انظر: محمد أسد شهاب: المرجع السابق، ص٢١٣.

(٢) ديتس سميت: أندونيسيا شعبها وأرضها، ص١١٩.

التي بلغ عددها ٥٧ جمعية[١].

وقد تبلورت تلك الأحزاب في حزبين رئيسين هما: حزب القمصان الخضراء، ومن ضمنه حزب شركت إسلام (شركت التجارية الإسلامية سابقاً)، وحزب القمصان الحمراء، ويضم الحزب الشيوعي الأندونيسي الذي أطلق عليه اسم «شركت رعيت» أي حزب الجماهير، وأصبح فيما بعد الحزب الشيوعي الأندونيسي[٢]. فضلاً عن هذه الأحزاب فمنذ عام (١٩١٦م) منح الشعب الأندونيسي الحقوق السياسية بتأسيس المجلس النيابي المعروف باسم «فولكسراد» (Volksraad).

وكانت سياسة حزب «القمصان الخضراء» ذات الاتجاه القومي تهدف إلى التعاون مع السلطات الهولندية الحاكمة للوصول إلى الاستقلال التدريجي. أما حزب «القمصان الحمراء» فكان لا يؤمن بسياسة التعاون مع الحكومة، ويرى أن هذا الطريق لا يوصل إلى استقلال البلاد، فالاستقلال لن يتحقق إلا بالكفاح والنضال. وعملت هولندا على تقوية الحزب المعتدل «القمصان الخضراء» فأنشأت «مجلس الرعية» وهو بمثابة مجلس ثيابي نصفه من الأندونيسيين والآخر من الأجانب، ويتكون من (٦٠) عضواً نصفهم أندونيسيون و(٢٥) عضواً من الهولنديين، والأعضاء الخمسة الباقون يمثلون الدول الأجنبية. وللحكومة الهولندية حق تعيين رئيس المجلس، وليس للمجلس صفة الشرعية، ولذا فإن الشعب الأندونيسي قد أنكر فكرة التعاون مع هولندا، وانضم حزب شركت إسلام إلى القمصان الحمراء لمقاومة الاستعمار الهولندي. ونتيجة لذلك قويت حركة المقاومة ضد الاحتلال الهولندي، واشتعلت نار الثورة في غربي جزيرة جاوه، وفي سومطرة في عام (١٩٢٨م) وكادت تعصف بالنفوذ الهولندي، غير أن هولندا تمكنت من القضاء على الثورة، وحكمت بعد ذلك البلاد حكماً مطلقاً، وقيدت الحريات واضطهدت المسلمين، واستمر ذلك الوضع حتى نشوب الحرب العالمية

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، جـ٢٠، ص٣٨٣ ـ ٣٨٧. للمزيد من التفاصيل عن المنظمات والأحزاب في أندونيسيا منذ القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٧٠م. انظر: محمد أسد شهاب: صفحات من تاريخ أندونيسيا المعاصرة، ص٢١١ ـ ٢١٩.

(٢) د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٨٦.

الثانية عام (١٩٣٩م)[1]. وكانت الحكومة الهولندية قد قيدت البلاد بمعاهدات مع حكام المقاطعات أهمها معاهدة عام (١٩٣٨م). وكان الغرض الأساسي منها كما يقول وزير المستعمرات الهولندي أمام البرلمان «هو توحيد جميع الأراضي الأندونيسية، واعتراف السلاطين بالأمر الواقع، وهو أن السلطة الحاكمة الشرعية هناك هي السلطة الهولندية»[2].

وكانت هولندا قد عملت على إثارة النعرات القومية والشيوعية في البلاد للقضاء على الحركة الإسلامية، ورأت هولندا نشر الحركات العلمانية والإلحادية، ونتج عن ذلك إيجاد تيارين رئيسين في البلاد وهما: التيار الماركسي، والتيار القومي بهدف إضعاف الحركة الإسلامية والحركة الوطنية.

واتخذ الاستعمار مختلف السبل لتحطيم القوى الإسلامية بإيجاد قوى أخرى تقاوم المسلمين عقدياً، وبهذا يستطيع أن يفرق شمل الشعب الأندونيسي المسلم إلى عدة ديانات، فجندت هولندا قواها وأرسلت الرهبان والراهبات المسيحيات، وفتحت المدارس وبنت الكنائس ونشرت المجلات والمنشورات الكثيرة، وأخذت الصبية الصغار إلى دور الحضانة؛ فضلاً على أن هولندا شجعت بروز الحركات التي ادعت إنها إسلامية مثل «القاديانية» التي أوجدها الإنجليز في الهند. وهذه الحركة دعت إلى عدم مقاومة المستعمر، ودعت إلى طاعته والخضوع له[3].

ونشطت الجمعية المحمدية فأقامت المدارس الابتدائية ثم الثانوية وأخيراً أقامت الجامعة بجانب المصحات والمستشفيات والمساجد والمصليات والملاجئ ومكتبات للمطالعة ومنظمات للشباب وللسيدات.

وإذا كان حزب «شركة إسلام» يعمل أكثر من في حقل السياسة فإن الجمعيات الأخرى أخذت لها حقلاً آخر في التربية والتعليم ومقاومة التبشير المسيحي، وهكذا أصبح للمسلمين منظمات وأحزاب في الميدان السياسي المسلح والميدان الثقافي والتعليم.

---

(١) محمود شاكر: المرجع السابق، ص٣٨٨ ـ ٣٩٠. انظر أيضاً: د. إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص١٨٧.

(٢) أندونيسيا الثائرة، ص٧٥.

(٣) انظر: د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ص١٨٨، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢٠، ص٣٩٠ ـ ٣٩١.

وفي عام (١٩٢٥م)، ألّف بعض العلماء الأندونيسيين حركة إسلامية تربوية وأطلقوا عليها اسم «نهضة العلماء» وكانت في بدء قيامها حركة إسلامية تربوية محضة، ثم تطورت بمرور الزمن والظروف وأصبحت حزباً سياسياً باسم حزب «نهضة العلماء» وشاركت فعلياً في الميادين السياسية، وللجمعية مدارس ومعاهد وكتاتيب ورابطات دينية في كثير من مدن جاوه. كما قامت منظمات طلابية ومنظمات نسائية ومنظمات عمالية وغيرها.

وفي هذه الأثناء بدأ الوعي الإسلامي ينمو ويطرد في المجتمع الإسلامي الأندونيسي، فتعددت الجمعيات الإسلامية التعاونية والتربوية والتعليمية والاجتماعية، وأقيمت جمعيات كثيرة بجانب الأحزاب الإسلامية للدفاع عن أندونيسيا وعقيدتها الإسلامية. وكانت المدارس الإسلامية مركزاً رئيسياً لتخريج الشباب المجاهدين ضد الاحتلال الهولندي.

وفي عام (١٩٤٢م) أثناء الحرب العالمية الثانية اكتسحت اليابان شرق وجنوبي آسيا في فترة لا تتجاوز الشهرين واحتلت كمبوديا ولاوس وفيتنام والفليبين وبورما وتايلند وجزر الملايو وأندونيسيا حتى وصلت إلى جزائر سليمان. وكانت أول خطوة خطتها اليابان أن حرمت المنظمات والحركات السياسية والأحزاب بجميع أنواعها، وألفت منظمتين جديدتين، الأولى جمعت فيها المسلمين والأخرى جمعت فيها الوطنيين وغيرهم من الذين لا يتبعون العقيدة الإسلامية وإن كانوا مسلمين. وبدأ المسلمون في هذا الجو ينظمون حركاتهم سراً بعيداً عن أعين المخابرات اليابانية التي تعتبر أن كل حركة خارجة عن تنظيماتها إنما هي حركة معادية لليابان، واستطاع المسلمون تحت ستار الكتمان أن يعملوا بحيث لا يثيرون شكوك اليابانيين فألفوا التنظيمات العسكرية المسلحة، باسم التطوع لمساعدة اليابان[١].

وكان مجلس شورى المسلمين يهتم في الشؤون الاجتماعية والدينية، ولكن المجلس كان يعمل في الخفاء لوضع خطط سياسية بعيدة للوصول إلى الاستقلال. ويضم هذا المجلس أكثر العناصر الإسلامية.

---

(١) محمد أسد شهاب: المرجع السابق، ص٢١٥.

وعندما ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي واضطرت اليابان أن تستسلم للحلفاء بدون قيد أو شرط في ١٤ آب (أغسطس) عام (١٩٤٥م)، انتهز هذه الفرصة الشعب والقوات المسلحة الموجودة في (حزب الله) و(حزب سبيل الله) والحركات المسلحة الأخرى وأعلنوا الاستقلال باسم سوكارنو ومحمد حتي كنائبين عن الشعب الأندونيسي، وذلك في يوم ١٧ آب (أغسطس) (١٩٤٥م)، أي بعد استسلام اليابان بثلاثة أيام. وبعد إعلان الاستقلال عقد المسلمون مؤتمراً في جو كجا بجاوه الوسطى لوضع أطر للمستقبل، واشترك في هذا المؤتمر زعماء المسلمين والشخصيات الكبيرة وقادة الجيش، وتقرر جعل مجلس شورى مسلمي أندونيسيا حزباً إسلامياً، لأن المجلس ضم معظم الشخصيات الإسلامية وزعماءها.

وقرر المؤتمر الإسلامي تركيز الدعامة الإسلامية التي لا يمكن الوصول إليها إلا بتوحيد كل القوى والجهود في إطار منظم ضمن هيئة للجهاد السياسي تعمل على:

١ ـ تركيز سلطة الجمهورية الأندونيسية والدين الإسلامي.

٢ ـ تطبيق التعاليم الإسلامية في الدولة.

وهكذا فقد أعلن رسمياً عن قيام حزب إسلامي سياسي (ماشومي) في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عام (١٩٤٥م) يمارس كل السلطات والحقوق السياسية في أندونيسيا؛ ويعمل لتطبيق الأحكام الإسلامية في حياة الفرد والمجتمع طلباً لمرضاة الله. ونشأت بعد ذلك أحزاب كثيرة من وطنية واشتراكية وشيوعية، مما جر البلاد إلى البلبلة وأصبح الشعب الأندونيسي يواجه صراعاً بين الحركات الإسلامية من جهة وغير الإسلامية من جهة أخرى. واستمرت الحالة كذلك حتى عام (١٩٥٥م) حيث استقبلت أندونيسيا لأول مرة في تاريخ حياتها الانتخابات العامة، واشترك في الانتخابات أكثر من ثلاثين حزباً وأكثر من خمسين منظمة، وأخذ سوكارنو يجوب بنفسه المدن والقرى ويخطب أمام الشعب داعياً لتأييد الحزب الوطني الأندونيسي الذي كان هو أحد مؤسسيه وعدم تأييد الحركات الإسلامية.

والأمر الملاحظ أن الحركة الشيوعية بدأت تنشط في هذه الأثناء، ففي عام

(١٩٥١م) بدأ الحزب الشيوعي إعادة تنظيم صفوفه بعد فشله الذريع في ثورته الفاشلة عام (١٩٤٨م)، وكان الفشل أكبر دافع لمتابعة الكفاح بأسلوب آخر، ثم الاتصال المباشر بحكومة بكين التي أمدته بالمال والسلاح. وعندما بدأ الشيوعيون يسيطرون على الأوضاع في أندونيسيا ألف المسلمون جبهة «مقاومة الشيوعية» فأصدروا الصحف والمجلات والنشرات التي لم يطل عمرها إذ حل سوكارنو الجبهة واعتقل القائمين بها وزجهم في أعماق السجون بتهمة إيجاد البلبلة في صفوف الشعب، لأن حقدهم على الشيوعية وبغضهم لها، يعد جريمة تخالف تعاليم سوكارنو في توجيهه لتوحيد «القومية والدين والشيوعية» المعروف بمخطط (ناساكوم).

ومما يؤسف له أن الحزب الشيوعي استطاع أن يسيطر على الوضع السياسي في البلاد، وحل البرلمان الأندونيسي ثم المجلس الاستشاري باسم سوكارنو، ثم حل الحزب الإسلامي (ماشومي) و(منظمة شباب المسلمين) باعتبار أن (ماشومي) أكبر عدو للشيوعية. وزج رجال ماشومي في غياهب السجون بدون محاكمة، وصودرت أملاكهم، وأغلقت الصحف الإسلامية والصحف التي تقاوم الشيوعيين أو لا تماشي الشيوعية. وهكذا صفا الجو للشيوعيين فلم يبق أمامهم إلا رجال الجيش الذين لا يزالون يقارعون الشيوعية بقوة ما لديهم من سلاح.

وفي فرصة سانحة في نظر الشيوعيين، ذلك لأن فرقة الحرس الجمهوري قد انضمت إليهم، ولأن نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية سوبندريو هو أكبر سند لهم، ولأن جملة كبيرة من الوزراء يؤيدون الشيوعية، وإن لم يكونوا شيوعيين، نفذ الشيوعيون قرارهم وأعلنوا الثورة يوم ٣٠ أيلول (سبتمبر) من عام (١٩٦٥م)، التي انتهت بالفشل بعد استيلائهم على العاصمة يوماً واحداً، وسيطرتهم على الموقف سيطرة تامة. ولكن لم تكد تشرق شمس اليوم الثاني حتى قضي على الثورة، لأن الشعب رفض الشيوعية ومبادئها وأساليبها، وبذلك حفظت أندونيسيا بلداً إسلامياً، بالرغم مما تتعرض له اليوم من حركات تنصيرية وتبشيرية واستشراقية وانسلاخية وتقسيمية.

وقد تألف حزب إسلامي جديد باسم «الحزب الإسلامي الأندونيسي» وأصبح في أندونيسيا في العهد الجديد تسعة أحزاب غير المنظمات الأخرى، وتتكون هذه الأحزاب من أربع مجموعات حزبية إسلامية هي:

١ ـ حزب نهضة العلماء.

٢ ـ حزب شركت إسلام.

٣ ـ حزب التربية الإسلامية.

٤ ـ الحزب الإسلامي الأندونيسي.

• **والأحزاب الأخرى هي:**

٥ ـ الحزب الوطني الأندونيسي.

٦ ـ حزب أبيكي.

٧ ـ الحزب الكاثوليكي.

٨ ـ الحزب البروتستانتي.

٩ ـ حزب موربا (الحزب الكادح)، وهو حزب اشتراكي[(١)].

## ➢ إقليم تيمور:

يقع إقليم تيمور في جنوبي أندونيسيا في أرخبيل الملايو، وهو الأكبر مساحة في جزر سوندا الصغرى، ويحد الإقليم من الشمال بحر ساڤو وبندا ومن الجنوب بحر تيمور. أما طول الإقليم فهو حوالي ٤٥٠ كلم وعرضه ١٠٥ كلم. أما مساحته الإجمالية فهي حوالي ٣٠,٨٢٠ كلم٢. أما عدد سكانه حسب إحصاء (١٩٧٧م) فهو (١,٥١٥,٠٠٠) نسمة.

يعتمد إقليم تيمور على الإنتاج الزراعي بأساليب تقليدية. من أهم منتجاته: الأرز، البن، الكوبرا، الذرة، واحتياطي مهم من الذهب والفضة.

وسكان تيمور متحدرون من الملايو ومن البولونيزيين (Polynesian) ومن ببوا (Papuan)، وفضلاً عن وجود هذه المجموعات، فإنه يوجد أيضاً مجموعة صغرى من أصول صينية، وهي تقوم بدور اقتصادي مهم في تجارة الإقليم.

أما أكبر مدن الإقليم فهي: كوبنج (Kupang) وهي عاصمة إقليم نوساتنجارا (Nusatenggara) وعدد سكانها حوالي (٤٠٣٠٠٠) نسمة ومدينة ديلي (Dili) عاصمة إقليم تيمور الشرقية. ويبلغ عدد سكانها (٦٠,١٥٠) نسمة.

---

(١) انظر: محمد أسد شهاب: المرجع السابق، ص٢١٨ ـ ٢١٩.

وفيما يختص بالمعتقدات الدينية في إقليم تيمور، فإن المعتقدات الدينية الوثنية تمثل الأكثرية، فضلاً عن وجود جماعات تعتنق المسيحية وأقلية من المسلمين.

أما فيما يختص بالتاريخ السياسي والعسكري لتيمور، فإن البرتغاليين قد أنشاؤوا مستعمرات في تيمور في أوائل القرن السادس عشر، أما التجار الهولنديون فقد وصلوا لأول مرة إلى الجزيرة عام (١٦١٣م)، وبقيت البرتغال وهولندا تتنافسان على النفوذ والسيطرة على الإقليم إلى أن عقدت بينهما عدة اتفاقيات، منها: اتفاقيات أعوام (١٨٥٩م، ١٨٩٣م، ١٨٩٨م، و١٩١٤م).

إن تيمور الهولندية التي كان مركزها كوبنج في الغرب أصبحت جزءاً من أندونيسيا عام (١٩٥٠م). أما تيمور البرتغالية بما فيها منطقة ديلي في الشرق، ومساحة صغيرة من أوكوسي أمنبينو (Ocussi Ambeno) في الشمال الغربي، فقد ضمتها أندونيسيا بالقوة أواخر عام (١٩٧٥م)[(١)].

ومن الأهمية بمكان القول: إن الأوضاع السياسية والأمنية والاقتصادية، والاجتماعية في إقليم تيمور الشرقية لم تكن مستقرة منذ عام (١٩٧٥م)، وقد حرص الرئيس سوهارتو على الاهتمام بهذا الإقليم، غير أن النزعة الانفصالية التي كانت تتحكم ببعض قياداته السياسية والطائفية، علماً أن بعض القوى الإقليمية والدولية كانت تشجع على النزعات الانفصالية تمهيداً لتقسيم وانهيار أندونيسيا، الأمر الذي أدّى إلى نزاعات مسلحة في الإقليم لا سيما بين تيمور الشرقية وتيمور الغربية، واستمرت هذه النزعات إلى عام (١٩٩٩م)، وقد راح ضحية حرب الميليشيات المسلحة عشرات الألوف من القتلى، وعشرات الألوف من المهجرين عن الإقليم، الأمر الذي استدعى تدخلاً دولياً في أيلول (سبتمبر) (١٩٩٩م) كان من نتائجه الأولى إجراء استفتاء شعبي في ٤ أيلول (سبتمبر) (١٩٩٩م) انتهى إلى استقلال إقليم تيمور الشرقية في تشرين الأول (أكتوبر) من عام (١٩٩٩م). وانسحاب آخر جندي أندونيسي من أراضيها في ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) (١٩٩٩م). ونتيجة لهذا الاستقلال فقد عاد في ٢٢ تشرين الأول

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من:

Funk and Wagnalls New Encyclopedia, Vol. 25, pp.362 - 363.

(أكتوبر) (١٩٩٩م) إلى إقليم تيمور الشرقية الزعيم الانفصالي زانانا غوسما بحراسة القوات الدولية (الأوسترالية) وأعلن انتصار تيمور الشرقية بعد نضال دام (٢٥ عاماً) ضد أندونيسيا، كما أعلن أنه سيتم اعتماد العملة البرتغالية، بالإضافة إلى اعتماد اللغة البرتغالية كلغة رسمية للإقليم، إلى جانب لغة التيتوم كلغة قومية[١].

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الأمم المتحدة تولت شؤون الإقليم لمدة انتقالية من سنتين إلى ثلاث سنوات قبل إقامة دولة جديدة مستقلة[٢].

**التطورات الأخيرة من عام (١٩٩٩م) في أندونيسيا:**

شهدت أندونيسيا الحديثة منذ استقلالها عام (١٩٤٥م) حتى اليوم عدة رؤساء هم: أحمد سوكارنو، سوهارتو، حسن حبيبي، الشيخ عبد الرحمن وحيد. وهذا الأخير انتخب رئيساً لأندونيسيا في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) عام (١٩٩٩م).

ونتيجة للاضطرابات التي سادت أندونيسيا ولحركة المعارضة ضد الرئيس حسن حبيبي منذ عام (١٩٩٨م)، ونتيجة لأزمة إقليم تيمور الشرقية. ولأسباب سياسية واقتصادية عديدة، فقد تم انتخاب رئيس جديد لأندونيسيا مرشح الجيش الأندونيسي الشيخ عبد الرحمن وحيد.

لقد استطاع عبد الرحمن وحيد أن يحظى بتأييد الجنرال وورانتو قائد الجيش الأندونيسي، واستطاع بمهارته استقطاب الفعاليات الدينية الإسلامية وفي مقدمتها الزعيم الإسلامي أمين ريس الذي له تأثير قوي في أوساط الجامعات الأندونيسية. كما استطاع أن يؤمن هزيمة زعيمة الحزب الديموقراطي الأندونيسي لنضال السيدة ميغاواتي سوكارنو ابنة الرئيس الأول لأندونيسيا أحمد سوكارنو، كما انسحب الرئيس حسن حبيبي من الترشيح لانتخابات رئاسة الجمهورية[٣].

وفي اليوم التالي لانتخابه رئيساً للجمهورية تم انتخاب ميغاواتي نائباً للرئيس

---

(١) السفير، ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩م، العدد ٨٤٣٣.
(٢) السفير، أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩م، العدد ٨٤٤٠.
(٣) انظر: النهار، ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩م، العدد ٢٠٤٨٢.

من قبل جمعية الشعب الاستشارية الأندونيسية، وقد نالت (٣٩٦) صوتاً ضد منافسها حمزة حاز رئيس الحزب الموحد للتنمية الذي نال (٢٨٤) صوتاً. وقد صاحب هذه الانتخابات أحداث أمنية وبعض القتلى والجرحى وأعمال عنف متعددة.

هذا وقد علّق الخبير الاقتصادي في البنك الدولي جوزف ستيغليتز على الأوضاع الجديدة في أندونيسيا قائلاً: «إن الحكومة الجديدة في أندونيسيا تتيح للبلاد فرصة تجاوز الماضي وبدء جهود حثيثة لإعادة بناء اقتصادها المنهك. إن الجميع يعلمون أنه في السابق منحت الحكومة الأندونيسية عدداً من الأفراد احتكارات. وهذه الاحتكارات لم توجد حالاً من عدم تكافؤ الفرص فحسب، بل زادت أيضاً عدم كفاية الاقتصاد» ثم طالب الخبير الدولي بعدم الاكتفاء «بأن نقول: إننا لا نحتاج إلى الاحتكارات، إنما ينبغي إلغاء ملكية تلك الاحتكارات» ثم أمل في عودة رؤوس الأموال التي غادرت أندونيسيا في الأشهر الأخيرة[١].

وبالمقابل فقد واجهت الحكم الجديد في أندونيسيا مؤامرات ومظاهرات صاخبة في مدينة أوجونغ اندانغ الشرقية ضمت عشرة آلاف طالب أندونيسي طالبوا خلالها باستقلال شرقي أندونيسيا وإقامة دولة مستقلة. وذلك احتجاجاً على انسحاب حسن حبيبي من الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية، ويزداد الموقف خطورة عندما نعلم أن حسن حبيبي يتحدر أساساً من إقليم سولاويسي الذي انطلقت منه مظاهرات الطلاب[٢]. ولا شك بأن النزعة الانفصالية قد ازدادت عند سكان الأقاليم والجزر بعد استقلال تيمور الشرقية. ومما يؤسف له أن سكان إقليم اتشيه الواقع في شمالي البلاد طالبوا بإجراء استفتاء لتقرير مصر الإقليم. وقد أدّت هذه المطالبة إلى انقسامات بين أعضاء الحكومة والرئيس عبد الرحمن وحيد الذي لم يرَ مانعاً من إجراء هذا الاستفتاء، في حين عارضه وزير الشؤون الأمنية والسياسية الجنرال ويرانتو الذي رفض رفضاً قاطعاً إجراء مثل هذا الاستفتاء، لأنه سيكون سابقة خطيرة تهدد وحدة أندونيسيا، وستظهر مطالب مماثلة في أقاليم أخرى[٣].

---

(١) النهار، ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩م، العدد ٢٠٤٨٣.
(٢) السفير، ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩م، العدد ٨٤٣٣.
(٣) النهار، ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩مَ، العدد ٢٠٥٠٠.

وهكذا يلاحظ أن أندونيسيا التي حافظت على وحدة أراضيها وأقاليمها لقرون عديدة، باتت اليوم تتعرض لأخطر محنة تهددها وتهدد وحدتها، وهي محنة وخطر التقسيم والتفتت لأكبر دولة إسلامية في العالم، علماً أن استقلال إقليم تيمور لم يؤمّن لأندونيسيا حتى الآن الاستقرار والأمن، فقد شهدت الأشهر الأولى من عام (٢٠٠٠م) الكثير من الأحداث الأمنية لا سيما في ديلي وسواها.

ومما يؤكد استمرار التوتر السياسي والطائفي، استمرار أعمال العنف الطائفية في بعض الأقاليم الأندونيسية، ففي ٦ آب (أغسطس) (٢٠٠٠م) وبمناسبة عقد جلسة مهمة لمجلس الشعب الاستشاري، فقد احتشد نحو عشرة آلاف أندونيسي، يتقدمهم الرئيس عبد الرحمن وحيد، في العاصمة جاكرتا، وحرص الجميع على الصلاة من أجل السلام والتسامح الديني في أندونيسيا.

وفي حضور ومشاركة رئيس المجلس الاستشاري «أكبر تاند جونغ» وعشرات من المسؤولين السياسيين والعسكريين في ملعب جاكرتا، دعا زعماء الطوائف الأندونيسية المختلفة: الإسلام والمسيحية والبوذية والهندوسية إلى فصل الدين عن السياسة، وإلى وقف إراقة الدماء في عدد من المناطق وخصوصاً في أرخبيل ملوك في شرق أندونيسيا.

وفي كلمة ألقاها أمام تلك الألوف، أعرب الرئيس الأندونيسي وحيد عن ثقته بقدرته على إنهاء أعمال العنف التي أودت بألاف المدنيين من مسلمين ومسيحيين في ملوك. كما قال «تاند جونغ»: إن دورة مجلس الشعب الاستشاري بين ٦ ـ ١٨ آب (أغسطس) (٢٠٠٠م) ستكون آمنة، وسلسلة فى إشارة إلى خطاب الرئيس وحيد بهدف الدفاع عن سياسته التي تعرضت لانتقادات عنيفة من النواب الا(٧٠٠).

ومما يؤكد عدم الاستقرار الأمني في أندونيسيا، فقد حشدت الدولة (٦٦) ألف رجل أمن لضمان أمن جلسة مجلس الشعب الاستشاري، وتلقت الشرطة أوامر بإطلاق النار من دون تردد على المتسببين بأي أعمال شغب محتملة، فضلاً عن أن السفارات الأجنبية كانت تحذر مواطنيها من احتمال حصول تظاهرات تتخللها أعمال عنف.

هذا، وفي ٥ ـ ٦ آب (أغسطس) (٢٠٠٠م)، احتشد آلاف المسلمين في

يوجياكرتا في وسط جاوه، وطالبوا بتطبيق الشريعة الإسلامية في أندونيسيا. وقد تجمع نحو خمسة آلاف شخص من مختلف أنحاء البلاد في أحد ملاعب جيوكرتا ـ المركز التاريخي للنشاط الثقافي والفكري في جاوه ـ وطالبوا بتطبيق الشريعة الإسلامية في كل أنحاء البلاد[1].

وهكذا يلاحظ أن التغيير السياسي والعسكري الذي حدث في أندونيسيا، وتولي الرئيس عبد الرحمن وحيد الحكم، لم يؤدِ إلى استقرار الأوضاع السياسية والأمنية والاقتصادية، بل إلى تغذية الفتن الطائفية، وتشجيع استقلال الولايات والأقاليم الأندونيسية وتفتيت البلاد، وتدخل الدول الأجنبية لضرب الاستقرار والوحدة الوطنية، كلها عوامل خطرة تهدد الأمن الوطني والقومي في البلاد، لا سيما وأن عامل الدين، أو عامل الطائفية من العوامل الأساسية في تهديد وحدة الشعب ووحدة البلاد. وبين أعوام ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٧م، شهدت البلاد الكثير من التطورات السياسية والأمنية والاقتصادية بهدف الضغط على الشعب الأندونيسي، كما أن الولايات المتحدة الأميركية خاصة والغرب عامة يعملان على «تغريب» أندونيسيا عن محيطها الإسلامي، وعن علاقاتها التاريخية مع العالمين العربي والإسلامي، في محاولات دؤوبة لإنجاح عمليات «التغريب» و«الأوربة» و«الأمركة»، غير أن الشعب الأندونيسي ما يزال يقاوم جميع هذه المحاولات اليائسة.

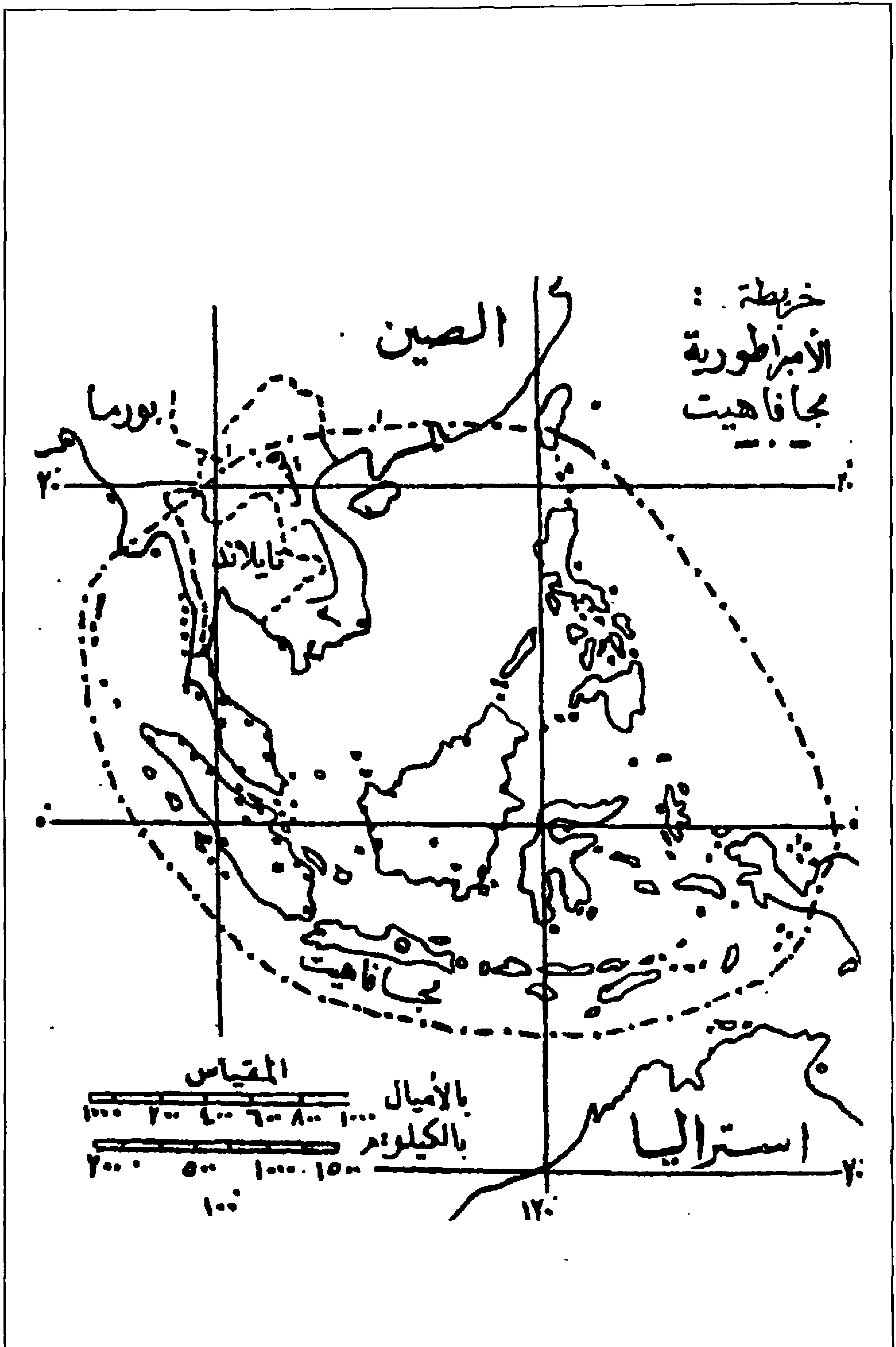
(١) النهار، ٧ آب (أغسطس) ٢٠٠٠م، العدد ٢٠٧٢٢.

# الملاحق

* الخرائط.

* جداول إحصائية.

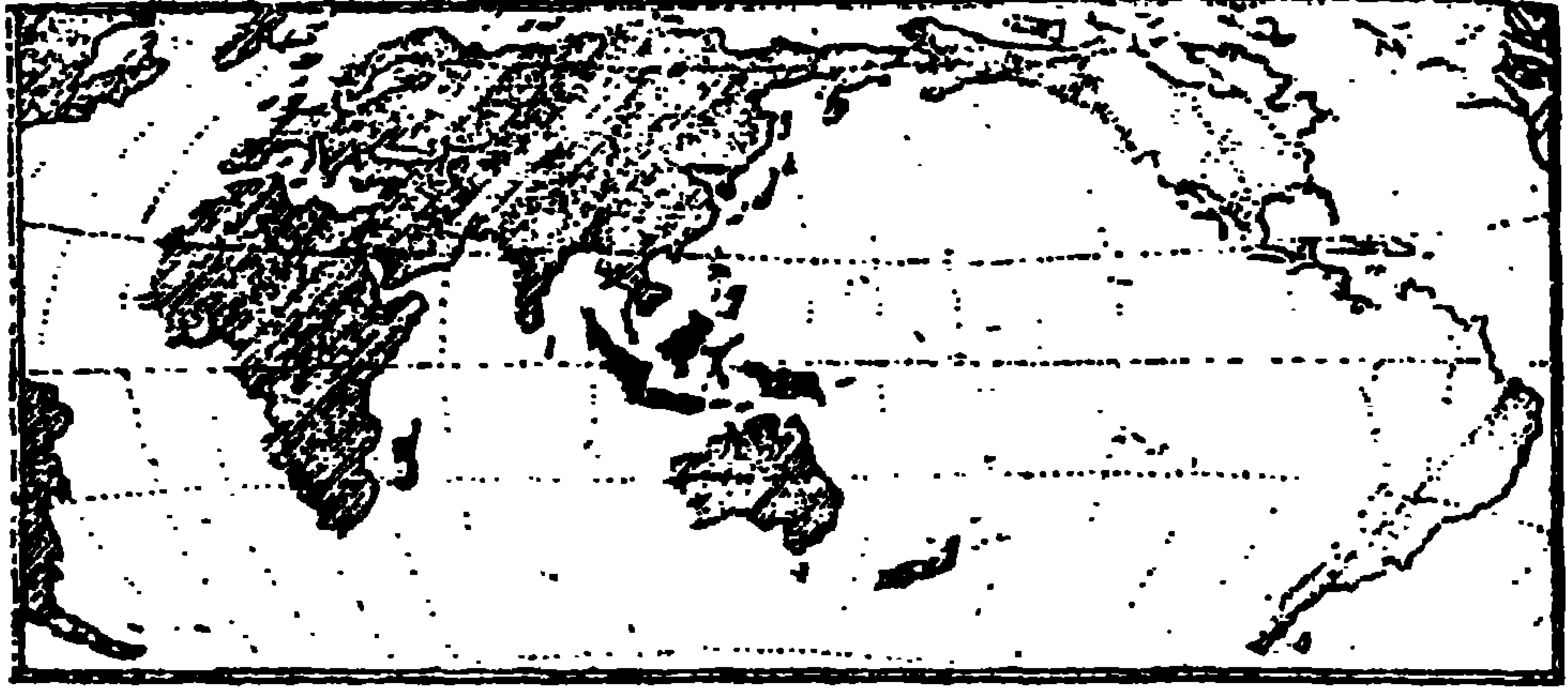
خريطة إمبراطورية «سرى ويجايا» (سنة ١١٨٠م)




خريطة إمبراطورية «ماجايا هيت» (سنة ١٣٦٤م)




خريطة المملكة الإسلامية (سنة ١٥٠٠م)



خريطة تبين مواقع أندونيسيا من البلاد المجاورة




خريطة الجمهورية الأندونيسية الفتية

# الفصل السادس

# المؤامرات الاستعمارية والتبشيرية ضد مسلمي الفليبين

# الفصل السادس

## المؤامرات الاستعمارية والتبشيرية ضد مسلمي الفليبين

### ➢ تاريخ الفليبين الحديث والمعاصر:

**جغرافية الفليبين وعناصرها السكانية:**

تقع جزر الفليبين في جنوب شرق آسيا، وتعد من أجزاء أرخبيل الملايو الذي يضم أيضاً أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. أما مجموعة جزر الفليبين فتقدر بنحو (٧١٠٠) جزيرة، تمتد بين جزيرة فرموزا في الشمال، وبين جزيرة بورنيو في ماليزيا وأندونيسيا. يحيط بها من الشمال الغربي والغرب بحر الصين الجنوبي بما فيه هونج كونج، وفي الشمال الشرقي اليابان، ومن الشرق المحيط الهادئ، ومن الجنوب بحر سيليبس. وهي تضم بحاراً داخلية بين جزرها الكثيرة، وأوسعها بحر سولو، وأكبر هذه الجزر لوزون في الشمال وفيها العاصمة مانيلا، وجزيرة ميناداو، وفي الجنوب وأرخبيل سولو وجزيرة بيساباس في الوسط. وتبلغ مساحة هذه الأقسام الثلاثة نحو ثلاثمائة ألف كلم². أما مساحة جميع جزر الفليبين فتبلغ نحو (١١٥,٥٠٠) ميل مربع[(١)].

أطلق الإسبان على الفليبين هذا الاسم، نسبة لفيليب أحد ملوك الإسبان الذي حاول فتحها في عهده، والفليبين جمع فيليب. ومنذ ذلك التاريخ شاع هذا الاسم في العالم.

---

(١) Funk Wagnalls New Encyclopedia, vol. 20 p.338. U.S.A.
انظر أيضاً: د. محمود شاكر: المسلمون في الفليبين، ص١٧ ـ ١٨، ٢٦ ـ ٢٧، المكتب الإسلامي، بيروت.
انظر أيضاً: د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٨، ص٦٢١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة التاسعة ١٩٩٠م، انظر أيضاً: سليمان مظهر: النمور الصغيرة الزاحفة، ص٣٢٤، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٨م.

تتميز الفليبين بمناخ استوائي، والمناخ على وجه العموم معتدل في جنوبي البلاد طوال العام. وتعتبر الزراعة الحرفة الرئيسية الأولى التي يشتغل بها غالبية سكان البلاد. أما أهم المنتجات الزراعية في الفليبين فهي: الأرز، جوز الهند، الذرة، القنب الهندي، قصب السكري، والدخان. وتحتل الفليبين المركز الأول من الإنتاج العالمي للقنب الهندي وجوز الهند، والمركز الثاني في إنتاج قصب السكر، والخامس في إنتاج الدخان. وتصدر لب جوز الهند بعد تجفيفه ويسمى (الكوبرا). ومن منتجات الفليبين الزراعية: الأناناس، الأباكا (نباتات ليفية تصنع منها الحال يستفاد منها في صناعة السفن)، الموز، المانجا، الليمون، والكاكاو، وسواها.

وتلي الزراعة صيد الأسماك، وتربية المواشي والدواجن. وتضم مياه الفليبين حوالي (٢١٠٠) صنف من أصناف الأسماك المعروفة في العالم، لذلك فإن صيد الأسماك يأتي في المرتبة الثانية كمورد رئيسي بعد الزراعة.

وتوجد في البلاد ثروات معدنية كثيرة مثل: الذهب، النحاس، الحديد، المنغنيز، الكروم، الفضة، الزئبق، مما أسهم في تطور الصناعة الفليبينية. وتحتل الفليبين المركز الثاني في إنتاج الذهب بين دول العالم، كما يوجد في البلاد غابات وأشجار كثيرة لافتة للنظرة[١].

يبلغ عدد سكان الفليبين نحو ٨٧,٨٥٧,٤٧٣ مليون نسمة حسب إحصاءه (٢٠٠٥م)[٢] يتحدرون من أصل ماليزي وأندونيسي، ومن عناصر صينية وهندية، وعربية وأوروبية وأميركية وزنجية. يشكل المسلمون نحو (٦) مليون نسمة، وحوالي (٦٢) مليون نسمة من المسيحيين لا سيما الكاثوليك، ويتمركز المسلمون في المناطق الجنوبية في جزيرة ميندناو وأرخبيل سولو وجزيرة بالاون، في حين ينتشر المسيحيون في مناطق البلاد الأخرى، كما ينتشر في الفليبين أقلية من البوذيين والوثنيين.

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: د. محمد محمد زيتون: المسلمون في الشرق الأقصى، ص٧ ـ ١١، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٢) للحصول على هذه الأرقام وجداول أعداد السكان اعتمدنا على نظام الإنترنت www.indexmundi.com. انظر أيضاً: www. Expedia. com مادة: (Philippines).

يتكلم هؤلاء السكان أكثر من ثمانين لغة محلية أهمها: الناغال وهي اللغة الرسمية، أما أكثر اللغات استعمالاً فهي الإنجليزية، فضلاً عن الهندية والصينية، أما المسلمون فيتكلمون لغة الهاوسو. أما اللغة الإنجليزية فهي الأكثر استخداماً في المعاملات الرسمية، أما الإسبانية فقد كانت في السابق هي اللغة الرسمية، ولم تعد مستخدمة إلا في نطاق ضيق[١].

انضمت الفليبين إلى هيئة الأمم المتحدة في ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) (١٩٤٥م). أما نظام الحكم فيها فجمهوري، إذ إن رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة والحكومة. كما تتمثل السلطة التشريعية بالكونغرس المؤلف من مجلسين: مجلس الشيوخ، ومجلس النواب. والفليبين عضو عامل في أكثر من هيئة أو تجمع إقليمي آسيوي مثل: رابطة دول جنوبي شرقي آسيا، والمجلس الآسيوي والباسفيكي. أما عملتها المتداولة فهي البيزو.

**انتشار الإسلام في الفليبين:**

دخل الإسلام إلى جزر الفليبين مع انتشاره في المناطق المالاوية في جنوب شرقي آسيا بواسطة التجار والدعاة منذ أواخر القرن الثامن للهجرة ـ القرن الرابع عشر الميلادي، الذين دخلوا إلى البلاد من مناطق الحجاز واليمن (حضرموت) لا سيما بعد سقوط بغداد بأيدي المغول عام (١٢٥٨م)، الأمر الذي أدى إلى هجرة الكثير من علماء المسلمين إلى إيران والهند، ومنها إلى مناطق ماليزيا والفليبين وأندونيسيا وبورينو وبقية مناطق شبه جزيرة الملايو، لا سيما إلى شواطئ جزيرة سولو[٢]، وأخذ الدعاة المسلمون ينشرون الدين الإسلامي استناداً إلى سماحة الإسلام وتسامح الدعاة والتجار الذين استطاعوا إقناع شعوب المنطقة بأهمية الدين الإسلامي وعدالته، وتطبيقه للعدالة والمساواة الاجتماعية بين جميع أفراد المجتمع. وتشير بعض الدراسات إلى أن أوائل الذين وصلوا إلى الفليبين ثمانية دعاة هم:

---

(١) Funk Wagnalls New Encyclopedia, vol. 20, p.341.
انظر أيضاً: سعد الخوند: المعجم التاريخي للبلدان والدول، ص٣٧٦.

(٢) د. قيصر أديب مخول: المسلمون في الفليبين، ص١٢، تعريب: د. نبيل صبحي، مؤسسة الرسالة، بيروت (لا.ت).

١ ـ الشريف أوليا.

٢ ـ الشريف مرجا.

٣ ـ الشريف حسن.

٤ ـ الشريف زين العابدين.

٥ ـ الشريف أحمد رجا باقندا (الشريف أحمد بن علي).

٦ ـ الشريف مخدوم.

٧ ـ الشريف أبو بكر.

٨ ـ انشريف محمد بن علي.

ويقول د. محمد عبد القادر أحمد في كتابه «المسلمون في الفليبين»: إن هؤلاء الأشراف قاموا بجهود كبيرة في نشر الإسلام، وشرح تعاليمه في جزر الفليبين. ولذلك أطلق عليهم المؤرخون اسم «دعاة الإسلام في المشرق الأقصى»[١].

والحقيقة ما إن جاء منتصف القرن الخامس عشر حتى أصبح عدد الذين اعتنقوا الإسلام في سولو كبيراً لدرجة أنهم استطاعوا تأسيس سلطنة أو مملكة مستقلة تمثل أول نظام سياسي مركزي إسلامي في تاريخ الفليبين برئاسة السلطان شريف الهاشم[٢]. ومع مرور الزمن أصبح للإسلام جذور راسخة في أكثر أنحاء سومطرة وجاوه، كما كانت له قاعدة في شمالي جزيرة بورينو. كما انتشر الإسلام في جزر لوزون، وبساياس وسبلي وسيليبس وسيلواسي وغالاوان.

وبعد انتشار الإسلام في الفليبين وازدياد معتنقيه، أسهم المسلمون في الداخل بدورهم في نشر الدعوة الإسلامية، وفي التاريخ الحديث والمعاصر بدأ المسلمون في الفليبين بزيارة الأماكن المقدسة وتأدية شعائر الحج في مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما أن الدولة العثمانية أخذت على عاتقها إرسال

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: Gregoro F. Zaide; Philippine political and culturel History, vol. 2. p.43.

وانظر أيضاً: د. أحمد شلبي: المرجع السابق، جـ٨، ص٦٢١ ـ ٦٣٥.

(٢) د. قيصر أديب مخول: المرجع السابق، ص١٤.

علماء إلى البلاد لتعميق المفاهيم الإسلامية، وقد عينت لهذه الغاية الشيخ وجيه أفندي زيد الكيلاني النابلسي شيخ الإسلام في الفليبين، وقد بذل جهوداً حثيثة بين أعوام (١٩١٢ ـ ١٩١٦م) لتعليم المسلمين أمور دينهم.

وبين أعوام (١٩١٨ ـ ١٩٤٥م)، ومن ثم بين أعوام (١٩٤٥ ـ ٢٠٠٠م) تزايدت حركة الوعي الإسلامي في الفليبين نتيجةً لسهولة الاتصالات مع العالم العربي والإسلامي لا سيما مع الأزهر الشريف في مصر، ومع المملكة العربية السعودية. فقد قام الأزهر الشريف منذ مئات السنين ـ وما يزال ـ بتأدية دور إسلامي بارز، وتقديم المنح الدراسية للمسلمين في الفليبين، وبتطوير عمل الدعوة والدعاة المسلمين في تلك البلاد. ومن يطلع على الإحصاء الوارد في كتاب د. محمد حمد زيتون «المسلمون في الشرق الأقصى»[١] يدرك كم هي الجهود المبذولة من قبل الأزهر الشريف في سبيل الإسلام والمسلمين في الفليبين. كما أن المملكة العربية السعودية وسوريا وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والعراق والكويت والسودان والأردن ودول الخليج وباكستان وأندونيسيا، قدمت بدورها الكثير من المساعدات والمنح الدراسية لمسلمي الفليبين.

**الاستعمار الأجنبي في الفليبين:**

واجهت الفليبين خلال حقب تاريخية مختلفة ثلاثة أنواع من الاستعمار[٢]:

١ ـ الاستعمار الإسباني.

٢ ـ الاستعمار الأميركي.

٣ ـ الاستعمار الياباني.

---

(١) د. محمد محمود زيتون: المرجع السابق، ص٩٢ ـ ٩٧.

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر:

ـ د. قيصر أديب مخول: المسلمون في الفليبين، ص٢١ ـ ٣٢.

ـ د. محمد محمد زيتون: المسلمون في الشرق الأقصى، ص٢٨ ـ ٤٩.

ـ د. محمد عبد القادر أحمد: المسلمون في الفليبين، ص١٨ ـ ٤٠.

ـ د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٨، ص٦٢٦ ـ ٦٢٧.

Funk Wagnalls New Encyclopedia, vol. 20, pp.347 - 349.

**أولاً: الاستعمار الإسباني:**

ابتدأ الاستعمار الإسباني للفليبين في ١٧ آذار (مارس) (١٥٢١م) بقيادة القائد الإسباني ماجلان مبعوثاً من الملك الإسباني فيليب، وذلك لأهداف اقتصادية وسياسية ودينية. وقد استطاع ماجلان بدهائه وحنكته وقوته العسكرية نشر المسيحية في بعض مناطق الفليبين لا سيما سيبو وملكها وأتباعه، فقد تنصّر في ١٤ نيسان (إبريل) (١٥٢١م) ما يقارب خمسمائة من أهل المنطقة، ثم تزايد عدد المتنصرين، لذلك حاول ماجلان وبالقوة تنصير القبائل الأخرى بما فيها القبائل الإسلامية في سيبو والجزر المجاورة، فأذعن الكثير للأمر، باستثناء الملك لابولابو ملك جزيرة «مكتن» (Makton) الذي رفض الإذعان، لأنه وأتباعه كانوا من المسلمين المؤمنين، فجرد ماجلان حملة عسكرية مؤلفة من عدة سفن حربية لإخضاع الجزيرة الإسلامية وملكها، غير أن المقاومة الإسلامية بقيادة لابولابو أجهضت الحملة العسكرية، واستطاع المسلمون الذود عن مناطقهم وقتل ماجلان في عام (١٥٢١م). وكانت هذه الحادثة أول صدمة للأوروبيين في الفليبين، وأول نجاح للمسلمين خاصة وللفليبين عامة في الدفاع عن استقلال البلاد ضد الاستعمار الأجنبي.

ومن الأهمية بمكان القول: إن هزيمة الإسبان على أيدي المسلمين لم تمنعهم من محاولات أخرى لاحتلال البلاد، غير أنهم فشلوا مجدداً إلى أن وصل القائد الإسباني «ليجز بي كانونا» (CANONA) في آذار (مارس) (١٥٦٥م) على رأس حملة عسكرية مجهزة بالمدافع الحديثة، استطاع خلالها إخضاع ملكي جزيرة «بهول» كاتنون (Katnon) وغالا (Gala)، كما استطاع أن يوقع معاهدة صداقة معهما. ثم تحرك الإسبان من جزيرة «بهول» قاصدين «سيبو» في نيسان (إبريل) (١٥٦٥م)، غير أن أهل الجزيرة قاوموا مقاومة باسلة ضد الإسبان رافضين الإذعان، ولكن القوة الإسبانية الحديثة استطاعت السيطرة على الجزيرة، وعقد معاهدة بالقوة، بين الجانبين. وبذلك استطاع الإسبان التوطن في هذه الجزيرة، وأقاموا مستوطنة إسبانية في سيبو تكون منطلقاً لهم للسيطرة على بقية البلاد. كما أقاموا كنيسة أطلقوا عليها اسم «كنيسة أغسطين».

والأمر الملاحظ أن الدارس للحروب الإسبانية التي شنت ضد المسلمين في الفليبين، وكأن هؤلاء ينتقمون من فتح المسلمين السابق لإسبانيا، فبعد حركة

الاسترداد الإسباني، وانهيار حكم المسلمين في إسبانيا عام (١٤٩٢م)، بدأت محاكم التفتيش في إسبانيا بحق المسلمين، وما هي إلا سنوات قليلة حتى كانت محاولات إذلال المسلمين في أية منطقة ملائمة، بما فيها الفليبين، حيث إن الإسبان لم يتورعوا عن تشجيع المسيحيين في الفليبين لقتال مواطنيهم من المسلمين. وقد استمرت هذه الحروب ضد المسلمين المورو[١] ما يقارب ثلاثة قرون لا سيما في مناطق مندانا ووسولو، لذلك فقد اعتبرها بعض الدارسين أنها بمثابة حرب صليبية ضد مسلمي الفليبين الذين لا يملكون إمكانيات عسكرية تتوازى مع إمكانيات الإسبان؛ فضلاً عن أن الإسبان يريدون السيطرة على البلاد لأسباب اقتصادية واستراتيجية، نظراً لما يمثله موقع الفليبين في الشرق الأقصى.

وبعد عدة سنوات من استقرار الإسبان في البلاد، قامت عدة معارك ضد المسلمين منها معارك عامي (١٥٦٩ ـ ١٥٧٠م)، وقد تمكن الإسبان من حرق عدة قرى إسلامية، مما شجع القائد الإسباني «ليجازبي» على الاستمرار في توسيع حربه نحو الشمال في جزيرة لوزون حيث تقع مملكتان إسلاميتان هما: مملكة مانيلا، ومملكة تندو، وهما من أقوى الممالك الإسلامية في الشمال.

وفي عام (١٥٧٠م) شن الإسبان ومعهم جماعات من الفليبين يعرفون باسم «البسايا» حرباً على شواطئ المملكتين طالبين من المسلمين الإذعان والخضوع، ودفع الضرائب، الأمر الذي أثار المسلمين، وفضلوا الاستشهاد في سبيل عقيدتهم وأرضهم. وبالفعل فقد شنت المدفعية الإسبانية حرباً ضروساً على المملكتين الإسلاميتين انتهت بانتصار الإسبان.

ومما يلاحظ أن القائد الإسباني «ليجازبي» قرر نقل مقر القيادة الإسبانية من سيبو إلى مانيلا، لهذا ففي عام (١٥٧١م) تحركت الحملة الإسبانية الثانية لتمكين الجيش الإسباني من الاستقرار في مانيلا، فنشبت حروب جديدة بين الإسبان من

(١) المورو (Moro) مصطلح أطلقه الإسبان على مسلمي الفليبين، على اعتبار أن المسلمين في الفليبين يتشابهون في دينهم وعاداتهم وتقاليدهم مع مسلمي البلاد الإسبانية والمغاربية (Mourus)، لذا أطلقوا عليهم هذا الاسم. وكان هؤلاء يقطنون في جنوب الفليبين لا سيما في مناطق: كوتاباتو، بحيرة لاناو، سمونجا، تاوي تاوي، جزر شمالي سمونجا، خليج داباو، باسيلان، سولو.

جهة وبين «لاكان دولا» حاكم مملكة تندو وراجا سليمان حاكم مملكة مانيلا، انتهت مجدداً بانتصار الإسبان وإقامة مقر عام عسكري لهم في مانيلا. غير أن الحاكم المسلم راجا سليمان حاول استعادة ملكه، ولكنه استشهد أثناء هذه المحاولة، الأمر الذي أنهى الوجود الإسلامي في جزء لوزون، وهي أكبر جزيرة في شمالي الفليبين[١].

والجدير بالذكر أن الإسبان لم يكتفوا بالسيطرة على مناطق المسلمين في شمالي البلاد، بل قرروا التوسع نحو مناطق المسلمين في الجنوب، في عام (١٥٧٨م) هاجم القائد الإسباني استيبان دي فيجورا مدينة هولو، فتصدى له المسلمون بقيادة السلطان محمد حليم بنجيرن سلطان سولو، واستطاعوا رد الإسبان على أعقابهم، الذين فشلوا أيضاً في عام (١٥٩٦م) من احتلال منداناو وكوتاباتو، كما قُتل قائد الحملة الإسبانية. ومما يلاحظ على سمة الحملات الإسبانية أنها كانت ذات طابع صليبي لا حباً بالصليب، وإنما استغلالاً له، فما من حملة عسكرية إسبانية في الفليبين إلا وكان يتقدمها مجموعة من القساوسة المسيحيين للدلالة على طابعها الديني، فضلاً عن اعتراف قادة الحملة بأن الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا طلب منهم استعباد المسلمين والاستيلاء على ممتلكاتهم ومصادرتها والقضاء على الدين الإسلامي[٢].

ومن الملاحظ أيضاً أن عام (١٥٩٩م) شهد أسلوباً إسلامياً جديداً في القتال في الفليبين، فبعد أن كان المسلمون يتعرضون للهجمات وحرق مدنهم ومناطقهم باستمرار، حرصوا هذه المرة على تنظيم حملة عسكرية مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل مسلم، أقلعت بهم خمسون سفينة للانتقام من الإسبان في شمالي الفليبين، وبالفعل فقد أبلوا بلاءً حسناً في هذا المعركة وقتلوا وأسروا العديد من الإسبان، الأمر الذي غيَّر في موازين القوى في المنطقة[٣].

والحقيقة فإن ما أشرنا إليه من حروب ومعارك إنما هي نماذج عن صراع بين الإسبان والمسلمين في الفليبين استمر أكثر من ثلاثة قرون. فقد دام احتلال

(١) د. محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص٣٢ ـ ٣٧.
(٢) Nageeb M. Saleepy; The History of sulu, p.49 - 54, Manla 1963.
(٣) د. محمد محمد زيتون: المسلمون في الشرق الأقصى، ص٤١.

الإسبان للفليبين ما يقارب (٣٧٧) عاماً في الفترة الممتدة، بين أعوام (١٥٢١ ـ ١٨٩٨م)، حاول الإسبان خلالها إبادة المسلمين والقضاء على الإسلام، وإثارة النعرات الطائفية بينهم وبين إخوانهم المسيحيين حتى يتسنى لهم السيطرة بسهولة على البلاد.

ومما يلاحظ أيضاً أن الصراع الإسباني ـ الإسلامي في الفليبين اتخذ طابعاً دولياً، ففي الوقت الذي حاولت الدولة العثمانية التدخل خلال قرون الصراع انطلاقاً من مسؤوليتها الإسلامية، قامت دول أوروبا بإلهائها والصراع معها في مناطق أخرى من العالم. كما حاولت هولندا في الفترة ذاتها التدخل في الفليبين محاولة مساعدة المسلمين ضد إسبانيا حتى يتسنى لها موطئ قدم وموقع نفوذ لا سيما في القرن السابع عشر الميلادي، وفضلاً عن هولندا، فقد استطاعت بريطانيا في فترة السيطرة الإسبانية على الفليبين من أن تحتل جزيرة صغيرة في سولو عام (١٧٧٢م)، ومن احتلال مانيلا عام (١٧٩٢م) بدعوى حمايتها من غارات المسلمين والصينيين، غير أنهم سرعان ما سلموها إلى الإسبان استناداً إلى معاهدة سابقة موقعة بين الجانبين في باريس عام (١٧٦٣م). كما حاولت بريطانيا عام (١٨٠٣م) احتلال سمونجا. وبين أعوام (١٧٧٢ ـ ١٨٠٦م) تجرت محاولات بريطانية عديدة لاحتلال عدة مناطق في الفليبين لا سيما الإسلامية منها، غير أنه تبين لهم أن مشروعهم الاستعماري لم ينجح بسبب تمسك المسلمين بأرضهم، فضلاً عن تجذر الإسبان منذ قرون في البلاد، لهذا تركوا البلاد في كانون الأول (ديسمبر) من عام (١٨٠٦م).

**ثانياً: الاستعمار الأميركي:**

من الأهمية بمكان القول: إن الصراع الدولي بات واضحاً في الشرق الأقصى، لأسباب سياسية واقتصادية واستراتيجية، فقد حاولت الولايات المتحدة الأميركية، السيطرة على الفليبين وطرد الإسبان منها، وفي عام (١٨٩٨م) قامت الحرب الأمريكية ـ الإسبانية على أرض الفليبين، وقد استطاع الأميركيون احتلال مناطق عديدة في البلاد منها: هولو، سمونجا، وامتدوا إلى مناطق أخرى. وبعد هذا الانتصار الأميركي على الإسبان عقدت معاهدة بين الجانبين هي بمثابة تسوية على حساب الشعوب، أو بيع للشعوب الفقيرة، فبموجب اتفاقية باريس عام (١٨٩٨م) دفعت أميركا لإسبانيا مئتي مليون دولار أميركي لتحل محلها رسمياً في الفليبين، شرط عدم محاولة إسبانيا العودة إليها.

والحقيقة، فإن الأميركيين لم يكونوا بأحسن حال من الإسبان، بل قاموا بممارسات استعمارية ضد الفليبين لا سيما في مناطق المسلمين، الذين أبدوا معارضة ومقاومة للسيطرة الأميركية في السنوات الأولى[1]. ومن بين المعارك التي خاضها المسلمون ضد الأميركيين معركة هولو الأولى عام (١٩٠٦م) ومعركة هولو الثانية عام (١٩١٣م)، حيث استشهد من المسلمين في المعركتين أكثر من ألف شهيد. ونتيجةً لصمود المسلمين، فقد بدأت أميركا تعيين حكام من المدنيين لتهدئة نفوس المسلمين، فاختارت «فرانك كرينتر» أول محافظ أميركي لجزيرة سولو ومنداناو، وقد حرص الحاكم الجديد بدوره على إظهار الصداقة لسلطان المسلمين والاهتمام بمناطقهم لا سيما: سولو، لاناو، كوناباتو، سمونجا، داباو، آغوس، بوكيدنن، وأنشأ الحاكم الجديد وزارة خاصة لإدارة هذه المناطق جعل مقرها في لاناو. كما استطاع بدهائه وحسن إدارته للبلاد من عقد معاهدة مع السلطان جمال سلطان سولو عام (١٩١٥م) تنازل بموجبها السلطان عن سلطاته الدنيوية للأميركيين، مقابل الاعتراف به زعيماً روحياً لمسلمي الفليبين. كما أنشأت الإدارة الأميركية المدارس والمستشفيات في المناطق الإسلامية لكسب ود المسلمين.

ومما يسترعي الانتباه أن الإدارة الأميركية استطاعت تحقيق نتائج مهمة وتهدئة الأمور وإقرار السلم الأهلي في الفلين في سنوات قليلة، فيما فشلت إسبانيا تحقيقه خلال ثلاثة قرون. خاصة وإن الإدارة الأميركية تعهدت عام (١٩٣٦م) للفليبين بإعطائها الاستقلال في مرحلة انتقالية لا تتعدى عشر سنوات، وبالفعل فقد كان أول رئيس للبلاد هو من العناصر الوطنية، غير أن قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) أدى إلى تغيرات أساسية في الخطط المستقبلية الموضوعة للفليبين.

**ثالثاً: الاستعمار الياباني:**

شاركت اليابان إلى جانب ألمانيا وإيطاليا في الحرب العالمية الثانية ضد دول الحلفاء: بريطانيا، فرنسا، روسيا، ومن ثم الولايات المتحدة الأميركية.

---

(١) انظر: د. محمد عبد القادر أحمد: المسلمون في الفليبين، ص٣٧ ـ ٣٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٣. انظر أيضاً:
د. محمد محمد زيتون: المسلمون في الشرق الأقصى، ص٤٧ ـ ٤٨.

لهذا قامت اليابان باحتلال الفليبين عام (١٩٤٣م)، مما دعا الشعب الفليبيني من المسلمين والمسيحيين على السواء للوقوف ضد الغزو الياباني، فعمدت القوات اليابانية إلى عملية إبادة جماعية للمناطق الإسلامية، وإلى اعتقال القيادات الفليبينية لا سيما الإسلامية منها بسبب معارضتهم للاحتلال، وقد أبلي المسلمون بلاءً حسناً ضد الاستعمار الياباني الجديد، لا سيما وأن المسلمين كانوا قد امتلكوا خبرات قتالية لأكثر من ثلاثمائة سنة في مقاومة الإسبان والأميركان على حد سواء. ومما يؤكد الممارسات التعسفية والاستعمارية التي قام بها اليابانيون في فترة احتلالهم للفليبين، ما صرح به «يوشيرو موري» رئيس وزراء اليابان بمناسبة مرور (٥٥) عاماً على استسلام بلاده للحلفاء (١٩٤٥ ـ ٢٠٠٠م) من أن اليابان تقدم اعتذارها للدول الآسيوية التي عانت من الاحتلال الياباني خلال النصف الأول من القرن العشرين، متعهداً بالإسهام بشكل أكبر في جهود تحقيق السلام والرخاء العالميين خلال الألفية الثالثة، كما أبدى أسفه عن المجازر التي ارتكبتها قوات الجيش الإمبراطوري في تلك الدول الآسيوية بما فيها الفليبين. وطالب موري باستيعاب دروس الماضي، ودعا الأجيال الشابة التي تحاشي تكرار تجربة الحرب والسعي إلى الحفاظ على السلام باطلاعهم على قسوة الحرب ووحشيتها. وكانت اليابان قد فقدت ثلاثة ملايين عسكري ومدني خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م)[١].

**العهد الاستقلالي في الفليبين:**

بعد إطلاق الولايات المتحدة الأميركية القنابل الذرية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين، واستسلام اليابان عام (١٩٤٥م)، قامت في الفليبين حكومة وطنية كاثوليكية تحمل الطابع الديني، وتقوم بممارسات طائفية، وتدفع بعشرات الألوف من المسيحيين للتوطن في المناطق الإسلامية لجعلها مناطق تضم أقلية إسلامية، مما أساء إلى الوحدة الوطنية، لا سيما وأن المسلمين قدموا تضحيات ضخمة في سبيل حرية واستقلال الفليبين، لهذا ثار المسلمون ضد الحكومة الفليبينية، لا سيما وأن المسلمين كانوا يأملون بعد حصول الفليبين على الاستقلال

---

(١) الأهرام (القاهرة) ١٦ آب (أغسطس) ٢٠٠٠م.

عام (١٩٤٦م)، إقامة العدالة والمساواة، والحصول على حكم لا مركزي، ولكن على العكس، ففي عام (١٩٥٠م) ألحقت المناطق الإسلامية وشؤون المسلمين بسلطة رئيس الدولة الكاثوليكي وبالحكومة الكاثوليكية، التي عملت على تفتيت القوى الإسلامية وحرمانها من حقوقها الدينية والمدنية على السواء.

والدارس للواقع الأليم في الفليبين يدرك نتائج الحرب ضد المسلمين في الشرق الأقصى، فضلاً عن عدم اهتمام السلطة المحلية والأجنبية بالمناطق الإسلامية الأمر الذي أدى إلى عدم تقدمها، بل وتدهورها، ففي عام (١٩٠٨م) على سبيل المثال كان المسلمون يسيطرون على ٩٢٪ من مجموع مساحة ميناناو، فنتيجةً لحركة التبشير والتنصير والتوطين والتهجير، فإن مساحة الأرض تقلصت في عام (١٩٧٠م) إلى أقل من ٣٥٪، وفي الوقت الحاضر تقلصت السيطرة الإسلامية على تلك الأراضي إلى أقل من ذلك بكثير، والحقيقة فإن سياسة نقل السكان المسيحيين، وتمليكهم أراضي المسلمين التي اتبعتها الحكومة الفليبينية هي سياسة قديمة سبق للأميركيين أن اتبعوها أثناء استعمارهم للفليبين[(١)]. ومع عمليات التهجير والتوطين نشطت البعثات التبشيرية مستغلة الوضع الاقتصادي المتردي للمسلمين، فمضت هذه البعثات في إقامة المستشفيات والمدارس والجمعيات الدينية، وهو ما جعل عدداً كبيراً منهم يتحولون عن دينهم، لأن هذه التقديمات كان مطلباً مهمّاً وحاجة ملحة للمسلمين الفقراء[(٢)].

**المشكلات المعاصرة في الفليبين:**

تعاني الفليبين من مشكلات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، فضلاً عن المشكلات الطائفية والمناطقية. وتعاني الأقلية الإسلامية من هذه المشكلات

---

(١) Peter G. Goming; Mandate in Moraland, The American Government of Muslims Filipinos 1899 - 1920, Philippine Centre for Advanced Studies 1977.

(٢) انظر: د. ماجدة علي صالح: الحركة الإسلامية في الفليبين، ص٣٢٣ من كتاب: الحركات الإسلامية في آسيا، تحرير: د. علا عبد العزيز أبو زيد، مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهرة، ١٩٩٨م.
انظر أيضاً: أحمد بشير: تاريخ الإسلام في الفليبين، ص٦٥ ـ ٦٦، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٤م.

مجتمعة، فضلاً عن مشكلاتها المتعلقة بالتخلف الثقافي والتنموي، وتعدد اللغات المحلية، والخلاف بين الزعامات الإسلامية، والجهل بتعاليم الإسلام[1].

فبالإضافة إلى مشكلة التخلف العام في الفليبين، فهناك تخلف من نوع خاص في المناطق الإسلامية نتيجة الحروب العديدة التي شنتها قوى الاستعمار على المسلمين. ومن بين هذه الحروب المدمرة للمجتمع الإسلامي «تنظيم إيلاجاس الكاثوليكي السري»[2] الهادف إلى طرد المسلمين من الفليبين، والسيطرة على مناطقهم وأراضيهم. وقد استطاعت هذه الجماعات المتطرفة من إجلاء عشرات الألوف من المسلمين عن مناطقهم وانضمامهم إلى معسكرات ومخيمات اللاجئين المسلمين. ومنذ عام (١٩٧١م) تبين أن هناك تآمراً مشتركاً بين الرئيس الفليبيني ماركوس وبين جماعة إيلاجاس التي تزايد وجود عناصرها في جزيرة ميناداناو الإسلامية، بحيث ارتفع العدد إلى أكثر من أربعين ألف مقاتل؛ استطاعوا قتل الآلاف من المسلمين، وحرق ممتلكاتهم، وإحراق مساجدهم، وتهجيرهم من قراهم.

هذا، وقد أشارت الإحصاءات إلى أن عدد المذابح والحوادث الدامية بحق المسلمين في جنوب الفليبين قد بلغت بين أعوام (١٩٦٩ ـ ١٩٧٥م) أكثر من (٥٠٠) حادثة، بخلاف الحوادث غير المسجلة، فضلاً عن أكثر من خمسين ألف نسمة من الشهداء، وأكثر من خمسين ألف مهجر، لهذا فإن المسلمين كانوا باستمرار يجددون مطالبتهم بالاستقلال في جزرهم الإسلامية منذ عام (١٩٦٨م) بقيادة «أوتوج ماتالم» وجبهة تحرير بنجسامورو أي «جبهة تحرير أمة المسلمين». ونظراً لخطورة أوضاع المسلمين في الفليبين، فقد تحركت ليبيا بالتعاون مع الأزهر الشريف للاطلاع على واقع المسلمين. ومن أجل ذلك عرضت مشكلة المسلمين في جنوبي الفليبين على مؤتمرات وزراء خارجية الدول الإسلامية، ابتداءً من مؤتمر كوالا لمبور عام (١٩٧٤م) إلى مؤتمر فاس عام (١٩٧٩م)، ومؤتمرات القمة الإسلامية في الثمانينات والتسعينات. وأوصت هذه المؤتمرات

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: د. محمد عبد القادر أحمد: المسلمون في الفليبين، ص٤٢ ـ ٥٤.

(٢) قامت جماعات هذا التنظيم بالتدريب على حرب العصابات في إسرائيل، وتملكت أسلحة إسرائيلية، كما أنها تلقت دعماً من حكومة الفليبين.

بإعطاء المسلمين حقوقهم الدينية والمدنية المشروعة، وضرورة تطبيق العدل والمساواة، وإعطائهم حكماً ذاتياً في إطار احترام السيادة الوطنية لجمهورية الفليبين ووحدة أراضيها على أن يشمل ذلك ثلاثة عشر إقليماً[1].

ولكن جميع الوفود والوساطات الإقليمية والدولية الإسلامية منها والعربية والدولية لم تسفر عن وضع حد نهائي لأعمال العنف، خاصة وأن الجبهة الإسلامية في الفليبين قد انشقت إلى عدة جبهات منها:

١ ـ جبهة مورو الإسلامية.

٢ ـ جبهة هشام سلامات.

٣ ـ جبهة نور مسواري.

٤ ـ جبهة أبو سيّاف بقيادة زعيمها عبد الرسول سيّاف.

٥ ـ جماعة بنداتون وديماس ورشيد لقمان.

غير أن أهم هذه الحركات هي حركة مورو الإسلامية، وحركة نور مسواري التي انشقت عنها[2].

لهذا فإن الاجتماعات التي عقدت بين مختلف الأطراف في مكة المكرمة عام (١٩٧٩م) لم تسفر عن أية نتيجة، كما أن اتفاق طرابلس الغرب عام (١٩٧٦م) لم يحقق الحكم الذاتي للمسلمين. وقد استطاع ماركوس استغلال الخلافات بين القيادات الإسلامية للتخلص من كل اتفاق أو توصيات.

والأمر الملاحظ أن العلاقة بين الحكومة الفليبينية والحركات الإسلامية مرت بمراحل وتطورات عديدة، شهدت فيها فترات من العنف والسلم، ومن الحرب والهدنة لا سيما في الفترة الممتدة بين أعوام (١٩٤٦ ـ ١٩٦٤م)، ومن ثم في الفترة الممتدة بين أعوام (١٩٦٥ ـ ٢٠٠٧م). وقد شهدت الفترة الثانية حكم خمسة رؤساء هم على التوالي[3]:

---

(١) للمزيد من الفتاصيل انظر: د. محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص٥٦.

(٢) Charles c. Mcdouglad; The Marcos File, p.163. U.S.A. San Francicsco Publishers 1987.

(٣) للمزيد من التفاصيل عن حكم رؤساء الفليبين ١٩٦٥ ـ ١٩٩٢م، انظر:

Funk and Wagnalls New Encyclopedia, vol. 20. pp.349 - 350.

١ ـ فرديناند ماركوس (١٩٦٥ ـ ١٩٨٦م).

٢ ـ السيدة كورازون أكينو (١٩٨٦ ـ ١٩٩٢م).

٣ ـ فيدل راموس (١٩٩٢ ـ ١٩٩٨م).

٤ ـ جوزف استرادا (١٩٩٨ ـ ٢٠٠٤م).

٥ ـ غلوريا ماكابغل آرويو (٢٠٠٤ ـ . . . . .) Gloria Maca Pegal-Arroyo.

ومما يلاحظ أن استراتجيات احتواء المسلمين اعتمدت بالدرجة الأولى على الأوضاع الاقتصادية المتردية للمسلمين في الفليبين، ومحاولة الحكومة تحسين هذه الأوضاع وتحسين الأوضاع الاجتماعية والتربوية والثقافية. كما اعتمدت سياسة الاحتواء على التناقضات بين الحركات الإسلامية ذاتها، فضلاً عن التوازنات الإقليمية والدولية بما فيها التوازنات مع العالم الإسلامي، غير أن كل المفاوضات ومحادثات السلام، بما فيه التقديمات الاقتصادية والاجتماعية الشكلية لم تحل مشكلة المسلمين بالرغم من عقد عدة اجتماعات بين حكومة الفليبين وممثلي المسلمين منها:

١ ـ محادثات السلام الرسمية في جاكرتا عاصمة أندونيسيا عام (١٩٩٣م).

٢ ـ محادثات السلام الرسمية في جاكرتا عام (١٩٩٤م).

٣ ـ محادثات السلام الرسمية في جاكرتا عام (١٩٩٥م).

٤ ـ محادثات السلام الرسمية في مدينة دافاو الفليبينية ذات الغالبية المسيحية عام (١٩٩٦م)، واتفاق السلام عام (١٩٩٦م) في مانيلا.

وكانت طموحات المسلمين في جنوبي الفليبين من خلال جميع هذه المباحثات التوصل إلى حكم شبه مستقل عن الحكومة المركزية، أو حكم ذاتي يمارس فيه المسلمون تنظيم شؤونهم السياسية والمالية والتعليمية والاقتصادية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والمشاركة في البرلمان الوطني. وقد تم الاتفاق في مباحثات عام (١٩٩٦م) على الأمور التالية[1]:

١ ـ إنشاء كيان إداري للحكم في جنوبي الفليبين ويضم (١٣) منطقة إسلامية.

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: د. ماجدة علي صالح: الحركة الإسلامية في الفليبين، ص٣٣١ ـ ٣٤٣. انظر أيضاً: سليمان مظهر: النمور الصغيرة الزاحفة، ص٣٨٩.

٢ ـ يعهد لجبهة مورو الوطنية إدارة هذا الكيان لفترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات.

٣ ـ يعقب المرحلة الانتقالية إجراء استفتاء حول الحكم الذاتي.

٤ ـ إنشاء قوة شرطة محلية من المسلمين في جنوب الفليبين.

٥ ـ انضمام المسلمين إلى الجيش الفليبيني.

ومما يلاحظ أنه بالرغم من التوصل إلى هذا الاتفاق، غير أن الحكومة الفليبينية وضعت بعض الشروط بهدف عدم العمل به، وإجهاضه قبل أن يبصر النور. وفي هذا الإطار فإننا لا يمكن أن نغفل دور (الكيان الصهيوني) في إفشال الاتفاقات بين المسلمين وحكومة الفليبين، ذلك أن (إسرائيل) ترتبط بعلاقات وطيدة مع حكومة مانيلا، إذ يوجد خبراء عسكريون إسرائيليون في الفليبين منذ بداية الحرب ضد المسلمين، كما أرسلت (إسرائيل) عدداً كبيراً من خبرائها العسكريين إلى مانيلا بهدف تدريب قوات خاصة لحكومة كورازون أكينو يطلق عليها «الجيش الأصفر»، حيث أرسلت وحدات من هذا الجيش في عهد أكينو لمحاربة المسلمين في الجنوب. ولهذا فإن (إسرائيل) قامت ـ وما تزال ـ بدور فاعل في الفليبين ضد المسلمين لا سيما في المجال العسكري[١].

ومن الأهمية بمكان القول: إن المسلمين في الفليبين ما يزالون يعانون من اضطهاد ومحاربة الحكومة الفليبينية بشتى الوسائل العسكرية والسياسية والاقتصادية والتنموية. ومن الملاحظ أنه بالرغم من تباين وجهات نظر الحركات الإسلامية في كيفية التعامل مع حكومة مانيلا، غير أن الجميع متفق على تحقيق الحكم الذاتي للمسلمين، والحركة الوحيدة التي تدخل في مفاوضات مع الحكومة الفليبينية هي «جبهة مورو للتحرير الوطني» في حين أن بقية الحركات تؤمن إيماناً مطلقاً بأن المفاوضات ولت إلى غير رجعة، وأن الكفاح هو الحل الوحيد للحصول على الحكم الذاتي بالرغم من أن هذه الحركات تعاني من عدم جدوى تأييد العالم الإسلامي لمطالبهم التاريخية، ومن نقص حاد في التمويل لهذا فقد أقدمت جماعة أبو سياف التابعة لحركة مورو الإسلامية منذ ٢١ نيسان (إبريل) عام (٢٠٠٠م) ولشهور عديدة على اختطاف عدد من السياح الأجانب مطالبين بفدية

---

(١) د. ماجدة علي صالح: المرجع السابق، ص٣٤٦.

مالية كبيرة عن كل رهينة، فضلاً عن هدف تحريك قضيتهم ومشكلتهم أمام العالم، ومطالبتهم بإنشاء دولة إسلامية في مناطقهم. وقد نقلت الرهائن بما فيه اللبنانية ماري معربس من منتجع ماليزي إلى منطقة جولو الإسلامية في جنوب الفليبين. وذكرت المعلومات أن ليبيا ـ الوسيطة في هذه القضية ـ دفعت مبلغ (٢٥) مليون دولار لقاء إطلاق سراح الرهائن[١].

وبالرغم من أن ليبيا نفت هذه المعلومات وأن عملها هو عمل إنساني بحت، غير أن الدبلوماسيين الغربيين في طرابلس الغرب أكدوا أن ليبيا ستدفع تلك المبالغ لتصحيح صورتها أمام العالم[٢]. مع العلم أن ليبيا أكدت أن مبلغ الـ(٢٥) مليون دولار ستستخدم في بناء مشروعات إنمائية في المناطق ذات الأغلبية المسلمة جنوبي البلاد[٣].

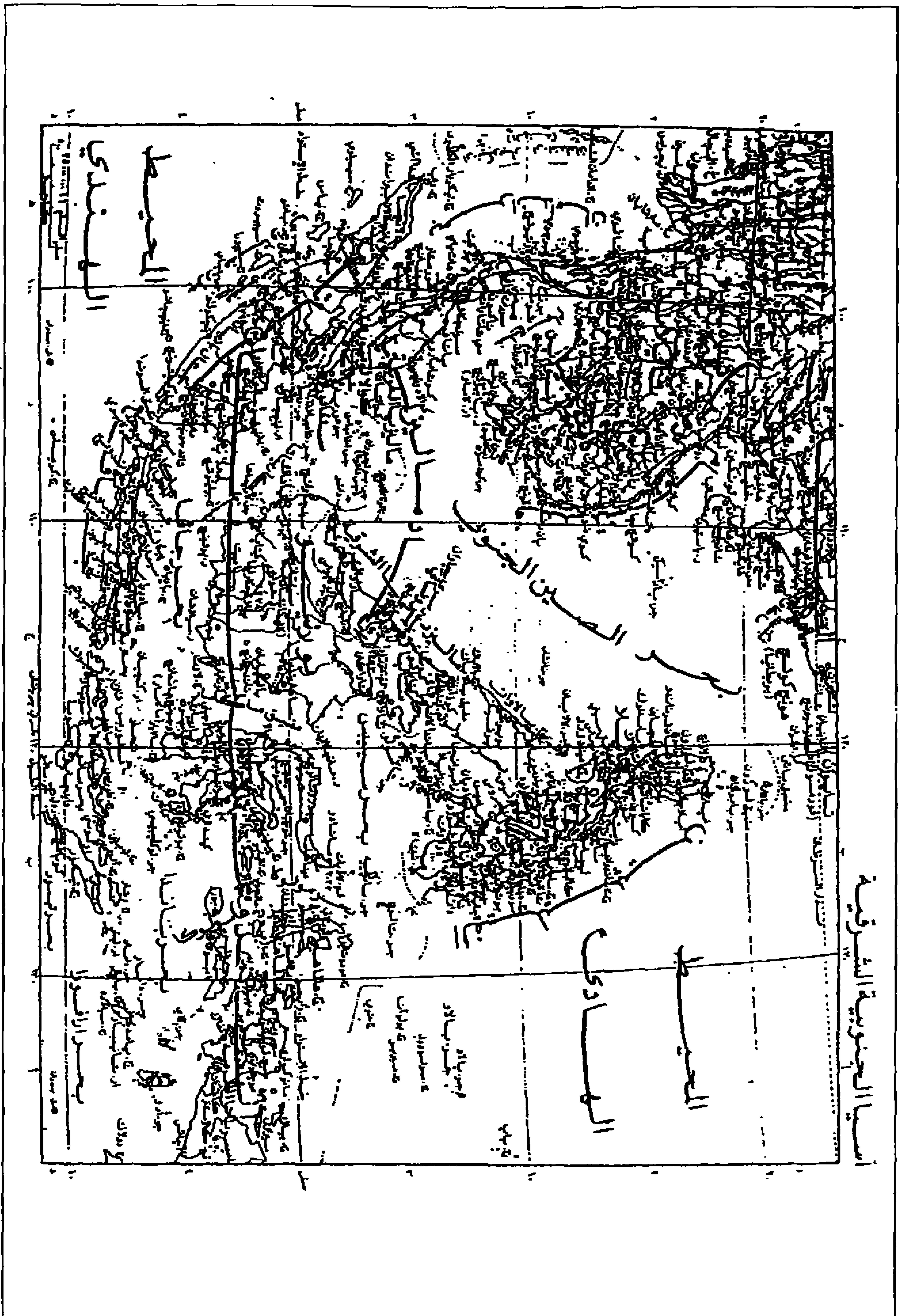
والحقيقة فإنه بالرغم من تأييد العالم والعالم الإسلامي لقضية المسلمين في الفليبين، غير أن خطف الأبرياء من مختلف الجنسيات لم تفعّل القضية الإسلامية في الفليبين، ولم تؤد إلى تطور فاعل أو حاسم لها، بل إن بعض الأوساط الدولية والإسلامية استنكرت مثل هذا العمل. ثم لا بد من القول: إن الدول الغربية، تدعم كل ما يؤول إلى إفشال المسلمين في تحركاتهم ونشاطاتهم، لأن الغرب يعتبر أن أي نظام أو حركة إسلامية، إنما ستعمل على مناوأة ومعاداة الغرب، لذا فالعلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب في أي منطقة من مناطق العالم، لم تكن علاقة تبشر بالخير والطمأنينة.

---

(١) الحياة (طبعة القاهرة)، الأحد ١٣ آب (أغسطس) ٢٠٠٠م، انظر أيضاً: الحياة (طبعة بيروت)، الاثنين ٢٨ آب (أغسطس) النهار، المستقبل، اللواء، السفير، ٢٨ آب (أغسطس) ٢٠٠٠، The DAILY STAR, 28 August 2000.

(٢) الأهرام، ٢٠ آب (أغسطس) ٢٠٠٠.

(٣) الأهرام، ٢٢ آب (أغسطس) ٢٠٠٠.



**خريطة آسيا الجنوبية الشرقية وتظهر فيها الفليبين والصين وماليزيا وأندونيسيا وفيتنام وتايلاند وسواها**

# جدول إحصائي يبين عدد المقاطعات والمدن الفليبينية
# وعدد السكان فيها استناداً إلى إحصاء عام (١٩٩٥م)

Philippines: contry profile
- adminisrative divisions
- main cities

administrative dicisions of the Philippines

| region | number of provinces | pop. 1 sept. 1995 est. |
|---|---|---|
| I - Ilocos | 4 | 3.804.000 |
| II - Cagayan Valley | 5 | 2.536.00 |
| III - Central Luzon | 6 | 6.933.000 |
| IV - Southern Tagalog | 11 | 9.941.000 |
| V - Bicol | 6 | 4.325.000 |
| VI - Western Visayas | 6 | 5.777.000 |
| VII - Central Visayas | 4 | 5.015.000 |
| VIII - Eastem Visayas | 6 | 3.367.000 |
| IX - Western Mindanao | 3 | 2.795.000 |
| X - Northern Mindanao | 4 | 2.483.000 |
| XI - Southern Mindanao | 6 | 4.604.000 |
| XII - Central Mindanao | 2 | 2.360.000 |
| CARAGA | 4 | 1.942.000 |
| Metro Manila | - | 9.454.000 |
| Cordillera Administrative Region | 6 | 1.255.000 |
| Autonomous Region for Muslim Mindanao | 4 | 2.021.000 |
| Total | 77 | 68.614.200 |

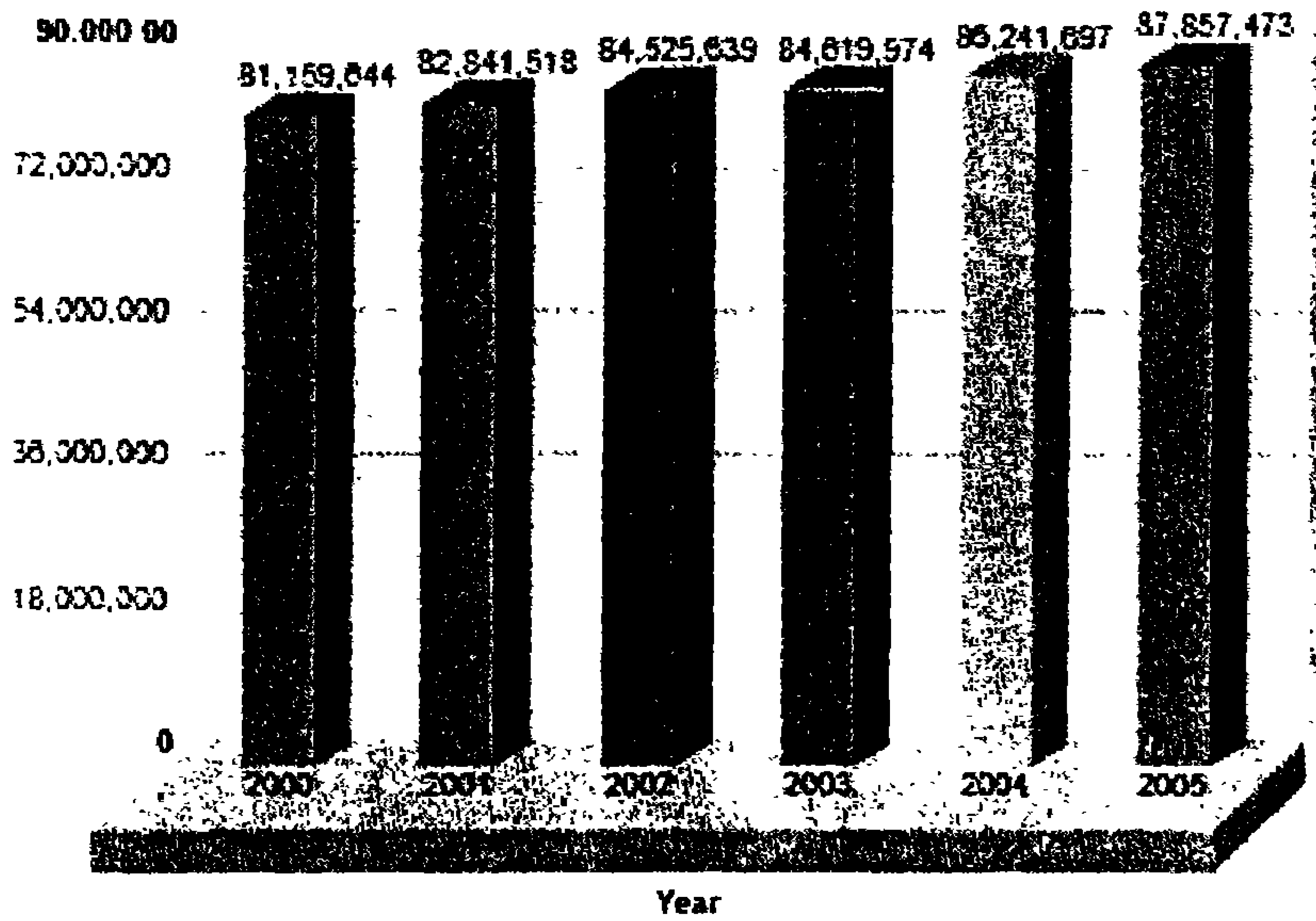
source: NSCB, Philippines
- administrative divisions
- main cities

main cities of the Philippines

| cities | population Sept. 1995 est. |
|---|---|
| Quezon | 1.989.000 |
| Manila | 1.655.000 |
| Kalookan | 1.023.000 |
| Davao | 1.007.000 |
| Cebu | 662.000 |
| Zamboanga | 511.000 |
| Makati | 484.000 |
| Pasig | 471.000 |
| Cagayan de Oro | 428.000 |
| Pasay | 409.000 |

source: NSCB. Philippines.

## التطور السكاني للفلبيين بين أعوام
## ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٥م[1]




Source: CIA World Factbook
Unless otherwise noted, information in this page is accurate as of January 1, 2005

(١) المصدر:

http://www.indexmundi.com (2006).

# الفصل السابع

# قضايا ومشكلات عنصرية واستعمارية ضد العرب والمسلمين في الشرق والغرب

# الفصل السابع

## قضايا ومشكلات عنصرية واستعمارية ضد العرب والمسلمين في الشرق والغرب

يعود التواصل والتفاعل بين الشرق والغرب إلى عصور بعيدة سابقة على بداية الدعوة الإسلامية. ذلك إن العرب تفاعلوا مع الغرب عبر العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ولما جاء الإسلام، بات العرب والمسلمون أكثر احتكاكاً بالعالم الغربي سواء في العهود الإسلامية الأولى، أو في العصور الوسطى، أو في العصور الحديثة والمعاصرة. ويكفي الإشارة إلى ثلاثة معابر حضارية ومناطق التقاء بين الشرق والغرب، وهي:

١ ـ الأندلس.

٢ ـ صقلية.

٣ ـ بلاد الشام خلال العهود الصليبية.

وقد انتقلت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا عبر هذه المعابر الثلاثة، حيث انتشرت اللغة العربية والحضارة الإسلامية في أوروبا بفعل تمازج الغرب مع العرب والمسلمين الذين كانوا يتميزون بحضارة ومدنية قلّ مثيلها في العالم، فانتقلت علوم العرب والمسلمين لتفتح آفاق التمدّن والتحضّر في أوروبا. وقد استمرت أوروبا تنهل من الحضارة العربية الإسلامية حتى ما بعد سقوط الأندلس عام (١٤٩٢م)، في الوقت الذي كان فيه بعض دول الغرب الأوروبي تكتشف القارة الأميركية التي كان يسيطر عليها الجهل والفقر وآفة التخلف، كما هي أوروبا الغربية.

وفي التاريخ الحديث، وبعد فتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية في عام (١٤٥٢م)، وسقوط الإمبراطورية البيزنطية، وتحويل عاصمتها إلى أهم عاصمة إسلامية حديثة هي إسلام بول أو استانبول، ازدادت العلاقات بين العثمانيين المسلمين وبين أوروبا، وإن كانت هذه العلاقات قد اتخذت طابعاً عسكرياً، غير

أن ذلك كان سبباً أساسياً ومباشراً لنشر الإسلام في أوروبا، لا سيما أوروبا الشرقية.

وبعد سقوط بلاد الشام عام (١٥١٦م) ومصر عام (١٥١٧م) بيد العثمانيين وهزيمة المماليك، تميز العهد العثماني ونتيجةً لظروف سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، بانفتاحه على أوروبا سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وسواء بمعارك وحروب عسكرية، أو لاضطراره الانفتاح على الغرب للأخذ وللاقتباس من قوانينه ودساتيره وأساليبه في الحكم، وهو ما عرف آنذاك «بالتغريب». كما اضطر بعض سلاطين الدولة العثمانية لإرسال بعثات عسكرية وعلمية للاقتباس وللاستفادة من الأساليب والوسائل الغربية الحديثة. وقد اعتمد الأسلوب ذاته بعض ولاة وأمراء الدولة العثمانية يأتي في مقدمتهم الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥م) ووالي مصر محمد علي باشا (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩م)، وما تزال نهضة مصر الحديثة والمعاصرة تدين بتقدمها وانفتاحها على الغرب الحديث والمعاصر لعهد محمد علي باشا الذي احتك بأوروبا لا سيما فرنسا بواسطة البعثات العلمية المتنوعة والمتعددة في مختلف المجالات.

وبدون أدنى شك، فإن دول الغرب الأوروبي كانت تمثل حركة استعمارية حديثة للسيطرة على المشرق والمغرب العربي. وكان القرن التاسع عشر قد شهد موجات من الاحتلالات الغربية لولايات العالم العربي، كاحتلال فرنسا للجزائر وبعض دول المغرب العربي، واحتلال بريطانيا لمصر عام (١٨٨٢م)، وجاءت نتائج الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، لتكرس احتلال بريطانيا وفرنسا للمشرق والمغرب العربي، ومن ثم إقامة الكيان الإسرائيلي عام (١٩٤٨م) في فلسطين العربية.

والجدير بالذكر أنه بالرغم من حصول الدول العربية على استقلالها التام، غير أن أخطار السيطرة الأميركية والأوروبية الاقتصادية والسياسية والعسكرية ما تزال رابضة في أرجاء الوطن العربي، لا سيما في العراق الشقيق، فضلاً عن الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين العربية.

ومن الأهمية بمكان القول: إنه ولأسباب اقتصادية وسياسية وعسكرية واجتماعية، بدأت بعض المناطق العربية، وفي مقدمتها مناطق لبنانية وسورية هجرة سكانية ابتداءً من القرن التاسع عشر إلى مصر والأميركيتين، وكانت هذه الظاهرة تمثل هجرة محدودة، سرعان ما تكاثرت في القرن العشرين، وقد ازدادت نسبتها بعد سقوط فلسطين عام (١٩٤٨م)، وتكرر الحروب العربية ـ الإسرائيلية (١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣م)، ومن ثم اجتياح إسرائيل للبنان عام (١٩٨٢م)، واستمرار تهجير الفلسطينيين من أراضيهم داخل فلسطين، واستمرار الحرب اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠م) واندلاع حروب الخليج لا سيما الحرب العراقية ـ الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٩م)، واحتلال العراق للكويت عام (١٩٩٠م)، ومشاركة القوات الأميركية والأوروبية والعربية لتحرير الكويت مجدداً (١٩٩١م).

وفضلاً عن هذا وذاك، فقد كانت ـ وما تزال ـ حقوق الإنسان في بعض دول العالم العربي غير مصانة، وغير معترف بها، بالإضافة إلى أوضاع اقتصادية واجتماعية متردية. لهذا فقد ازدادت هجرة الشباب العربي إلى الولايات المتحدة الأميركية وبلدان أوروبا الغربية، واسكندنافيا وسويسرا والسويد وبلجيكا وأفريقيا ودول الخليج العربي. وتكاثر المهاجرون العرب والمسلمون من جميع الجنسيات في كل دول المهجر، حيث كونوا لهم مجتمعات عربية وإسلامية باتت تمثل الملايين، ويكفي الإشارة إلى وجود أكثر من أربعة ملايين مغاربي في فرنسا وحدها.

إن شعور الشباب العربي والمسلم بالمظالم الأميركية والأوروبية والصهيونية اللاحقة بالعرب عامة والفلسطينيين خاصة، فضلاً عن عوامل عديدة أخرى أدت إلى أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) عام (٢٠٠١م) حيث تعرضت الولايات المتحدة الأميركية لضربات وهجمات موجعة في عقر دارها، الأمر الذي انعكس سلباً على واقع العرب والمسلمين في مختلف دول الغرب، وبات واقع المهاجرين العرب والمسلمين في الغرب بعد أحداث ١١ سبتمبر واقع يختلف عما كان عليه قبل الأحداث. بل أكثر من ذلك، فإن واقع العالم العربي بات اليوم هو غير ما كان عليه قبل أحداث ١١ سبتمبر، لا سيما بعد احتلال الجيش الأميركي ومعه الجيش البريطاني وجيوش أخرى العراق في آذار (مارس) عام (٢٠٠٣م) وسقوط نظام صدام حسين.

بدون أدنى شك، فإن واقع الجاليات العربية والإسلامية في دول الغرب باتت تمثل معضلة من المعضلات العربية والإسلامية في الوقت الراهن، لارتباطها بواقع العرب والمسلمين وبمستقبلهم ومستقبل أولادهم وأحفادهم، فقد باتت صورة العربي المقيم إقامة دائمة في الغرب أو القادم إليها مؤقتاً صورة «الإرهابي» والملاحق قانوناً وعرفاً. وقد أسهمت الصهيونية في تعميق هذه الصورة في الإعلام الغربي وفي الوقت الذي تفتخر دول الغرب بالحرية والديموقراطية والتقيد بمبادئ حقوق الإنسان، فإذا بهذه الدول ذاتها تقيد حرية حركة المواطن العربي والمسلم، وتسلبه حقوقه الإنسانية بمعاملته معاملة سيئة، وملاحقته، بما فيه ملاحقة الأساتذة والطلبة العرب، الذين بدأوا يشعرون بمعاداة العروبة والإسلام، فآثروا العودة إلى ديارهم، والالتحاق بجامعات أو دول أخرى. بل إن أحداث ١١ (سبتمبر) (٢٠٠١م) لم تنعكس سلباً على العرب والمسلمين المقيمين في الغرب فحسب، بل انعكست سلباً وضغطاً على الأنظمة العربية، إذ تحاول الولايات المتحدة الأميركية تحديداً فرض أنظمة ومناهج تربوية على العرب بما يتوافق والفكر الغربي، مدعية أن المناهج التربوية والتعليمية العربية هي السبب المباشر في ولادة التطرف والمتطرفين والإرهاب والإرهابيين!!!، لذا لا بد من تحديثها وإدخال تعديلات عليها.

والحقيقة، فإن مشكلة ملايين العرب والمسلمين ما تزال قائمة في الولايات المتحدة الأميركية ودول الغرب الأوروبي. فما واقع الجاليات العربية والإسلامية في تلك الدول؟

يبين لنا الجدول التالي عدد المسلمين العرب في الدول الغربية ـ باستثناء الولايات المتحدة الأميركية ـ وهو يعكس أثرهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتربوي في بلادهم الجديدة[١].

---

(١) انظر: د. عبد الله الخطيب: المسلمون في أوروبا الغربية، من كتاب: الجاليات الإسلامية في أوروبا الغربية (مشكلات التأقلم والاندماج)، ص٢٤ ـ ٢٥. صادر عن كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت ٢٠٠٤.

➢ أعداد المسلمين في أوروبا الغربية[1]:

| القطر | عدد سكان البلد | عدد المسلمين | عدد العرب | نسبة العرب |
|---|---|---|---|---|
| فرنسا | ٥٦,٥٧٦٠٠٠ | ٥,٥٠٠,٠٠٠ | ٣,٨٠٠,٠٠٠ | ٧٠٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| ألمانيا | ٧٩,١١٣,٠٠٠ | ٣,٢٠٠,٠٠٠ | ٣٦٠,٠٠٠ | ١١٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| بريطانيا | ٥٧,٢٣٦,٠٠٠ | ٢,٢٠٠,٠٠٠ | ٦٠٠,٠٠٠ | ٢٧٪ أكثرهم من العراق |
| إيطاليا | ٥٧,٧٣٩,٠٠٠ | ١,٠٠٠,٠٠٠ | ٦٥٠,٠٠٠ | ٦٥٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| هولندا | ١٤,٨٠٥,٠٠٠ | ٩٠٠,٠٠٠ | ٣٥٠,٠٠٠ | ٣٩٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| بلجيكا | ٩,٩٢٨,٠٠٠ | ٦٠٠,٠٠٠ | ٣٢٠,٠٠٠ | ٥٣٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| السويد | ٨,٢٥٦,٠٠٠ | ٤٠٠,٠٠٠ | ١١٠,٠٠٠ | ٢٧٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| سويسرا | ٦,٧٩٦,٠٠٠ | ٤٠٠,٠٠٠ | ٨٧,٥٠٠ | ٢٢٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| إسبانيا | ٣٨,٨٦٩,٠٠٠ | ٣٨٠,٠٠٠ | ٣٦٠,٠٠٠ | ٦٨٪ أكثرهم من المغرب |
| النمسا | ٧,٦٢٤,٠٠٠ | ٤٠٠,٠٠٠ | ٧٠,٠٠٠ | ١٨٪ أكثرهم من المغرب |
| اليونان | ١٠,١٤٠,٠٠٠ | ٣٠٠,٠٠٠ | ٤٥,٠٠٠ | ١٥٪ أكثرهم من مصر |
| الدانمارك | ٥,١٣٠,٠٠٠ | ١٢٠,٠٠٠ | ٣٠,٠٠ | ٢٥٪ أكثرهم من المغرب العربي |
| فيلندا | ٤,٩٧٤,٠٠٠ | ٤٠,٠٠٠ | ٢١,٠٠٠ | ٥٢٪ أكثرهم من الصومال |
| المجموع | ٣٥٧,٤٥٦,٠٠٠ | ١٥,٤٤٠,٠٠٠ | ٦,٦٧٦,٥٠٠ | ٤٣٪ أكثرهم من الجالية |

ويلاحظ من خلال هذا الجدول أن مجموع المسلمين في أوروبا حسب إحصاء عام (٢٠٠٢م) هم في حدود خمسين مليون نسمة، من بينهم أكثر من سبعة ملايين من أصول عربية، وهؤلاء كانوا يعيشون بأمن وسلام طيلة عهود طويلة لا سيما وأنهم «تأوربوا» منذ أجيال، وقد أسهموا إسهاماً بارزاً في ميادين اقتصادية واجتماعية وعلمية وثقافية وتربوية وسياسية، فأفادوا أوروبا، ويكفي الإشارة إلى وجود حوالي أربعين ألف طبيب عربي ومسلم في أوروبا الغربية

---

(١) هذا الجدول مأخوذ من بحث د. أحمد الراوي، العمل الإسلامي في أوروبا واقع وآمال ومعوقات، ص٣ ـ ٤. انظر أيضاً كتاب: الجاليات الإسلامية في أوروبا الغربية، ص٢٤ ـ ٢٥.

وحدها يحملون أهم الاختصاصات كما أنهم استفادوا من التطورات التكنولوجية السائدة، فضلاً عن تحسن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. أما عدد العرب والمسلمين في الولايات المتحدة الأميركية فيقدرون بأكثر من ستة ملايين نسمة[1]، ومما لا شك فيه، فإن العرب والمسلمين في أوروبا بدأوا يعانون من مشكلات عديدة بعد ١١ أيلول (سبتمبر) (٢٠٠١م)، في مقدمتها:

١ ـ ازدياد وتيرة العنصرية والتميز والازدراء والكراهية، فالقوانين الأوروبية عامة لا تعادي المسلمين، بل مرد هذا العداء الأوروبي إنما سببه العنصرية ومعاداة «السامية العربية» في مقابل تأييد «السامية اليهودية».

٢ ـ ينتشر في أوروبا سبعة آلاف مركز ومؤسسة إسلامية وعربية، كانت تمارس أنشطتها بكل حرية، وتتمتع بحرية الحركة ضمن القوانين المرعية الإجراء، غير أن هذه المراكز والمؤسسات بدأت تعاني من تقييد تحركاتها وأنشطتها، كما فرضت السلطات عليها ضوابط وأنظمة غير مسبوقة.

٣ ـ عدم امتلاك العرب والمسلمين في أوروبا وأميركا أجهزة إعلام قادرة ومؤثرة على غرار أجهزة الإعلام اليهودية والصهيونية أو المتصهينة، مما ينعكس سلباً على العرب والمسلمين وقضاياهم سواء في بلاد الاغتراب أو في بلادهم الأصلية، وهذا الأمر يجعل القضايا العربية لا سيما في موضوع التطرف والإرهاب، وفي قضيتي فلسطين والعراق عرضة للاختراق والانتهاك، وتشويه صورة العرب والمسلمين أينما كانوا، حيث يصورون في الإعلام الأوروبي بأنهم يمثلون الوحشية، وهذه الوحشية تتمثل في: الثياب الطويلة المتدلية (الجلابية)، وبشيوخ النفط الأغنياء السمان، والسمر، وبالإرهاب...[2].

٤ ـ اعتقال الكثير من الشبان العرب والمسلمين لمجرد تأييدهم نضال الفلسطيني والعراقي ضد الاحتلالات الإسرائيلية والأميركية، مع الاعتراف بأن حركة الاعتقالات ليست سمة غالبة في الحكومات الغربية، إنما تزايدات كثيراً بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) عام (٢٠٠١م).

---

(١) انظر تقرير دائرة الإحصاء المركزي الأميركي عن مسلمي أميركا في: U.S. Census Bureau, p1-9.

(٢) انظر: الجاليات الإسلامية في أوروبا الإسلامية الغربية، هامش ص٥١. انظر أيضاً: د. جلال عبد الرزاق: المرأة المهاجرة بين ثقافة البلد الأصلي وبلد الهجرة، من كتاب: الجاليات الإسلامية في أوروبا الغربية، ص٩٤.

٥ ـ مواجهة العرب والمسلمين اعتقاد الغربيين، بأن الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً لا ينتمون حقيقياً للمجتمعات الغربية التي استوطنوها وأقاموا فيها وحصلوا على جنسيتها، إنما ولاؤهم الحقيقي وانتماؤهم الفعلي، بل وأموالهم التي يجمعونها إنما هي لبلادهم الأصلية التي قدموا منها. كما أن مصالح قومياتهم وبلدانهم الأولى لها الأرجحية على مصالح القوميات والبلدان التي استوطنوها، وهذا ما كشفه الكثير من الأحداث المعاصرة، لهذا فإن الحكومات والشعوب الغربية تعيد حساباتها نحو هذه الجاليات باستمرار، وتبعاً للتطورات.

٦ ـ نتيجةً لأحداث ١١ أيلول (سبتمبر) فقد حاولت بعض الجماعات العربية والإسلامية الانكفاء والإقامة في أحياء ذات طابع عربي أو إسلامي، بعد أن كانت قد تمازجت وتفاعلت مع المجتمعات الغربية، وهذا ينطبق على الأجيال العربية التي ما تزال وثيقة الصلة بعروبتها وقوميتها وتراثها وتقاليدها، وما تزال تفخر بتراثها وبقيمها.

ومما ساعد على هذا الاتجاه ما نشر آنذاك في الصحف الأميركية والأوروبية بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) وطيلة سنوات (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٧م). وقد ازدادت ظاهرة «الاسلاموفوبيا»[(١)] في بريطانيا تحديداً. وبعد أن كانت بريطانيا تحرص باستمرار على الحفاظ على هوية الجماعات الإسلامية، مع ظاهرة عدم احترام البريطانيين لهذه الهوية ومظاهرها، بل واجه البريطانيون هذه الظاهرة الهوية المعروفة باسم «اسلاموفوبيا» بازدراء من خلال وسائل الإعلام البريطانية، وفي أشكال ازدرائية أخرى من التعبير الشعبي البريطاني. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الظاهرة تمثل أمراً واقعاً، غير أنها ازدادت وتجلت بقوة بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر)[(٢)]. وقد رفض المتشددون البريطانيون أن تكون بريطانيا مركزاً لتجمع الإرهابيين المسلمين، كما رفضوا أن تتحول لندن إلى «لندنستان» مقارنة منهم بأفغانستان[(٣)]. ونتيجةً لحركة الاضطهاد ضد المسلمين في بريطانيا، فقد

---

(١) إسلام فوبيا: مصطلح حديث يعني: «الخوف من الإسلام ومن المسلمين» وقد انتشر كثيراً في الغرب في السنوات الأخيرة.

(٢) انظر: تيم نبلوك: المسلمون في بريطانيا ـ الهوية والدولة ـ من كتاب: الجاليات الإسلامية في أوروبا الغربية، ص٢٠٤.

(٣) انظر: د. سهى تاج، فاروقي: المجتمعات الإسلامية في بريطانيا، من كتاب: الجاليات الإسلامية في أوروبا الغربية، ص٢١٧.

ظهرت مؤسسات بريطانية تعارض اضطهاد المسلمين، من بينها مؤسسة (FAIR).

والحقيقة، فإن الجاليات العربية والإسلامية لم تكن تعاني قبل أحداث ١١ سبتمبر في نيويورك، وقبل أحداث التفجيرات في أوروبا وآسيا ما تعانيه اليوم، بل إن الكثير من العرب والمسلمين اندمجوا في المجتمعات الغربية منذ أكثر من مئة عام، ولم يعد لهم أو لأولادهم أو لأحفادهم أية صلات وثيقة بأصولهم وببلدانهم. كما أن العديد من العرب والمسلمين المهاجرين في الخمسين سنة الأخيرة يعتبرون أنفسهم من الأميركيين أو الفرنسيين أو البريطانيين أو الكنديين أو الأستراليين أو السويديين وهكذا. ولكن بدون أدنى شك، فإن سياسة الغرب بشكل عام والسياسة الأميركية بشكل خاص حيال القضية الفلسطينية وقضية العراق، أدى إلى ولادة مجموعة من الإسلاميين في العالمين العربي والإسلامي وقد تعاونوا مع إسلاميين في الغرب، للانتقام من كل ما هو غربي أو صهيوني كرد فعل على السياسة الأميركية ـ الأوروبية ـ الصهيونية، وبدون أدنى شك، فطالما أن الواقع الأليم مستمر في فلسطين والعراق، فإن الغرب والعرب معاً لن يشهدا الأمن والاستقرار في المستقبل القريب.

هذا وبين ٧ ـ ٩ حزيران (يونيه) عام (١٩٩٨م) عقدت حلقة دراسية ونقاشية في كلية سانت انتوني في أكسفورد في إنجلترا، تحت عنوان «صورة العرب في الغرب» شارك فيها العديد من الدبلوماسيين والمفكرين والباحثين الأجانب والعرب على السواء. ونظراً لأهمية هذه الحلقة الدراسية ونقاشاتها والتوصيات والاقتراحات الصادرة عنها، فقد رأيت من المفيد أن يطلع الباحث والمفكر والطالب في العالم العربي على آراء في «نظرة الغرب إلى العرب» علماً أن هذه النظرة إلى العرب باتت أكثر سوءاً وأكثر تطرفاً وحقداً، وذلك بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) عام (٢٠٠١م).

### ➢ نظرة الغرب إلى العرب[١]:

يتفق العرب والغربيون على أن صورة العرب في الغرب كانت، وما تزال

---

(١) من كتاب: صورة العرب في الغرب، ص٩ ـ ٢٨، (بتصرف) حلقة نقاشية عقدت في إكسفورد بين ٧ ـ ٩ حزيران (يونيه) ١٩٩٨م، تعريب: طلال أفندي، مراجعة: عواد علي، تقرير: سوزانا طربوش، منشورات المعهد الملكي للدراسات الدينية، الأردن، عمان، بالتعاون مع مركز الدراسات اللبنانية ومركز الشرق الأوسط في كلية سانتا أنطوني بإكسفورد.

تتسم بالسلبية. وهذا الأمر ينطبق كذلك على المسلمين الذين هم أيضاً يُصوِّرون في الغرب بشكل سلبي إجمالاً. ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة يومياً في الغرب في الإعلام، والمنشورات، وتصريحات السياسيين، والأفلام السينمائية، وبخاصة تلك الصادرة عن هوليوود، وكذلك في سلوك عامة الناس والآراء التي يطلقونها. والظاهرة ذاتها تؤكدها نتائج استطلاعات الرأي العام، وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية.

ومن هنا لا بد من التساؤل: هل ثمة فوائد فعلية للصورة الحسنة للعرب؟ إن صورة الفلسطينيين في الغرب، بالرغم من أنها تحسنت في السنوات القليلة الماضية، فإن بعض الفلسطينيين يقول: إن الفوائد التي جناها الشعب الفلسطيني تكاد لا تُذكر بالرغم من المشاركة الفلسطينية في عملية السلام، وبخاصة أن معظم أرض فلسطين قد جرى التنازل عنها. أي أن صورة الفلسطينيين الحسنة لم تُكافأ باتفاق سلمي جيد. ويضيف هؤلاء أنه لم يطرأ تغيّر يذكر على الصورة الإرهابية الفلسطينية في الغرب، بل جل ما حدث أن هذه الصورة نقلت من منظمة التحرير الفلسطينية إلى جماعة حماس والجهاد الإسلامي، إضافة إلى أن الحكومة الإسرائيلية الحالية تزيد من تعنتها في وجه الانتقادات المتنامية لها في الغرب. وبالرغم من هذه الصورة الإسرائيلية الملطخة، فإنه يكاد لا يكون لها أي تأثير على الحكومة الإسرائيلية التي ما زالت قادرة على فِعل ما تشاء بعملية السلام.

وليس من الضرورة أن تشكّل صورة العرب السلبية عائقاً أمام بناء علاقات جيدة بينهم وبين الغرب، إذ بالرغم من هذه الصورة، فإن الغرب يتمتع بعلاقات جيدة، سياسية واجتماعية واقتصادية، مع معظم البلاد العربية والإسلامية. وكذلك ثمة العديد من العلاقات الطيبة التي تربط الكثير من العرب العاديين بأناس من الغرب، غير أن ثمة حجة قوية مفادها أن صورة العرب السلبية، وبخاصة في الولايات المتحدة هي مصدر للقلق. وهذه الصورة السلبية ومضاعفاتها تقف وراء السخط الذي قد يشعره شعب أو جماعة ما، بسبب الآراء المُقَولبة حول صفات وطنية أو قومية ذات أهمية ضئيلة.

ونظراً للأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية في العالم، وبخاصة ما يتعلق

بمصالح الغرب، فضلاً عن العوامل الأخرى المتعلقة بإسرائيل والنفط والإسلام السياسي، فإن هذه الصورة السلبية للعرب تتخذ أهمية بالغة، ولا سيما إذا أعتبرت نتيجة، وعاملاً مهماً في رسم السياسة الغربية تجاه العرب. وبذلك تكون هذه الصورة السلبية قد أضحت جزءاً من صورة أكبر تشمل مواقف وسياسات واستراتيجيات معينة.

ومن المحتمل أن هذه الصورة السلبية قد أسهمت في عدم ظهور احتجاج شعبي شديد في الغرب تجاه ما يعتبره العرب المعيار المزدوج في تعامل الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة، مع بلدان الشرق الأوسط، في حين أن إسرائيل تتجاهل قرارات الأمم المتحدة بحرية كاملة. ويعتبر الكثيرون في العالم العربي أن الغرب، بسبب موقفه المعروف من شخص صدام حسين والسياسة التي انتهجها، قد جرد شعب العراق من شخصيته الإنسانية، وهو الذي يعاني من الحرمان والموت بسبب سنوات من العقوبات الدولية، فضلاً عن الحرب الأهلية في الوقت الراهن.

وقد يُطرح السؤال إن كانت الصورة السلبية للعرب هي نتيجة جهل في الغرب. فحتى في صفوف المتعلمين ثمة درجة عالية من الجهل بالعالم العربي. فعلى سبيل المثال، عندما فاز الكاتب المصري نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب، استغرب بعض الغربيين من وجود أدب عربي معاصر مزدهر. وليس الجهل، كما يبدو، هو التفسير الوحيد لذلك، إذ إن بعض صور العرب الأكثر تشوهاً في الولايات المتحدة تصدر عن أولئك الذين يُفترض أن يكونوا أوسع الأميركيين اطلاعاً.

ولا شك في أن هناك جماعات لها مصلحة خاصة في نشر صور سلبية للعرب بشكل عام، أو لفئة معينة من العرب، كالفلسطينيين مثلاً. وأحد أسباب هذه الظاهرة، حسب رأي العرب، هو انحياز الإعلام الغربي، إذ إن أصحاب وسائل هذا الإعلام هم من المتعاطفين مع القضايا اليهودية والإسرائيلية. ويجب تقييم هذا الرأي.

والأدهى من ذلك أن الصورة السلبية يجري «تعليبها» في الغرب للتصدير إلى العالم العربي، (من خلال الأفلام السينمائية مثلاً) حيث يلتقطها الشباب

العرب فيُكوّنون بدورهم صورة سلبية عن أنفسهم من خلال أعين معادية. ولهذا تأثير على نُسُج المجتمع العربي.

قد تكون الصورة العربية مرتبطة بجنسية معينة، أو بالعرب بشكل عام. وقد يطرح السؤال إلى أي مدى قد تؤثر صورة جماعة ما، أو حكومة معينة على صورة العرب إجمالاً. ويبدو لبعض العرب أنه عندما يفلح عربي ما في أمر ما، مثل كتابة كتاب، أو في ميدان الرياضة، مثلاً، فعادةً ما يُعرّف الشخص، في الغرب، بجنسيته (مصري أو لبناني مثلاً)، أما في حال ارتكاب هذا الشخص عملاً مشيناً فعادة ما يُعرّف بأنه «عربي».

وبدلاً من تحليل صورة العرب بشكل عام، فقد يكون من الأفضل أن تحلل صورة كل جنسية عربية على حدة، فالصورة السعودية مثلاً ستكون مختلفة تماماً عن تلك الصورة المرتبطة بالعرب في شمالي إفريقيا، وباقي أنحاء العالم العربي. وعلى نحو متتابع، فإن هذه الانطباعات الذهنية ستتغير باختلاف التقسيمات في الغرب التي أُشير إليها سابقاً.

وبالرغم من ذلك، فإن الأبحاث في الولايات المتحدة تُشير إلى أن مصطلح «عربي»، بشكل عام، له انطباعات ذهنية سلبية خاصة به، فاستطلاعات الرأي العام الأميركي كشفت عن التصور الآتي: في الوقت الذي تختلف فيه الذهنية باختلاف الدول، فإن الانطباعات الأكثر سلبية هي تلك المرتبطة بمصطلح «عربي»، وبمعنى آخر لهذا المصطلح دلالة أو أهمية أكبر بكثير من عناصره المركبة. وقد يعود هذا إلى المخاوف المتعلقة بالعواقب التي قد تندرج في العروبة والإسلام واتحاد العرب والمسلمين.

وكما أن تعريف صورة العرب أمر ليس سهلاً نظراً لاختلاف مستويات التحليل في إطار مصطلح «عربي»، فإن هذه الصورة تتطابق مع صورة المسلمين. ومن ثم قد يستحيل الفصل بين الاثنين، ففي أذهان الكثير من الغربيين أضحى مصطلحا «مسلم» و«عربي» يعوض أحدهما عن الآخر، وذلك بالرغم من الأغلبية المسلمة المقيمة خارج العالم العربي، ووجد العديد من الجاليات المسيحية، وغير المسلمة المقيمة في الشرق العربي.

إن هذا التداخل بين مصطلحي «عربي» و«مسلم» يعني أن الإجحاف

المسبق، أو الجاهز ضد أحدهما ينتقل، بشكل طبيعي، إلى الآخر. وكذلك يقتضي ضمناً أن أي تحسّن يطرأ على إحدى الصورتين العربية أو الإسلامية سيكون له انعكاسات إيجابية على الآخر.

لقد استمر الارتياب المسيحي من الإسلام قروناً عديدة، إضافة إلى أن المشاعر السلبية تجاه الإسلام والمسلمين قد تصاعدت في الغرب لأسباب من بينها الثورة الإيرانية، والعمليات التي تشنها الجماعات الإسلامية في الشرق العربي.

وازدادت، نتيجة الحرب الأهلية في الجزائر، مخاوف الغرب من الإسلام، وكذلك من وجود طالبي اللجوء السياسي من جزائريين، وغيرهم من المسلمين الذين ينقلون صراعاتهم إلى أوروبا (كما حصل في فرنسا). إن العداء الموجه ضد العمال المهاجرين العرب والمسلمين، وكذلك طالبي اللجوء السياسي منهم، في ازدياد مستمر في دول غرب أوروبا كفرنسا وبلجيكا. وقد سلط الحديث عن تصادم الحضارات (clash of civilizations)، نسبة لمقولة صموئيل هنتنغتون (Samuel Huntington)، الضوء على المواجهات الراهنة، والتي قد تقع في المستقبل، بين الإسلام والغرب.

لقد استاءَ بعض العرب والمسلمين مما أشارت إليه وسائل الإعلام الغربية بـ«القنبلة الإسلامية» على أثر توكيد قدرة باكستان النووية من خلال بعض التجارب النووية التي قامت بها منذ فترة وجيزة. ويشير هؤلاء إلى أن القنبلة الهندية لم يُشر إليها بـ«القنبلة الهندوسية»، كما لم يُشر إلى قدرة الغرب النووية بـ«القنبلة المسيحية»، غير أن بعض العرب يسلّم أيضاً بأن باكستان نفسها شجعت هذه الصفة الإسلامية لقنبلتها من خلال التصريحات والشعارات التي أدلت بها.

إن المسلمين أنفسهم يشاركون، بشكل فعّال، في مناظرات عن الإسلام ومستقبله في مختلف المنتديات الفكرية، وكذلك في وسائل الإعلام الغربية. وغالباً ما يشعر هؤلاء المسلمون بالإحباط نتيجةً للأسلوب السطحي الذي تُعالج من خلاله المسائل المتعلقة بالإسلام ومخاطره المفترضة في الغرب، حيث غالباً ما يلوم المعلقون الغربيون الإسلام لسلوك معين، أو لإجراءاته القانونية، أو لمعاملته للنساء بدلاً من النظر إلى البيئة الاجتماعية والسياسية المحيطة.

يعتقد بعض المعلقين الغربيين أن الاهتمام في الغرب ـ الذي يكاد يصل إلى

حد الهاجس ـ بظاهرة «التطرف الإسلامي» وانتشاره قد تبدد في السنوات القليلة الأخيرة، فعلى سبيل المثال، كانت ثمة مخاوف من انتقال الحركات الأصولية الإسلامية من الجزائر إلى المغرب العربي، غير أن هذا لم يحصل. وبعض خبراء الإرهاب الذين تنبأوا، منذ سنوات قليلة، بعواقب رهيبة لمخاطر الإرهاب الإسلامي فقدوا مكانتهم. وها هو الإسلام ينتشر بشكل سريع، فمثلاً في الولايات المتحدة، يُعد الدين الأسرع انتشاراً ونمواً. بيد أن هذه الظاهرة لم تكن من خلال الأساليب العنيفة. ويشير العرب إلى أن معظم ضحايا العنف، الذي يقوم به المسلمون المتطرفون، هم من المسلمين أنفسهم.

**دور التاريخ في تشكيل الانطباعات:**

إن الصلات التاريخية والسياسية لمختلف دول الغرب مع مناطق عديدة من العالم العربي قد أسهمت في «قولبة» الانطباعات المتشكلة تجاه العرب في هذه الدول، فضلاً عن أن هذه «القولبة» تكونت، في الأغلب، مع التفاعل، وأحياناً مع المواجهات، عبر القرون، ما بين أوروبا المسيحية والإسلام. ويزعم بعضهم أن التهديد التاريخي لأوروبا من قبل الإسلام، الذي وصل مرّتين إلى أبواب فيينا، قد ترك إرثاً نُظر، من خلاله، إلى الإسلام على أنه وصل إلى ما وصل إليه من خلال حدّ السيف.

يشعر العرب، وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية، وإلى حدٍّ ما في باقي العالم الغربي، أنهم خارج إطار التاريخ، وليس لهم وجود لا في الوعي ولا في المخيلة، ففي كتب الدراسة الأميركية، مثلاً، إما أن لا يُذكر تاريخ العرب، أو أنه يُذكر بأسلوب سلبي.

إن أحد أسباب عدم الإقرار بالإسهام العربي في حضارة الغرب هو التركيز، في الغرب، على الخلفية الحضارية والدينية اليهودية ـ المسيحية، ومن ثم إسقاط الدور الإسلامي، ويحبذ بعض العرب أن يرى إقراراً بالتراث اليهودي ـ المسيحي ـ الإسلامي.

لقد كان التاريخ السياسي للقرن العشرين حاسماً في تشكيل صورة العرب في الغرب، فعلى سبيل المثال، كسبت بريطانيا من تاريخها الإمبراطوري منظوراً خاصاً لدول الخليج، وكذلك لفلسطين والأردن والعراق ومصر. أي أن تاريخ

بريطانيا الإمبراطوري منحها علاقة مختلفة مع العالم العربي، ولقد كانت الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ذات أهمية فائقة.

يرى بعض المؤرخين أن فترة العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين كانت الأساس في تشكيل الانطباعات الغربية عن العرب، ففي تلك الفترة كان البريطانيون ذوي نفوذ أقوى مقارنة بالأميركيين، وذلك بسبب هيمنتهم السياسية والاقتصادية على المشرق العربي، ولأنهم ساندوا الجهود التي بُذلت في سبيل الوحدة العربية في نهاية الحرب العالمية الثانية، إذ أقرّ وزير الخارجية، آنذاك، السير أنطوني إيدن (Sir Anthony Eden)، بأن بريطانيا ستدعم جهود جامعة الدول العربية، علماً أن الهدف الرئيسي من الدعم كان توظيف الجامعة لخدمة أهداف بريطانيّة.

وعلى حد قول السير تشارلز جونستون (Sir Charles Johnston)، حاكم عدن البريطاني آنذاك، فإن هزيمة بريطانيا في السويس «بدت أنها تركت أثراً بليغاً على أنفسنا أكثر مما تركته على العرب». ومن أسوأ ما حصل للبريطانيين بعد السويس هو فقدان الثقة في قدرتهم على التعامل مع الظروف العصيبة، وكذلك مع العرب. ومنذ عام (١٩٥٦م) فصاعداً أصبحت مسألة صورة العرب مسألة ذات اهتمام أميركي نظراً لفقدان بريطانيا هيمنتها على المنطقة.

**العامل العربي ـ الإسرائيلي:**

أسهم الصراع العربي ـ الإسرائيلي، والاضطراب في المشرق العربي خلال الخمسين سنة الماضية في ازدياد سلبية الصورة العربية، وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية، حيث يوجد «اللوبي» اليهودي و«اللوبي» الصهيوني. وقد قيل: إن من يعرض قضيته أولاً يربح نصف المعركة. وكان الصهاينة الأسرع في ذلك، في حين كان العرب أضعف بكثير في عرض قضيتهم. والكثير من السياسيين الأميركيين استلموا التبرعات السياسية الأولى من مصادر يهودية، «والسياسي لا ينسى أبداً من أين استلم ذلك المال المبكر». إضافة إلى أن اليهود والإسرائيليين عادة ما يُنظر إليهم في الغرب على أنهم مثل الغربيين، في حين يُنظر إلى العرب على أنهم غرباء، ومن الطبيعي أن توجد انطباعات إيجابية عن أولئك الذين يُنظر إليهم على أنهم أقرب. وقد تضاعف في السنوات الأخيرة تأثير النفوذ اليهودي

الصهيوني بسبب جهود الصهاينة المسيحيين التي تزداد قوة وتأثيراً في الولايات المتحدة.

وثمة عامل آخر يساعد في شعبية دولة ما يكمن في فعاليتها العسكرية، ولذلك يوجد انطباع إيجابي عن إسرائيل في الولايات المتحدة الأميركية. وغالباً ما ينظر إلى القوة على أنها «الشرعية»؛ فانتصار إسرائيل الساحق في عام (١٩٦٧م) كان عاملاً أسهم في هذه الشعبية، في حين أن هزيمة العرب كانت عاملاً رئيساً في تدمير صورتهم في الولايات المتحدة. كما أصبح كل عمل من أعمال المقاومة يُنظر إليه على أنه فعل إرهابي.

ويشير بعض الدبلوماسيين الأميركيين السابقين إلى أنه بعد هزيمة (١٩٦٧م) كان ثمة اهتمام رسمي أميركي ضئيل في أخذ مصر على محمل الجد. ولكن التغيّر الحقيقي الذي طرأ على موقف البنتاغون ومسؤولين آخرين تجاه مصر، وأخذها على محمل الجد جاء فقط بعد عبور الرئيس السادات لقناة السويس في تشرين الأول (١٩٧٣م).

ولكن بالرغم من تأثير «اللوبي» اليهودي و«اللوبي» الصهيوني فإن بعض العرب والغربيين يحذر من اتخاذه حجةً للتراخي، أو ككبش محرقة، وإلقاء اللوم عليه في كل المحن التي تحدق بالعرب في الساحة الدولية. ويُسلّم بعض العرب بأنه حتى لو جرى حل المشكلة العربية ـ الإسرائيلية غداً، فلن تحلّ مشكلة انطباع الغرب السلبي عن العرب.

إحدى الدراسات الاستطلاعية التي قامت بها مجلة الشرق الأوسط (The Middle East journal) عام (١٩٨١م) طلبت من الأشخاص الذين شملهم الاستطلاع تقييم العرب والإسرائيليين والمكسيكيين على أساس بعض الميزات. وقد أظهرت النتائج أن العرب نالوا درجة عالية فيما يتعلق ببعض الميزات المقولبة كالغنى، والهمجية، والوحشية، والغدر، والمعاملة السيئة للنساء، والتعطش للدماء، واللبس بطريقة غريبة. أما الإسرائيليون، بالمقابل، فقد وصفوا بالشجاعة، والذكاء، والكفاءة، والمودة. كما وصفوا أيضاً بأنهم مضطهدون. وكذلك فإن نسبة عالية من الذين أجابوا عن الأسئلة نظرت إلى العرب على أنهم ضد المسيحية، وضد السامية، وأنهم يريدون تدمير إسرائيل وإلقاء اليهود في البحر.

يُظهر تحليل لستة استطلاعات للرأي العام وغيرها أجريت في الولايات المتحدة الأميركية خلال الفترة من (١٩٨١ ـ ١٩٩٦م) كيف أن الانطباعات عن العرب والمسلمين قد تطورت في الولايات المتحدة.

ويشير التحليل إلى أن عامل الأمن أهم بكثير من عوامل التاريخ والحضارة في التأثير على النظرة إلى العرب وصورتهم، وبخاصة ما يتعلق بالقلق والخوف من الإرهاب اللذين ظهرا كعامل في السياسة والمجتمع الأميركي بعد أن كانت أوروبا سابقاً، وليس الولايات المتحدة الأميركية، مسرحاً للعدوان الإرهابي.

وقد تتأثر الانطباعات الأميركية عن العرب، بشكل جذري، بآخر الأنباء المتعلقة بالعنف والإرهاب، ففي اليوم الرابع الذي أعقب الانفجار في مدينة أوكلوهوما (Oklohoma)، حين بدا واضحاً أنه لم يكن له أي علاقة بالإرهاب العربي أو الإسلامي، كان ثمة ازدياد ملحوظ في المواقف الإيجابية تجاه العرب والمسلمين فيما يتعلق ببعض المسائل الرئيسة. وقد اتفق أكثر الذين جرى استطلاع آرائهم أنه يوجد في الولايات المتحدة تمييز ضد العرب والمسلمين، وأن لهم نمط معيشة شريف وجدير بالاحترام.

**الصلة بين الرأي العام والسياسة والمرأة العربية:**

تشكل الانطباعات السلبية عن العرب عنصراً مهماً يستعمل في رسم، أو تبرير سياسة ما وجعلها سائغة للرأي العام الغربي. وهناك جدال يُثار فيما إذا كان الرأي، أي رأي، يخلق سياسة ما، أم أن السياسة هي التي تولد رأياً ما. وفي الأغلب لم يكن يعرف الأميركيون سوى القليل عن العرب، عدا أنهم ضد (إسرائيل)، ومن ثم أنهم شريرون. وعادة ما يكون لهذا تأثير استرجاعي، إذ إن هذا الاعتقاد السيء عن العرب يؤثر بدوره في السياسة، مفضياً إلى نوع من الحلقة المفرغة.

وقد وُصف الكونغرس الأميركي على وجه التحديد بأنه يعيش على الصور والانطباعات، وأن لديه انطباعات شديدة السلبية والبدائية عن العرب والمسلمين. وهذا ما يفسر التصرف اللامعقول، أحياناً، من قبل الكونغرس الأميركي ورجاله تجاه الشؤون العربية، وبخاصة تلك التي لها علاقة بإسرائيل.

ثمة موقف قريب من هذا الموقف هو الصورة المتعلقة بالحريم والحجاب ومؤسسة الحمّام، فلغز المرأة العربية البعيدة عن أنظار الرجل الغربي، يمنحه

شعوراً بالتحدي والغموض عليه أن يتخطاه. وينظر الغرب إلى العربي على أن لديه صيت بالكفاءة ككائن جنسي، وأن الإسلام دين متسامح جنسياً. وهذا الانطباع لا يزيد إلا تأكيداً في الغرب على أن الرجل العربي شهواني فاقد للسيطرة، وأنه من الضروري تهذيبه.

إن مركز المرأة في العالم العربي والإسلامي ومعاملتها عاملان مهمان في صورة العرب في الغرب، فقد، سلّط الإعلام، مثلاً، الأضواء على معاملة جماعة الطالبان في أفغانستان للنساء، أو قتلهن في الحرب الأهلية في الحزائر. وتؤخذ هذه الظواهر على أنها مجسّدة للموقف الإسلامي من النساء. كما أن ثمة سلسلة من الكتب المثيرة تدّعي بأنها القصة الباطنية لحياة امرأة في العالم العربي أو الإسلامي.

**التمييز ضد العرب والمسلمين:**

إن الانطباعات السلبية عن العرب والمسلمين في الغرب هي عامل جزئي لما يتعرض له بعضهم من تمييز ومذلة، فالتقارير التي نشرتها اللجنة الأميركية ـ العربية ضد التمييز (ADC) عن جرائم الكره والتمييز ضد العرب الأميركيين تكشف عن الكثير من الأمثلة، بما في ذلك من مضايقات، واعتداءات، وتعليقات عنصرية، وتميزاً في العمل، ومشكلات تتعلق باستئجار المساكن، تمييزات مؤسساتية تتمثل بالمعاملة من قبل شركات الطيران والمطارات، ودوائر الحكومة المحلية، وخدمات الهجرة والتجنيس، والمكتب الفدرالي للأبحاث، والتشهير في الأفلام وبرامج التلفزيون، وتغطية الأخبار. وكذلك في التعليم، بل حتى في بعض المعاجم كانت ثمة معانٍ سلبية لكلمة «عربي» إلى وقت قريب.

وللعرب والمسلمين في الولايات المتحدة الأميركية ذكريات أليمة في الأيام التي تلت تفجير المبنى الفدرالي في مدينة أكلوهوما في نيسان (إبريل) (١٩٩٥م)[١]، حينما وجهت العناوين في الصحف الصاخبة، في بادئ الأمر اللوم إلى إرهابيين عرب ومسلمين دون أي دليل. وغالباً ما يشير العرب والمسلمون، بمرارة، إلى هذه الحادثة عند مناقشة صورة العرب في الغرب.

---

(١) إن الذكريات والواقع الأكثر ألماً للعرب وللمسلمين هي الأيام التي تلت تفجيرات ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١.

وقد أدت هذه الافتراضات الأولية الخاطئة إلى موجة من «جرائم الكره» ضد العرب والمسلمين في الولايات المتحدة، مما يدل على أن القوالب السلبية قد تؤدي أحياناً إلى مخاطر جسدية. ولكن، إنصافاً للصحافة، فإن سبب تسرعها في الوصول إلى الاستنتاجات التي وصلت إليها هو انفجار مركز التجارة العالمي في شباط (فبراير) (١٩٩٣م)، الذي اتهم بتنفيذه إرهابيون مسلمون.

ثمة قلق في بعض الدول الأوروبية على ما يحدث من تمييز ضد المسلمين والعرب ومعاملتهم في وسائل الإعلام. وقد تفاقم الوضع في بريطانيا إلى درجة أن أمانة رنيميد (Rynnymede Trust) نشرت تقريراً عن فوبيا الإسلام (Islamophobia). وثمة حملة في بريطانيا لوضع التمييز ضد المسلمين تحت قانون العلاقات العرقية، والتي لا تخضع له حالياً.

توجد موجة مرتفعة من إرهاب الأجانب في بعض الدول الأوروبية الأخرى موجهة بشكل خاص ضد المهاجرين العرب والمسلمين، واللاجئين السياسيين من دول كالجزائر، والعراق، ومصر، والسودان. وهؤلاء يعدون الأكثر تأثيراً في هذه الموجة، فهم عِرضة للعنصرية.

وفي ألمانيا ثمة جالية تركية كبيرة، مسلمة؛ أي يوجد تركيب من الأتراك والإسلام والعرب يبلغ ٣ ملايين نسمة. وإذا استمرت الانطباعات الاستعمارية على ما هي عليه، فقد تؤدي إلى مشكلات اجتماعية خطيرة في ألمانيا.

أما في فرنسا فإن بعض الأوساط يحمل مشاعر تميل إلى العنف ضد المهاجرين من شمالي أفريقيا، وهي تنمو باطراد (لقد أدى فوز فرنسا في مباريات كأس العالم بفريق ذي أغلبية أفريقية وشمالي أفريقية، إضافة إلى أن الدور النجومي في المباراة النهائية كان لزين الدين زيدان، الذي هو من أصل جزائري، أدى إلى ظهور شعور ودّي تجاه المهاجرين ومكانتهم في المجتمع، غير أنه يبقى علينا أن نرى كم ستدوم هذه المشاعر).

وفيما يلي بعض النماذج التي تؤكد استمرار حقد الغرب على العرب والمسلمين، وصعوبة تغيير صورة العرب في الغرب، طالما أن «اللوبي الصهيوني» ما يزال متحكماً في القرار الأميركي خاصة والغربي عامة:

## ➢ أولاً: الرؤية الأميركية في القضاء على الحضارة الإسلامية:

يرى صموئيل هنتنغتون (أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد بأميركا، والمستشار السياسي للمخابرات المركزية الأميركية) في كتابه «صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي» الذي تبنت أميركا ما جاء في مضمونه بضرورة فرض الحضارة الغربية على العالم من خلال صراع الحضارات أو صراع الثقافات. وحتى تكون أميركا زعيمة العالم، لا بدّ أن تخلق لها عدواً تستطيع الانتصار عليه بعد زوال عدوها الوحيد وهو الاتحاد السوفيتي، لذا يجب «اصطناع» عدو جديد لضمان استمرار «صراع الحضارات» ولاصطناع انتصار جديد، وهذا العدو المصطنع هو «الحضارة الإسلامية»، كيف تسيطر الحضارة الغربية على العالم كله.

لقد قسم صموئيل هنتنغتون حضارات العالم إلى ثلاث حضارات:

١ ـ الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية التي يجب أن تكون علاقة الغرب معهما علاقة عدائية.

٢ ـ حضارة أميركا اللاتينية وحضارة أفريقيا، وهي حضارة ضعيفة.

٣ ـ الحضارة الروسية واليابانية والهندوسية، وهي حضارة متأرجحة.

وبعد هذا التقسيم، اقترح هنتنغتون عدة اقتراحات لسيطرة الغرب على هذه الحضارات، وفي مقدمتها الحضارة الإسلامية، وهذه الاقتراحات تتمثل بما يلي:

١ ـ ضرورة المحافظة على تفوق الغرب عسكرياً، ومنع انتشار الأسلحة النووية. وهذا ما تفعله أميركا في مواجهة إيران، وكوريا الشمالية.

٢ ـ تعميق وتعزيز القيم الغربية، والضغط لتبنّي الديمقراطية الغربية.

٣ ـ منع المهاجرين واللاجئين إلى الغرب من الزيادة العددية.

٤ ـ تشجيع دول العالم للالتحاق في «اتفاقية الجات» التي اتفق عليها في مراكش عام (١٩٩٤م)؛ لأن الغرض من هذه الاتفاقية سيطرة اقتصاديات الدول الغربية على اقتصاديات دول العالم، بعد إزالة الحواجز الجمركية.

٥ ـ مراعاة مصالح الدول الغربية في ميدان النفط، لهذا فإن من الضروري السيطرة على منابع النفط في العالم، لهذا قامت أميركا والدول الغربية باحتلال

أفغانستان للسيطرة على بترول بحر قزوين، واحتلال العراق للسيطرة على بترول العراق ودول الخليج.

٦ ـ ضرورة اعتماد «العولمة» التي تعتمد على التطور التكنولوجي الهائل الذي فاق كل التصورات. وهذه العولمة تتضمن عولمة الاقتصاد والإنتاج، وعولمة الثقافة، وعولمة السياسة، والادعاء بنشر الديمقراطية، وإحترام حقوق الإنسان، وإجراء انتخابات حرة، وحرية الصحافة... وكل ذلك لفرض سيطرة أميركا والغرب والحضارة الغربية. وقد أعلنت المخابرات الأميركية عن تبنّيها لكل ما جاء في كتاب صموئيل هنتنغتون[١].

## ➢ ثانياً: القانون الأميركي لمعاقبة المعادين لإسرائيل:

كرّست الولايات المتحدة الأميركية جميع جهودها للدفاع عن إسرائيل والمصالح الصهيونية في مواجهة العرب والمسلمين، وفي مختلف الميادين والمجالات. لذلك أصدرت قانوناً خاصاً بتعقب المعادين للسامية، بمعنى المعادين لليهود وإسرائيل وبمناسبة صدور «القانون الأميركي المتعلق بتعقب معاداة السامية عالمياً لعام ٢٠٠٤م»[٢]؛ عقد في جامعة القاهرة مؤتمر عربي حول معاداة السامية في ١٦ ـ ١٧ آذار (مارس) عام (٢٠٠٥م) شارك فيه أساتذة قانون دولي وعلوم سياسية، وقد أدان المشاركون صدور هذا القانون الذي يمكن بواسطته أن يلاحق أي مفكر عربي أو أجنبي أدان الحركة الصهيونية وأعمالها في فلسطين. وأكد المشاركون «بأن القانون الأميركي أصبح جزءاً من الاستراتيجية الأميركية لإعادة تشكيل العالم بغض النظر عمن وقف وراء أحداث أيلول ٢٠٠١م» كما اعتبر المشاركون «أن القانون الأميركي مخالف للدستور الأميركي ذاته، لا بل إنه تجاوز أيضاً أبسط مبادئ العلاقات الدولية، وهو مبدأ سيادة كل دولة على أرضها حين أقرّ هذا القانون حق أميركا في مطاردة من تزعم معاداتهم للسامية أينما وجدوا بقصد تحقيق حماية

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: صموئيل هنتنغتون: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي. انظر أيضاً: د. نبيل لوقاباوي: النظرة الغربية الأميركية لصراع الحضارات، اللواء، ١/٧/٢٠٠٥، ص١٢.

(٢) انظر: اللواء، ١٨/٣/٢٠٠٥.

قانونية لإسرائيل وتوفير غطاء تشريعي خاص على جرائمها ضد العرب والمسلمين»، وتخوف المشاركون من سطوة القانون الأميركي على المفكرين العرب؛ لأن القانون ذكر أسماء بعض الشخصيات الفكرية والسياسية باعتبارهم معادين للسامية، وتوجيه مثل هذه الاتهامات يشكّل مؤشراً على إمكانية قيام الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل بملاحقة باحثين ومفكرين ومراكز بحثية وفكرية عربية إذا ما اختلفت برؤيتها عن الرؤية الأميركيّة والإسرائيلية، وانتهى المؤتمر إلى اتخاذ عدة توصيات منها:

١ ـ إيجاد نوع من التعاون بين منظمات المجتمع المدني الثقافية والقانونية لحماية الشخصيات والمفكرين والمراكز العربية وإعادة مركز زايد للتنسيق والمتابعة لممارسة نشاطه.

٢ ـ تفعيل دور منظمات المجتمع المدني المناهضة للتمييز ضد كل الأديان والأجناس على السواء، والعمل على استحداث آليات لصياغة الخطاب الإعلامي العربي الموجه للعقل الغربي.

٣ ـ التعاون مع منظمات داخل أوروبا وأميركا لمحاصرة القانون الأميركي.

## ➢ ثالثاً: المسيحيون الإنجيليون المتصهينون في مواجهة العرب والمسلمين:

يرى ممثلو المسيحيين الإنجيليين المتشددين أن النزاع بين إسرائيل و«حزب الله» في صيف (٢٠٠٦م) هو حرب بين الخير (إسرائيل) والشر (حزب الله).

وفي اجتماع تحت عنوان «الحق المسيحي»، أكد ممثلو هذه الفئة من الأميركيين الذين يقدر عددهم بخمسين مليون، والذين يدين لهم الرئيس جورج بوش بدرجة كبيرة بفوزه الأول والثاني في الانتخابات الرئاسية، أنهم يدعمون إسرائيل في نزاعها مع «حزب الله».

ولا يواجه هؤلاء أية صعوبة في تبرير حرب إسرائيل على لبنان فهم يعتبرون أن من حق إسرائيل قبل كل شيء أن تدافع عن نفسها، وإنما أيضاً أن تكون موجودة ضمن «حدودها التوراتية»، وبالتطابق مع قراءتهم الحرفية للتوراة.

ولا تتطابق «الحدود التوراتية» لإسرائيل مع خطة تقسيم فلسطين التي أقرتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة في (١٩٤٧م)، ولا مع حدود إسرائيل قبل حرب (١٩٦٧م).

وسافرت مجموعات عدة من هؤلاء المسيحيين الأميركيين الأصوليين صيف (٢٠٠٦م) إلى إسرائيل لدعم الشعب الإسرائيلي منذ بدء النزاع في ١٢ تموز (يوليو) (٢٠٠٦م) وقال أحد أبرز قادة هذا التيار الأميركي وهو الواعظ الشهير بات روبرتسون، من القدس: أن الإنجيليين يعتبرون أن «الشعب اليهودي هو شعب الله (. .) ومصيرنا مرتبط بمصير إسرائيل بشكل لا مفر منه».

وقال روبرتسون لشبكة «سي أن أن» أن «العهد القديم مليء بالإشارات إلى حماية الله لإسرائيل. أنا هنا لأقول: إنني أحب إسرائيل، وأن المسيحيين الأميركيين إلى جانب إسرائيل في معركتها».

وإذ حمّل روبرتسون الحكومة اللبنانية مسؤولية «الأضرار من الجانبين»، قال رداً على سؤال حول «المدنيين الأبرياء الذين يموتون في لبنان» أن «ذلك يحزنني لكن (. .) محاربة الإرهاب مكلفة والكفاح من أجل الحرية مكلف».

وقال جون هاغي مؤسس حركة «مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل» أن إسرائيل «تقوم بعمل الله في حرب بين الخير والشر». وتضم هذه الحركة ١٨ ألفَ عضو.

أما مدير الحركة ديڤيد بروغ، فقال في واشنطن أن «إسرائيل تقوم بالعمل الذي يجب أن نفعله نحن وتكافح من أجل الشعوب الحرة، أعداؤها هم أعداء الولايات المتحدة أنفسهم، إنها معركة ضمن حرب أوسع، حرب الحضارة اليهودية المسيحية ضد قوى الشر».

أضاف بروغ أن «إسرائيل في الخطوط الأمامية للحرب على الإرهاب ولا يمكننا إلّا أن ندعمها».

أما القس جيم فينيارد فقال: «كنت في شمالي البلاد (إسرائيل) لدعم المواطنين، وقد ساهمت في المساعدات الإنسانية وسأقوم بكل ما في وسعي لكي يدعم المسيحيون الأميركيون إسرائيل». أضاف أن «ما نشهده اليوم من جانب حزب الله و(حركة المقاومة الإسلامية) حماس إنما هو نتيجة مباشرة للانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة في آب (أغسطس) ٢٠٠٥م»[١].

---

(١) انظر: المستقبل، ٢٠٠٦/٨/١٣.

وهكذا، فإن الولايات المتحدة الأميركية خاصة، والغرب عامة، يحقدون على العرب، ويعملون كل ما بوسعهم لمصلحة إسرائيل.

## ➢ رابعاً: دور التاريخ الخاطئ في آراء البابا ضد الإسلام عام (٢٠٠٦م):

يبدو أن تاريخ العلاقات الإسلامية ـ الغربية منذ فجر التاريخ الإسلامي ما يزال مؤثراً حتى اليوم في تكوين صورة العرب عند الغرب، ولا يقتصر هذا التكوين على عقود القرن العشرين كما يرى بعض المستشرقين، ومما يؤكد ذلك، الخطأ الذي ارتكبه الباب بنيديكتوس السادس عشر بحق الإسلام والمسلمين، عندما جاء في خطبة له في ١٢ أيلول (سبتمبر) (٢٠٠٦م): «أرني ما الجديد الذي جاء به محمد؟ لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره ينشر الدين الإسلامي الذي كان يبشر به محمد بحد السيف». ثم اتهم الإسلام بالإرهاب والعنف والبعد عن العقل.

ومما يلاحظ، بأن المشكلة الكبرى، أن نظرة الغرب إلى العرب والمسلمين، ما تزال نظرة أقل ما يقال فيها أنها تعبر عن جهل بالإسلام وبحضارته وبتاريخه، وجهل بالمسلمين وإسهاماتهم الحضارية في مختلف الميادين العلمية، وبفضلهم على أوروبا التي كانت تعاني من التخلف والفقر والجهل، فاستطاع العرب والمسلمون أن يقدموا حضارتهم لمساعدة أوروبا على التقدم والرقي.

وفي الوقت الذي قدم البابا السابق بولس السادس اعتذار الكنيسة الكاثوليكية على ما اقترفته أوروبا ضد الإسلام والمسلمين في الحروب الصليبية، فإذا بالبابا الجديد يتهم الإسلام اتهامات باطلة لا أساس لها من الصحة. فهل يحتاج الغرب إلى المزيد من الوعي التاريخي والسياسي والحضاري لينصف الإسلام، أم أن الغرب ما يزال خاضعاً للقوى الصهيونية والمعادية للعرب والمسلمين؟[1].

---

(١) انظر في آخر الفصل رسالة د. حسان حلاق إلى البابا بينيديكتوس السادس عشر: رسالة حضارة ومحبة وانفتاح، أرسلها إليه في أيلول (سبتمبر) (٢٠٠٦م)، كما أرسلت نسخة منها إلى السفير البابوي في لبنان.

# رسالة مفتوحة من د. حسان حلاق

# إلى البابا بينيديكتوس (السادس عشر)

## رسالة حضارة ومحبة وانفتاح[1]

«أرني ما الجديد الذي جاء به محمد؟ لن تجد إلّا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره بنشر الدين الإسلامي الذي كان يبشّر به محمد بحدّ السيف».

إن البابا بينيديكتوس رأس الكنيسة الكاثوليكية في العالم، اقتبس ـ على حد قوله ـ هذا القول الموجه من إمبراطور بيزنطي إلى فارسي مثقف في القرن الرابع عشر الميلادي. وبالتأكيد لو لم يكن البابا مقتنعاً بهذا الاتهام ضد الإسلام والنبي ﷺ لما ساقه في إطار كلمته التي وجهها إلى أساتذة جامعيين في مدينة جنوبي ألمانيا في ١٢ أيلول (سبتمبر) (٢٠٠٦م)، فضلاً عن اتهامه الإسلام بالإرهاب والعنف والبعد عن العقل. واعتبر «أن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو، ومشيئته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل...» بالإضافة إلى اتهامات باطلة ضد الإسلام والمسلمين. وكان باستطاعته أن يعتمد على شهادات عدل إيجابية من علماء وساسة وقادة وأباطرة غربيين بحق الإسلام؛ بل إن مسؤولاً دينياً مثل قداسة البابا يتبوأ أعلى منصب في الكنيسة الكاثوليكية في العالم، ليس مضطراً أن يعلن موقفاً، وفي اليوم التالي يتراجع عنه، مع العلم أن شخصية مميزة مثله وفي موقعه لا يعلن موقفاً علنياً إلّا بعد دراسته مع مستشاريه دراسة متأنية ودقيقة.

إن المشكلة الكبرى يا قداسة البابا، أن نظرة الغرب إلى العرب والمسلمين، ما تزال نظرة أقل ما يقال فيها إنها تعبّر عن جهل بالإسلام وبحضارته وبتاريخه، وجهل بالمسلمين وإسهاماتهم الحضارية في مختلف الميادين

---

(١) أرسل د. حسان حلاق هذه الرسالة في منتصف أيلول ٢٠٠٦م.

العلمية، كما أن قداسته ومجموعة عمله من الأحبار والرهبان والآباء وفي مقدمتهم الأب جوستو بالدا لاكونزا رئيس المعهد البابوي للدراسات الإسلامية ما يزالون يجهلون دور وإسهامات العرب والمسلمين في تقدم ورقي وتطور أوروبا والعالم الغربي الذي كان يئنّ منذ مئات السنين من وطأة الجهل والتخلف والفقر والتوحش والإرهاب ضد المسيحيين قبل المسلمين. وبواسطة العلاقات الحضارية والتفاعل بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، لا سيما عبر الأندلس وصقلية وبلاد الشام بدأت أوروبا تخلع عنها ثوب التخلف والجهل لتلبس ثوباً حضارياً جديداً بواسطة العرب والمسلمين. كما أن غالبية العالم الإسلامي اعتنق الإسلام بسبب سماحته وعدالته ومبادئه وقيمه، وليس بسبب سيوفه.

ويذكر المستشرق اليهودي ليفي بروفنسال (Lévi Provençal) «أن الإسلام في إسبانيا لم يحل دون إقامة علاقات ازدادت توثقاً مع الزمن بين المسيحيين والمسلمين سواء في الداخل أو في الخارج... وأن أحداً لا يمكن أن ينكر فضل المسلمين في تقدم الإسبان وأوروبا قاطبة...»، وفي الوقت الذي أضاء فيه المسلمون قرطبة بمصابيح عامة ليلاً، ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك، ولم يوجد مصباح عام واحد يضيء شوارعها. وبينما كانت صحيفة «كولونيا» (Colognia) الألمانية في عددها الصادر في ٢٨ آذار (مارس) (١٨١٩م)، تعتبر وتصف إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز بأنه شر مستطير من الشر يهدد «الظلام الإلهي» كانت شوارع قرطبة في العهد الإسلامي عام (٩٥٠م) تزدان بثمانين ألف متجر، وتضاء ليلاً بمصابيح تثبت على جدران المنازل.

ونظراً لانفتاح المسلمين وتطورهم، ونظراً لرقي الحضارة الإسلامية، فقد أقبل المسيحيون في الأندلس على تعلم العلوم العربية، والاستفادة من الحضارة الإسلامية، مما دعا الكاتب «ألفارو» (Alvaro) في القرن التاسع الميلادي للقول:

«إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها، بل لتعلم أسلوب عربي بليغ. وأسفاه إنني لا أجد اليوم علمانياً يُقبل على قراءة الكتب الدينية أو حتى الإنجيل؛ بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلّا اللغة العربية، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية

وينبذونها. . . لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم، ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية. . .»[1]

## ➢ قداسة البابا بينيديكتوس السادس عشر:

قد لا تعلمون أثر الإسلام في سياسة البابوات والأباطرة، فنظراً لتأثر الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث (٧١٧م) بالعقيدة الإسلامية، فقد أطلق عليه «ليو ذي العقلية الإسلامية»، وقد لا تعلمون بأن أحد باباوات روما قد تتلمذ على العلماء المسلمين في الأندلس، وقد لا تدرك أن البابا سلفستروس الثاني (٩٩٩ ـ ١٠٠٣م) والذي كان يعرف باسم «غربرت» قد قضى ثلاثة أعوام (٩٦٧ ـ ٩٧٠م) في الأندلس، فتعلم الرياضيات والفلسفة والفقه على العلماء المسلمين، بحيث بات فيلسوفاً ومشرعاً بارزاً. والأمر اللافت للنظر أنه نظراً للتخلف العلمي الذي كانت تئنّ منه روما وبقية المناطق الأوروبية، اعتبر العالم «غربرت» (البابا سلفستروس الثاني فيما بعد) بأنه ساحر؛ لأن العلم الحديث الذي تعلمه على علماء المسلمين كان غريباً على قومه. ونظراً لتطور العلوم عند المسلمين، فقد طالب الأب بطرس المبجل (Petrus venerabills) (١٠٩٤ ـ ١١٥٧م) رئيس دير كلوني من العلماء المسيحيين الذين تعلموا على العلماء المسلمين ترجمة العلوم العربية، وترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية للاستفادة من هذه العلوم، ومن الآيات القرآنية الكريمة.

## ➢ قداسة الحبر الأعظم:

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر ما قدمته الحضارة الإسلامية لأوروبا، والتي كان لها الفضل في انتقالها من الظلمات والجهل إلى التحضّر والتمدّن والتعلم؛ بل إن المسلمين هم أول من وضعوا قواعد اللياقة والأدب، وهو ما عرف باسم المراسم أو الإتيكيت، وقد وضع العالم أبو الحسن علي بن نافع (زرياب) كتاباً مفصلاً في الإتيكيت لتعليم الإسبان والأوروبيين اللياقات في مختلف المجالات.

ومن الأهمية بمكان القول، أن المدن الأندلسية ومن بينها طليطلة كانت من

---

(١) جرو ينباوم: حضارة الإسلام، ص٨١ ـ ٨٢، زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبا، ص٥٢٩.

المراكز العلمية الإسلامية المهمّة، التي شهدت تدفق الطلاب من غربي أوروبا إليها، وإلى المدن الأندلسية الأخرى لتعلم العلوم والدراسات الإسلامية، ونشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، واستمرت نشطة إلى القرن الخامس عشر الميلادي. وقد ترجم إلى اللاتينية الكثير من مؤلفات العرب في مختلف العلوم والفنون، بما فيها مؤلفات اليونانيين المعرّبة، مثل كتب: جالينوس، وأبقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وسواها.

## ➢ قداسة البابا:

نود إحاطتكم علماً، أنه في الوقت الذي اهتم بعض الحكام الإسبان بالحضارة الإسلامية مثل الفونس الخامس (الحكيم) (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤م) ملك قشتالة وليون، فقد واجهت الحضارة الإسلامية تعصباً أوروبياً أعمى عندما أمر رئيس أساقفة «أكزيمنيس» إحراق ثماني ألف كتاب من كتب العرب والمسلمين بعد جلائهم عن الأندلس، فيما تشير المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» إلى أن رجال الأسقف أحرقوا مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات العلمية هي مجهود العلماء المسلمين في الأندلس وثمرة حضارتهم خلال ثمانية قرون.

وكما في الأندلس، فقد شهدت جزيرة صقلية في العهد الإسلامي (٩٠٢ ـ ١٠٥٢م) حضارة إسلامية متطورة في مختلف الميادين العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية والمالية، ولما استرد النورمان صقلية أجبروا المسلمين على البقاء في الجزيرة للاستفادة من حضارتهم وخبراتهم، وأعطوهم ضمانات أمنية للبقاء. وبات ملوك صقلية: روجر الأول، وروجر الثاني ووليم الأول ووليم الثاني، ومن ثم فريدريك الثاني وكأنهم سلاطين مسلمون بتيجان الإفرنج، نظراً لاعتمادهم اللغة العربية والحضارة الإسلامية. ولما توفي الملك فريدريك الثاني عام (١٢٥٠م) كُفن بأثواب عربية، ودفن في مسجد بلرمو الذي حول إلى كاتدرائية.

وتذكر يا قداسة البابا الحروب الصليبية على بلاد الشام بين أعوام (١٠٩٨ ـ ١٢٩١م) بدعوة من البابا أوربان الثاني عام (١٠٩٥م) في مجمع كليرمونت «للقضاء على المسلمين الكفرة. . .» كما ادعى آنذاك مع ملوك وأمراء أوروبا، بأنهم يريدون تحرير بيت المقدس وحماية الحجاج المسيحيين من اضطهاد

المسلمين، علماً أن أسباب الحروب الصليبية الحقيقية إنما تعود لبواعث اقتصادية واجتماعية وسياسية أكثر مما هي بواعث دينية، بدليل أن الصليبيين (الإفرنج) قتلوا واضطهدوا من المسيحيين ـ وهم في طريقهم إلى الشرق ـ ما يعادل عدد المسلمين. وأنتم تعلمون أيضاً بأن سلفكم البابا بولس السادس قد اعتذر من المسلمين عما اقترفته البابوية وأوروبا ضد مسلمي الشرق. وهذا بحد ذاته موقف حضاري لم يسبقه إليه أحد من البابوات أو القادة الزمنيين، واعتبر هذا الموقف آنذاك بأنه مبادرة حسن نية تجاه الإسلام والمسلمين.

### ➢ قداسة البابا:

بالرغم من جميع المآسي والعنف والإرهاب والاضطهاد التي خلفتها الحروب الصليبية بحق المسلمين والمسيحيين العرب، غير أن الإفرنج استفادوا كثيراً من الحضارة الإسلامية السائدة في بلاد الشام، وبعد أن كان الصليبيون يعانون من التخلّف والفقر والجهل، وبعد تفاعلهم مع مسلمي ومسيحيي بلاد الشام بدأوا بالانتقال من حالة متخلفة إلى حالة حضارية، وبدأوا بنقل الحضارة الإسلامية والعربية إلى أوروبا. ومما يؤكد ذلك ما أشار إليه المؤرخ الإفرنجي المعاصر «فوشيه شارتر» (F. de chartres) عن حالة الإفرنج في بلاد الشام قائلاً:

«واحسرتاه، نحن قد تحولنا إلى شرقيين، فمن كان منا إيطالياً أو فرنسياً في الأمس، قد أصبح اليوم في وطنه الجديد، جليلياً أو فلسطينياً، وكذلك قد غدا ابن مدينة «ريمس» (Reims) أو مدينة «شارتر» (Chartres) صورياً أو أنطاكياً. فقد نسي كل منا وطنه الأول، فلم يعد أحد يتكلم عنه. وقد غدا الواحد منا يملك بيتاً وحشماً... وأننا لنستعمل من آنٍ لآخر اللغة العربية... إذ أصبح بالحقيقة الفقير منا غنياً بنعمة الله، ومن كان لا يملك سوى دريهمات، أصبح ينعم هنا بثروة طائلة ضخمة».

لقد تعلم الإفرنج من المسلمين العادات والتقاليد العربية والإسلامية، بما فيه «النخوة» وكراهيتهم للعادات والتقاليد الأوروبية، وأعجبوا بمعاملة المسلمين للأسرى الإفرنج؛ بل بمعاملة السلاطين المسلمين لملوك وأمراء الإفرنج. كما تعلموا من المسلمين علوم الطب والهندسة والصيدلة والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والعمارة ومختلف العلوم التطبيقية والنظرية.

## ◄ قداسة البابا بينيديكتوس السادس عشر:

أود أنْ أختم رسالتي إلى قداستكم بأهمية؛ بل بضرورة الاطلاع على الإسلام نصاً وروحاً، وعلى القرآن الكريم والسنة النبوية، والصفحات المضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية التي أنارت ظلام وتخلف أوروبا منذ العصور الوسطى. وما تزال أوروبا تدين بتقدمها حتى اليوم إلى الإسلام والحضارة الإسلامية. فمن المستغرب أن تكون الترجمات من العربية إلى اللاتينية في العصور الوسطى أكثر مما هي اليوم وهي التي كانت سبباً في تقدم أوروبا وفهم الإسلام وحضارته. ولذلك لم نستغرب يا قداسة البابا في ظل عدم إلمامكم بالإسلام أن تعتمد في محاضرتك على أقوال أباطرة بيزنطيين كانوا باستمرار يشتمون النبي ﷺ منذ دولة الرسول محمد إلى العهد العثماني باستثناء قلة منهم، وما يزال يشتم الإسلام وتوجه إليه الإهانات، فهو مرة «إسلام إرهابي» ومرة «إسلام فاشي» ومرة أخرى «إسلام نازي» ومرة سخرية واستهزاء بنبي الإسلام، وهكذا. فهل سياسة ازدراء واحتقار الإسلام تمثل ضمانة للتفاعل الحضاري بين الديانات، أم أن هذه السياسة هي العنصر الرئيس من عناصر صراع الحضارات؟.

وأخيراً أيها الحبر الأعظم لا أود أن أعتمد على علمائنا الأجلاء فيما ذكروه عن الإسلام والحضارة الإسلامية؛ بل سأعتمد على علماء أوروبا في هذا الصدد. فقد أشار العلامة المتدين موسيو «بارتلمي سان هيلر» (Barthelmy saint Hilaire) إلى أن أثر المسلمين والعرب في أوروبا كان كبيراً ومهماً ومما قاله: «لقد هذّبت طبائع أمرائنا الإقطاعيين الخشنة الغليظة في القرون الوسطى بفضل علاقتهم التجارية بالعرب وتقليدهم لهم. لقد تعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق من العرب، دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم... وإنني لأشك في أن النصرانية كانت تستطيع وحدها أن تأتي مثل ذلك التأثير مهما يبالغ في كرمها»[١].

ومما قاله العلامة جوستاف فون جروينباوم: «... ليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى...»[٢].

ويكفي أن نختم هذه الرسالة في قول العلامة «لوبون» مبدياً رأيه في دولة

---

(١) لوبون: حضارة العرب، ص٣٦٢ ـ ٣٦٣. (٢) حضارة الإسلام، ج٢، ص٥٢.

الإسلام والعرب وفي دينهم وثقافتهم وعلومهم وأثرهم على أوروبا، ومما قاله:

«إن الأمم التي فاقت العرب تمدناً قليلاً إلى الغاية، وأن ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة، وأن العرب أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، ولا يزال الناس يخضعون لها، وأنهم أنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وأنهم مدّنوا أوروبا ثقافة وأخلاقاً، وأن الأمم التي سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة، وأنه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها...»[١].

## ➢ أيها الحبر الأعظم:

إني أتمنى على قداستكم أن تطلعوا ـ بواسطة مسيحيي لبنان وبلاد الشام ـ على نموذج واحد من النماذج الحضارية الإسلامية، المتمثل بقيم ومثل ومبادئ وتعاليم الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي وبكيفية نظرته الحضارية إلى المسيحية. وفي الوقت الذي كان فيه العرب والمسلمون يقدمون لأوروبا وللبشرية أروع نماذج من التقدم العلمي والحضاري والاعتدال والوسطية والتسامح والرقي، كانت أوروبا تعاقب كل من يفكر في العلم، أو كل من يفكر. ولما تجرأ «غاليليو الإيطالي» منذ (٣٦٤) عاماً (المتوفى عام ١٦٤٢م) على القول: «أن الأرض كروية وتدور، جروه إلى محكمة التفتيش وهددوه بالقتل إن لم يكذب نفسه». لذلك يا قداسة البابا لا تتحدثوا عن الإسلام قبل دراسته وفهمه دراسة واعية ومعمقة، ولا تبحثوا عن النتائج التي آلت إليها الأمور في العالمين العربي والإسلامي؛ بل فتشوا عن أسباب وعوامل وبواعث قضايا العرب والمسلمين: جهاداً أو إرهاباً أو عنفاً أو نضالاً، وفي مقدمتها قضايا فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان سواها، وابحثوا في قضايا العدل والمساواة والديمقراطية المفقودة في قاموس الغرب وتساءلوا مع الرئيس الأميركي بوش: لماذا نظرة العرب والمسلمين إلى أميركا وأوروبا نظرة سلبية؟ فإن دققتم النظر، وإن تحققتم من الأسباب تعلمون الحقيقة، وإذا ذاك تعلنون موقفاً موضوعياً وعادلاً من الإسلام.

مع احترامي وتقديري

**حسان حلاق**

---

(١) لوبون: حضارة العرب، ص٦٤٣.

# الفصل الثامن

# المشاريع الأميركية والغربية في العالمين العربي والإسلامي ومشروع الشرق الأوسط الكبير

# الفصل الثامن

## المشاريع الأميركية والغربية في العالمين العربي والإسلامي ومشروع الشرق الأوسط الكبير

قام الإسلام على الإصلاح والتحديث وتقويم المجتمع العربي منذ بدء الدعوة الإسلامية. ولا شك أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية واجتهادات العلماء المسلمين والدعوة الإسلامية عامة، أكدت على أهمية إصلاح الفرد والمجتمع. لذلك كرّم الإسلام العلم والعلماء، وكانت الحضارة الإسلامية والعربية قد بدأت تشع في الشرق والغرب، ومن ثم انتشرت في بلدان الغرب التي كانت تئن آنذاك من وطأة الفقر والجهل والتخلف.

فالعروبة والإسلام وما يمثلان من حضارة ومدنية استمرا يشعان على ظلام وتخلف أوروبا لقرون عديدة. وبالرغم من أن أوروبا في العصور الوسطى قامت بحملاتها الصليبية على الأمصار العربية والإسلامية، غير أن العرب والمسلمين لم يبخلوا على الأوروبيين بحضارتهم ومدنيتهم. ولم تتخلف أو تتراجع الحضارة العربية والإسلامية بفعل عوامل عربية وإسلامية ذاتية، بل بفعل عوامل خارجية لا تمت للعروبة أو للإسلام بصلة. فقد تعرضت الولايات العربية لجميع المؤامرات والهجمات العسكرية المغولية والصليبية والأوروبية الحديثة في محاولة للقضاء على إنجازات الأمة العربية والإسلامية التي بدأت شعوب العالم تستظل وتنهل من علومها المتنوعة في الرياضيات والعمارة والهندسة والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والموسيقى والطبيعيات والعلوم الإنسانية وسواها من علوم بحتة ونظرية.

وبعد سقوط آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام بواسطة المماليك في عام (١٢٩١م)، بدأت تتزايد المؤامرات على العالمين العربي والإسلامي في ظل الصراعات العربية في الأندلس التي ما لبثت أن سقطت بيد الإسبان عام (١٤٩٢م). وقد انتقل الصراع بين المسلمين إلى المشرق العربي بين المماليك والعثمانيين ـ وهم من جذور تركية واحدة ـ عوضاً من اتحاد جهودهما في وجه

الأطماع الأوروبية، الأمر الذي أدى إلى صراعات وحروب بينهما انتهت بانتصار العثمانيين على المماليك في معركة مرج دابق عام (١٥١٦م) في بلاد الشام، ومعركة الريدانية عام (١٥١٧م) قرب القاهرة، وبذلك دانت مصر وبلاد الشام للحكم العثماني.

وبالرغم من الإنجازات العسكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية والديموغرافية التي أسهمت بها الدولة العثمانية طيلة أربعة قرون في الولايات العربية (١٥١٦ ـ ١٩١٨م) غير أن حكم بعض سلاطينها شهد ـ ولعوامل عديدة ـ الكثير من التخلف في مواجهة التحديات العلمية والسياسية والعسكرية والاقتصادية. والتربوية التي كانت تشهدها الدول الأوروبية لا سيما فرنسا تحديداً، مما كان يشكل خطراً على مستقبل الولايات العربية التي كانت لها تجارب مريرة سابقة مع القوى الغربية. لهذا بدأ بعض سلاطين آل عثمان بالقيام بحملات الإصلاح والتحديث في الدولة العثمانية[١]، ومن بين هؤلاء السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م) والسلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م) الذي طلب من صهره الصدر الأعظم الداماد إبراهيم باشا التعرف على التطورات العلمية والسياسية والعسكرية في أوروبا للاستفادة منها. كما قام السلطان محمود الأول (١٧٣٠ ـ ١٧٥٤م) باستقدام خبراء أجانب في مقدمتهم الخبير الفرنسي «كلود ـ الكسندر الكونت دي بونفال (١٦٧٥ ـ ١٧٤٧م). كما كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م) ميالاً بطبعه للإصلاح والتحديث الذي شهد عهده «استيراد المعرفة من أوروبا. وفي عهده أيضاً نشبت الثورة الفرنسية بكل ما صحبها من عواطف ضخمة في الأفكار السياسية وفي التوازن الأوروبي». غير أن الحركة الإصلاحية العثمانية البارزة في تاريخ الدولة العثمانية هي حركة السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م) التي عمل من خلالها على القضاء على رموز التخلف المتمثلة بفرق الانكشارية وتبعيتها من «الفرق الدينية البكتاشية» وجميع القوى المتمسكة بالتقاليد البالية، وبأساليب الرجعية العثمانية. بل أكثر من ذلك،

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص١٧٠ وما يليها (حركة الإصلاح العثماني والتنظيمات الخيرية)، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م. .

فإن السلطان محمود الثاني لم يرَ مانعاً من الاقتداء بأحد ولاة الدولة العثمانية وبإحدى الولايات العربية، ألا وهو والي مصر محمد علي باشا الذي اعتبر مؤسس مصر الحديثة.

والحقيقة، فقد استكمل السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود الثاني (١٨٣٩ ـ ١٨٦١م) الإصلاحات والتنظيمات داخل الدولة، واعتبر «خط شريف جول خانه[1]» الذي أصدره السلطان مرحلة هامة من مراحل التحديث التي شهدتها الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر. ويرى المؤرخ «ستانفورد شو» (S.Shaw) «أن خط شريف جولخانه قد احتوى على كثير من المثل العليا التي تضمنها الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن الصادر عام (١٧٨٩م)»[2].

ويلاحظ أيضاً بأن «خط شريف جولخانه» يكاد يكون الخط الأول المتكامل الذي لم يكن معتمداً على «الشريعة»، بل تضمن توفيراً واحتراماً للقرآن الكريم وللشريعة. وقد تضمن الخط (الفرمان) نقاطاً رئيسيةً تتمثل بما يلي:

١ ـ ضرورة إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وشرفهم وأملاكهم.

٢ ـ ضرورة إعلان محاكمات الرعايا، وأهمية مطابقتها للوائح والأنظمة والقوانين.

٤ ـ إلغاء إجراءات مصادرة الأملاك.

٤ ـ إيجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام.

٥ ـ توفير نظام ثابت للجندية بحيث لا تستمر مدى الحياة، بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع أو خمس سنوات.

وقد اعتبر الأوروبيون «خط شريف جولخانه» بمثابة «العهد الأعظم» بالنسبة إلى العثمانيين، لأنه أكد وللمرة الأولى المساواة بين جميع رعايا السلطان أمام القانون، والقضاء على «نظام الملل» وتوفير الأخاء بين كل الرعايا العثمانيين

---

(١) چول خانه أو كلخانة كلمة تركية، تعني: قصر الزهور.

(٢) S. Shaw; History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. II, P.61. (Reform, Revolution and Republic) (Cambridge 1977).

بهدف تقوية الدولة عن طريق تعزيز ولاء سكانها المسلمين والمسيحيين، وإضعاف الاتجاهات الانفصالية، وتعزيز الوحدة العثمانية في مواجهة الأطماع الأوروبية.

وكالعادة، فإن بعض العثمانيين رحبوا بهذه الإصلاحات، والبعض الآخر كفّروا واضع «خط شريف» رشيد باشا وزير الخارجية، لأنهم اعتبروا أن الخط منافٍ للقرآن الكريم. ولا بد من الإشارة إلى أن العديد من الإصلاحيين والمفكرين المسلمين، نشروا آراء إصلاحية عديدة، في القرنين التاسع عشر والعشرين منهم: محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، رفاعة الطهطاوي، الكواكبي، شكيب أرسلان، رشيد رضا وسواهم. وبالرغم من الإصلاحات والفكر الإصلاحي، غير أن عوامل عديدة أدت إلى عدم تقدم الدولة العثمانية كما يجب، بل استمرت المؤامرات المحلية والإقليمية والدولية عليها، كما برزت الحركات القومية التركية والعربية والقوميات الأخرى في مختلف الولايات العثمانية.

ومنذ أن تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم (بعد خلع شقيقه السلطان عبد العزيز) كانت الدولة العثمانية تواجه الحركات الدستورية والقومية والانفصالية، وحروب في الداخل والخارج، فضلاً عن بداية ظهور أطماع الحركة الصهيونية في فلسطين ابتداءً من مؤتمر بال في سويسرا عام (١٨٩٧م)، مع مؤامرة الصهيونية والقوى الدولية لخلع السلطان العثماني عن العرش عام (١٩٠٩م).

وبالرغم من أن السلطان عبد الحميد الثاني أعلن الدستور العثماني عام (١٨٧٦م)، مقدمة لتنشيط الانتخابات والحركة النيابية والدستورية، وعلى الرغم من أن السلطان حرص حرصاً شديداً على تطوير وتحديث ولايات الدولة العثمانية طيلة (٣٣) سنة، لا سيما الولايات العربية، غير أن الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) استطاعوا مع قوى دولية وصهيونية وماسونية خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام (١٩٠٩م)، تحت شعار الإصلاح والتحديث والحرية والمساواة والعدالة، غير أننا لا بد من التأكيد أنه نتيجةً للإصلاح والتحديث في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م)، فقد استمرت الدولة العثمانية متماسكة بعد أن كان مقدراً لها السقوط في القرن التاسع عشر، بل إن من أهم مميزات «العهد الحميدي» الإصلاح الاقتصادي المتمثل بالخصخصة ونظام

(B.O.T.)[1] سواء فيما خص شركات المرافئ والسكك الحديدية، والمياه والغاز والكهرباء والبريد والبرق والهاتف وسواها.

وقد اعتبرت تلك الأنظمة الاقتصادية العثمانية المستحدثة ثورة اقتصادية اعتمدتها الدولة العثمانية قبل مئة سنة على الأقل من دول غربية وشرقية على السواء. وفي عهد السلطان محمد رشاد الخامس، بدأت الدولة العثمانية تتراجع، وتنفصل عنها بعض الولايات، وبدأت تتضح مطامع أوروبا بشكل واضح، الأمر الذي دعا مجموعة من المستنيرين البيارتة واللبنانيين والعرب للمطالبة بحماية «الدولة العلية» من خلال برنامج إصلاحي سياسي وعسكري واقتصادي واجتماعي ومالي. بل لم يتردد أبناء بيروت من المسلمين والمسيحيين من إنشاء جمعية جديدة، عرفت باسم «جمعية بيروت للإصلاح» أو الجمعية الإصلاحية، عام (١٩١٣م)، في مقدمة أولوياتها ومطالبها، وآلياتها الإصلاح في الولايات العثمانية لا سيما الولايات العربية، ومن بينها ولاية بيروت[٢]. وقد تضمنت المطالب الإصلاحية، مطالب اقتصادية، واجتماعية وتربوية وسياسية وعسكرية. وبانتهاء الحكم العثماني في الولايات العربية عام (١٩١٨م) بدأت حركة جديدة من المطالب الإصلاحية ضد دول الاستعمار.

ومن الأهمية بمكان القول: إن المطالب الإصلاحية هي التي دعت الكثير من القوى السياسية في العالم العربي للمشاركة في الثورات والانقلابات، في مقدمتها ثورة ٢٣ تموز (يوليه) عام (١٩٥٢م) بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، حيث تصدرت المطالب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مطالب الثورة. وبدون أدنى شك فإن حركات الإصلاح والتحديث وحقوق الإنسان، كانت باستمرار تحرك الشارع العربي والمواطن العربي، غير أن الكثير من الدول العربية لم تهتم كثيراً بتلك المطالب الإصلاحية لتخوفها من «الفئات المستنيرة» المطالبة بحقوق المواطن العربي الاجتماعية والسياسية. وقد شهدت ـ وما تزال ـ بعض الدول

---

(١) نظام (.B.O.T) نظام مستحدث في القرن العشرين، سبق أن طبقته الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، ويقوم على إنشاء وتعمير (Building) العقارات أو المؤسسات، وتشغيلها (Occupation) واستثمارها، ومن ثم إعادتها بعد سنوات محددة إلى أصحابها (Transfer).

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: دراسات في تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣ ـ ١٩٤٣م، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.

العربية الكثير من حركات المعارضة المطالبة بتحسين واقع المواطن العربي الذي ما يزال يعاني من الفقر والجهل والمرض والأمية، بل إن دولاً عربية لم تشهد منذ نشأتها حتى اليوم انتخابات اختيارية أو بلدية أو نيابية تعبر تعبيراً حقيقياً عن الشورى أو الديمقراطية أو المطالب الشعبية. بل إن دولاً عربية تمنع المرأة فيها من حق إبداء رأيها أو مشاركتها في أية انتخابات.

وهكذا يلاحظ، بأن حركة الإصلاح والتحديث ليست حركة جديدة أو مطلباً جديداً، فعلى مر العصور كان الإصلاح والتحديث ظاهرة مستمرة، لأنها تمثل حاجة ضرورية للتطوير في مختلف المجالات. والإصلاح بحد ذاته لم يكن ـ ولن يكون في المستقبل ـ ظاهرة آنية مرتبطة بتطورات آنية معينة، بل هي حركة متجددة ومستمرة.

ولكن الأمر اللافت للنظر، أنه بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) عام (٢٠٠١م)، وتعرض الولايات المتحدة الأميركية لضربات عسكرية في الداخل والخارج قل نظيرها في التاريخ المعاصر، أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش «حرباً صليبية» على العالمين العربي والإسلامي، سرعان ما تراجع عن «تصريحه الصليبي».

ومنذ أن ابتدأت الحملة العسكرية الأميركية على أفغانستان عام (٢٠٠٢م) ضد نظام طالبان وتنظيم القاعدة برئاسة أسامة بن لادن، ومنذ أن ابتدأت الحملة الأميركية ـ البريطانية على العراق، وانتهت باحتلاله في آذار (مارس) عام (٢٠٠٣م) وسقوط نظام صدام حسين، فإن الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وبعض الأوساط الأوروبية تتحدث عن ضرورة «إصلاح العالم العربي وتحديثه لحمايته وحماية العالم من الإرهاب والتطرف». كما تحدثت تلك الأوساط عن تطبيق مشروع إصلاحي في «الشرق الأوسط الكبير» الذي يمتد جغرافياً من أفغانستان وباكستان وإيران وتركيا مروراً بمصر والسودان والسعودية واليمن ودول الخليج العربي وسوريا ولبنان والأردن بما فيه السلطة الفلسطينية، وبلاد المغرب العربي والبلاد العربية كافة.

وازداد هؤلاء تمسكاً بمشروعهم بعد استمرار الهجمات وأعمال العنف في مدريد وباريس ولندن بين أعوام (٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٧م).

وهذا المشروع الغربي الهادف إلى «إصلاح»!!! الشرق الأوسط الكبير، إنما الهدف منه «أمركة» هذه المناطق، و«تغريبها» بعد الادعاء بأنها مناطق وبؤر للإرهاب والتطرف. وقد تساءلت الدوائر الأميركية: كيف يمكن نشوء الإرهاب

والتطرف في بلاد تنعم بالنفط والدولار والغنى الفاحش وبمختلف أنواع الرفاهية؟ متهمة النظام التعليمي والتربوي السعودي والخليجي والمصري أنه وراء نشوء الإرهاب والتطرف والسلفية. وتناسى الأميركيون والغرب الأوروبي، أن الغنى والنفط لا يتناقضان مع المقاومة والجهاد في سبيل تحرير الأرض من براثن الاحتلال الأجنبي. ورأت بعض الأوساط الأميركية والبريطانية ضرورة أن يتضمن مشروع الشرق الأوسط الكبير ـ ولو في المستقبل البعيد ـ أن تحل تركيا كزعيمة جديدة للسُّنة في العالم مكان القاهرة حيث الأزهر الشريف، وأن تحل إيران كزعيمة جديدة للشيعة في العالم مكان الحوزات والأماكن والعتبات المقدسة في العراق.

واللافت للنظر، أن مشروع الشرق الأوسط الكبير بجيمع تفاصيله وأبعاده لاقى رفضاً من الدول العربية والإسلامية على السواء، مع الاعتراف بأهمية الإصلاح والتحديث على أن يكون إصلاحاً داخلياً وليس مفروضاً من الخارج.

ويمكن الاطلاع على الرؤية الأميركية والبريطانية لمشروع الشرق الأوسط الكبير «مشروع الديمقراطية بالإكراه» من خلال آراء جاك سترو وزير الخارجية البريطاني السابق[(١)] حيث تساءل: «لماذا يعتبر التحديث والإصلاح في العالم العربي من الأمور التي تهم بريطانيا والمجتمع الدولي بأسره؟».

فقد أكد أنه لا يريد التدخل في شؤون العالم العربي، غير أن الغرب ملتزم أدبياً بالاهتمام بالإصلاح والتحديث، نظراً للمصالح المشتركة بين العالم العربي والغرب، وهي مصالح واهتمامات عالمية في الوقت ذاته. ومما أشار إليه: «يتغير العالم الآن بشكل أسرع من أي وقت مضى في تاريخه، وكما أدرك قادة العالم العربي بأنفسهم، فإن التحدي في العالم العربي، كما هو في غيره من المناطق، هو إرادة التغيير بطريقة تحفظ ما هو أفضل في المجتمع، وتعطي الأفراد العاديين حرية وخياراً أكبر كما هو دائماً، بينما تحميهم من العنف والظلم.

إن شعوب العالم العربي هم أفضل من يفهم التحديات التي يواجهونها، وأن يقرروا كيفية التعامل معها. يجب أن تأتي الأفكار من أصدقائنا العرب. فنحن في أوروبا أو في الغرب لا نستطيع، ولا يجوز لنا، أن نملي عليهم، لكن

---

(١) جاك سترو: الشراكة لأجل الإصلاح في العالم العربي، محاضرة ألقيت في «مركز السياسة الخارجية» في أول آذار (مارس) ٢٠٠٤م. انظر: اللواء، ٢٠٠٤/٣/٩م.

باستطاعتنا أن نعمل معهم ـ وسوف نفعل ذلك ـ لدعم وتشجيع الإصلاح». ثم أكد على أهمية تدخل بريطانيا والغرب في عملية الإصلاح في العالم العربي للأسباب الآتية:

١ ـ قرب العالم العربي من بريطانيا ومن الدول الأوروبية.

٢ ـ الشراكة بين العالم العربي والغرب في التجارة والاستثمار والتعليم.

٣ ـ الشراكة بين الجانبين في مكافحة الإرهاب العالمي ونزع أسلحة الدمار الشامل.

٤ ـ إن العالم العربي هو المصدر الرئيسي للطاقة وللاقتصاد العالمي بأسره.

٥ ـ الاهتمام المشترك من أجل حل القضية الفلسطينية وبناء عراق حر ومزدهر.

٦ ـ إن العالم العربي هو مهد الإسلام ومهد الديانات السماوية الأخرى.

٧ ـ إن الحريات والتطوير والتحديث عوامل أساسية للازدهار والاستقرار في العالم العربي.

٨ ـ إن مئة مليون وظيفة يحتاجها العالم العربي في السنوات العشرين القادمة استناداً إلى تقرير «البنك الدولي». كما يعاني العالم العربي من البطالة بين الشباب والتي تقدر بـ ٥٠٪، ولن يحل هذه المشكلات إلّا عمليات التطوير والإصلاح.

٩ ـ إن نصف المجتمع العربي مصاب بالشلل الاقتصادي والاجتماعي، لأن الحكومات والمجتمعات العربية تمنع النساء من العمل والمشاركة في دورة الاقتصاد، مما يعني أن نصف المجتمع لا يستطيع أن يقوم بدوره في النمو الاقتصادي وفي تنمية المجتمع.

١٠ ـ يعاني المجتمع العربي من الأمية والجهل لا سيما بين الإناث والأطفال، مما ينذر بأوخم العواقب التنموية، لا سيما في ظل تزايد مخيف لعدد السكان.

لهذا كله، رأى جاك سترو: إن العالم العربي حالياً يواجه هذه التحديات مجتمعة، والتي لا يمكن تجاوزها إلّا بالإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي. وقد اختار «سترو» آراء بعض العرب، فاعتمد عليهم قائلاً: «إن المثقفين العرب هم من أشاروا إلى التحديات التي تواجه المنطقة في

تقرير التنمية البشري في العالم العربي الصادر عام (٢٠٠٢م)، والتقرير الذي تبعه والذي نشر في عام (٢٠٠٣م) وكان البيان الصادر عن مؤتمر صنعاء في ١٢ يناير (كانون الثاني) (٢٠٠٤م) إسهاماً آخر هاماً في هذا النقاش، حيث دعا من بين ما دعا إلى إعطاء النساء المزيد من السلطات، وتعزيز الديمقراطية والتعددية، والتطبيق الفعال لحكم القانون، وجهود أكبر لتطوير التعليم».

والحقيقة، فإن وزير الخارجية البريطاني جاك سترو، رأى أن العالم العربي يحتاج إلى أكثر مما طالب به المثقفون العرب. فقد رأى أن الشعوب العربية تحتاج إلى:

١ ـ حكومات عربية ديمقراطية أكثر انفتاحاً ومشاركة وتمثيلاً لشعوبها، مدعومة من المجتمع المدني.

٢ ـ حكومات عربية تجعل حكم القانون أكثر فعالية وشفافية، وتتخذ إجراءات لاحترام أكبر لحقوق الإنسان.

٣ ـ إصلاحات اقتصادية لإيجاد الوظائف وتحفيز النمو.

٤ ـ الاهتمام بالتعليم المتطور، مقدمة لإعداد كوادر تتميز بالكفاءة لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين.

٥ ـ إحداث تغييرات مبدعة لتمكين النساء من توظيف قدراتهن في المجتمع العربي.

٦ ـ إصلاحات جذرية في القضاء الذي يحتاج إلى إصلاح حقيقي في العالم العربي.

٧ ـ إنهاء الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، لأن استمرار العنف بين الجانبين يمثل عقبة في سبيل الإصلاح. ورأى «سترو» لا يظنن أحد بأن الإصلاح والتغيير والتحديث مهمة سهلة، بل هي مهمة شاقة وصعبة «وإن الغرب على استعداد تام لمساعدة الدول العربية في مهامها الإصلاحية، بالرغم من عدم الثقة تاريخياً بالغرب». ثم رأى أن الإسلام لا يتناقض مطلقاً مع الإصلاح والتحديث «لقد عانت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية والجزائر والمغرب، على الأقل مثلما عانت بعض الدول الأوروبية، على أيدي الإرهابيين الذين يحرفون معنى دين مسالم، لكي ينشروا الدمار والكراهية». ثم أشار إلى أهمية مبدأ الشورى في

الإسلام، ورأى نشأته في العالم الإسلامي قبل العالم المسيحي، مؤكداً «إن مبدأ الشورى أو التشاور، تأسس أبكر كثيراً من ظهوره في العالم المسيحي ـ بالطبع ليس هنالك في الثقافة العربية ما يجعل التغير مستحيلاً ـ فقد تغيرت المنطقة في بعض النواحي بشكل لا يمكن التعرف عليه خلال العقود الماضية».

وأعطى أمثلة على ذلك مشيراً إلى أنه في عام (١٩٧٠م) كان يذهب إلى المدرسة في عُمان (٩٠٧) أولاد، بينما تجاوز عددهم في عام (٢٠٠٤م) ستمائة ألف طالب وطالبة، وحتى عام (١٩٧٠م) لم يكن في دبي أية بنى تحتية حديثة، فإذا هي اليوم ومنذ سنوات مركز مزدهر وعصري للتجارة والنقل، كما حولت مصر نفسها من اقتصاد موجه يخضع لسيطرة الحكومة إلى ممارسة اقتصاد حر على نحو كبير، كما توجد حرية الخطابة وحرية الإعلام في العديد من الدول العربية.

ورأى جاك سترو، أن بإمكان الشراكة الأوروبية ـ العربية العمل في سبيل الإصلاح والتحديث ومكافحة الإرهاب والتسلح والتهريب وتبييض الأموال، خاصة عبر برنامج مساعدات الاتحاد الأوروبي لدول البحر المتوسط المعروف باسم (MEDA) الذي يصل إلى (٧٠٠) مليون يورو كل عام، وعبر التعاون مع دول مجلس التعاون الخليجي والولايات المتحدة الأميركية، وبرامج الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها وحلف شمال الأطلسي (الناتو).

وهكذا يلاحظ، بأن بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية والمنظمات الدولية تسعى بشكل دؤوب للشراكة من أجل الإصلاح والتحديث والديمقراطية في العالم العربي[١]. ولكن تحت أية رؤية؟ رؤية إصلاحية عربية نابعة من دراسة مشكلات وقضايا العالم العربي، أو مستوردة ومفروضة من الخارج انطلاقاً من مصالح العالم العربي وإسرائيل؟

---

(١) أعلن وزير الخارجية الأميركي كولن باول في ٢٤ أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠٤ إنشاء «منتدى المستقبل» لدول الشرق الأوسط الأوسع وشمال أفريقيا، وقد وافق المغرب على استضافة اجتماعه الأول الذي سيضم مجموع الدول الصناعية الثماني الكبرى (G8) ودول المنطقة للعمل معاً من أجل إصلاح سياسي واقتصادي واجتماعي. انظر: النهار، ٢٥/٩/٢٠٠٤م L'Orient - Le jour 25/9/2004.

والحقيقة فقد مارست الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا والعديد من الدول الأوروبية ضغوطاً على الدول العربية للمضي قدماً في مسيرة الإصلاح والتحديث، لا سيما وأن بعض هذه الدول بدأت تتخوف من «رياح التغيير بالقوة المسلحة الأميركية» على غرار ما جرى في العراق عام (٢٠٠٣م). لهذا عقدت القمة العربية السادسة عشرة في تونس بين ٢٢ ـ ٢٣ أيار (مايو) عام (٢٠٠٤م) جلساتها التي انتهت إلى اتخاذ قرارات تتعلق بالإصلاحات السياسية والاقتصادية في العالم العربي، وبالصراع العربي ـ الإسرائيلي، والوضع في العراق والعقوبات الأميركية على سوريا. وتعديلات على ميثاق جامعة الدول العربية والعمل العربي المشترك.

والأمر اللافت للنظر: إن أهم ما يميز قررات «قمة تونس» إصدارها «وثيقة مسيرة التطوير والتحديث والإصلاح العربية»، وهي في جوهرها «المطالب الإصلاحية الغربية» حول الإصلاح السياسي والاقتصادي والشورى وإصلاح القضاء والاهتمام بالمرأة العربية والشباب العربي وبالطفولة وتطوير التعليم والمعرفة، والتعاون مع دول العالم لتوطيد السلم والأمن...

وفيما يلي النص الحرفي لوثيقة «مسيرة التطوير والتحديث والإصلاح العربية»[1].

اعتمد القادة العرب في ختام القمة العربية السادسة عشرة التي استضافتها تونس وثيقة «مسيرة التطوير والتحديث والإصلاح في الوطن العربي».

وفي ما يلي النص الحرفي لهذه الوثيقة:

نحن قادة الدول العربية المجتمعون في تونس في ٢٣ أيار (مايو) (٢٠٠٤م).

تعبيراً عن إرادة شعوبنا في تحقيق النهضة الشاملة وتأكيداً للجهود التي تبذلها دولنا في سبيل التطوير والتحديث والإصلاح، وانطلاقاً من العزم الذي يحدونا لمزيد من التقدم في مسيرة التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي

(١) وثيقة مسيرة التطوير والتحديث والإصلاح العربية الصادرة عن قمة تونس الـ(١٦) في ٢٣/٥/٢٠٠٤م. انظر: النهار، المستقبل، اللواء، ٢٤/٥/٢٠٠٤م.

والثقافي والتربوي في بلداننا، وعن مرتكزاتنا الثقافية والدينية، ومراعاةً لوتيرة التغيرات الجارية في مجتمعاتنا.

وإدراكاً لضرورة بناء مستقبل أفضل لشعوبنا في إطار تعزيز مقومات هويتنا العربية ووحدة شعوبنا وتماسكها، وتكريس مشاركة قواها الحية في مسار التحديث المنفتح على العالم والمتفاعل معه والمساهم في نهضته في نطاق التمسك بقيم التسامح والاعتدال والفهم المتبادل، وتأييداً للجهود والمبادرات العربية الإيجابية التي يشهدها العديد من العواصم والمدن العربية بمساهمة من المنظمات غير الحكومية وبالتفاعل النشط مع عناصر المجتمع ومكوناته بهدف الارتقاء بجهود التطوير والتحديث في المجتمعات العربية في شتى المجالات.

وتأكيداً لأهمية التعامل الجاد مع مختلف القضايا الجوهرية في المنطقة وإيجاد الحلول لها، باعتبار أن التسوية العادلة لهذه القضايا من شأنها أن تعزز الإحساس بالسلام والأمن وتدعم الجهود الذاتية لشعوب المنطقة نحو التغلب على التحديات وتجاوز التداعيات الناجمة عن عهود الاستعمار وتعزز مسيرة الممارسة الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان العربي والحفاظ عليها وترسيخ ممارساتها، نعلن تصميمنا على:

١ ـ استمرار الجهود وتكثيفها لمواصلة مسيرة التطوير في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية تحقيقاً لتقدم المجتمعات العربية النابع من إرادتها الحرة بما يتفق مع قيمها ومفاهيمها الثقافية والدينية والحضارية وظروف كل دولة وإمكاناتها.

٢ ـ تعميق أسس الديمقراطية والشورى وتوسيع المشاركة في المجال السياسي والشأن العام وفي صنع القرار في إطار سيادة القانون وتحقيق العدالة والمساواة بين المواطنين واحترام حقوق الإنسان وحرية التعبير وفقاً لما جاء في مختلف العهود والمواثيق الدولية والميثاق العربي لحقوق الإنسان وضمان استقلال القضاء، بما يدعم دور مكونات المجتمع كافة بما فيها المنظمات غير الحكومية، ويعزز مشاركة فئات الشعوب كافة رجالاً ونساءً في الحياة العامة ترسيخاً لمقومات المواطنة في الوطن العربي.

٣ ـ الاهتمام بالطفولة والشباب ومواصلة النهوض بدور المرأة في المجتمع

العربي وتدعيم حقوقها ومكانتها في المجتمع، تعزيزاً لمساهمتها في دفع عملية التنمية الشاملة من خلال مشاركتها الفعلية في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٤ ـ مواصلة الإصلاحات الاقتصادية للارتقاء بمستوى معيشة شعوبنا ورفع معدلات النمو في بلداننا وتفعيل دور القطاع الخاص واتباع سياسات تستهدف تحرير التجارة والنفاذ إلى الأسواق الخارجية وتطوير أجهزة الدولة لتقوم بدورها بشكل فاعل في تنفيذ هذه الإصلاحات.

٥ ـ العمل على الإسراع بإنجاز سوق عربية مشتركة والإسراع بالمراحل المطلوبة لذلك وتحقيق التكامل بين اقتصادات البلدان العربية.وتنمية الاستثمارات وتطوير العلاقات الاقتصادية البينية وتدعيم انخراطها في اقتصاد السوق بما يكفل تعامل البلدان العربية مع بقية دول العالم كمجموعة اقتصادية متماسكة ومنفتحة على الدول والتجمعات الاقتصادية الأخرى، وإقامة تعاون وثيق مع الهيئات والتجمعات والفضاءات والمؤسسات الدولية والإقليمية.

٦ ـ وضع استراتيجية عربية شاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية قصد ترسيخ مفاهيم الحكم الرشيد ومعالجة ظاهرة الفقر والأمية وحماية البيئة وتوفير فرص العمل والرعاية الصحية في العالم العربي.

٧ ـ تحديث البنية الاجتماعية لدولنا والارتقاء بنظم التعليم وتطوير قواعد المعرفة لمواكبة التطورات العلمية والتكنولوجية والتقنية في العالم وتمكين مجتمعاتنا من التعامل مع متطلبات روح العصر في إطار صيانة هويتنا واحترام تقاليدنا الأصيلة.

٨ ـ التعاون مع المجتمع الدولي في إطار الشراكة المتضامنة وعلى أساس المصالح المشتركة قصد تحقيق الازدهار والنمو للدول العربية وشعوبها بما يسهم في تعزيز ركائز الأمن والسلم والاستقرار إقليمياً ودولياً.

٩ ـ مضاعفة الجهود باتجاه المجموعة الدولية من أجل تحقيق التسوية العادلة والشاملة والدائمة للصراع العربي الإسرائيلي وفقاً للمبادرة العربية للسلام وقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة، قصد إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على ترابها الوطني وعاصمتها القدس الشرقية وانسحاب إسرائيل من كل الأراضي العربية المحتلة إلى

حدود الرابع من حزيران (١٩٦٧م) بما في ذلك الانسحاب من الجولان السوري المحتل ومزارع شبعا اللبنانية وتحقيق حل عادل يتفق عليه لقضية اللاجئين الفلسطينيين طبقاً لقرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ وضمان رفض كل أشكال التوطين الفلسطيني الذي يتنافى والوضع الخاص في البلدان العربية المضيفة وتأكيد التمسك بالسلام كخيار استراتيجي يستوجب التزاماً إسرائيلياً مقابلاً من خلال التنفيذ الأمين لقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة والدعوة لعقد مؤتمر للأمم المتحدة لإخلاء منطقة الشرق الأوسط بما فيها إسرائيل من أسلحة الدمار الشامل الأمر الذي سيحقق الأمن والاستقرار في المنطقة ويزيل عوامل التوتر وانعدام الثقة وتوجيه طاقات دول المنطقة نحو التنمية الشاملة وبناء مستقبل أكثر أمناً ورخاء لأبنائها.

١٠ ـ دعم حق سيادة دولة الإمارات العربية المتحدة على جزرها الثلاث المحتلة.

١١ ـ مواصلة العمل في إطار الشرعية الدولية وبشراكة بين الدول العربية والمجتمع الدولي في مكافحة الإرهاب بكل أشكاله واقتلاعه من جذوره وتفكيك شبكاته ومعالجة أسبابه ومكافحة غسيل الأموال وتجارة المخدرات والجريمة المنظمة مع التمييز بين الإرهاب المدان والحق المشروع للشعوب في مقاومة الاحتلال.

١٢ ـ التمسك بقيم التسامح والاعتدال والحرص على ترسيخ ثقافة الحوار بين الأديان والثقافات ونبذ روح الكراهية بكل أشكالها وإشاعة قيم التضامن والتعايش السلمي بين الشعوب والأمم بما يعزز عرى الصداقة والتفاهم في إطار الاحترام المتبادل.

١٣ ـ التأكيد على أهمية دور الجاليات العربية في الخارج كجسر للصداقة والتعاون بين الدول العربية والدول المضيفة لهذه الجاليات والعمل بالتعاون مع الدول المضيفة ومن خلال احترام أنظمتها وقوانينها، على الحفاظ على هوية هذه الجاليات وتقوية روابطها مع بلدانها الأصلية.

وفي موازاة قرارات «قمة تونس الإصلاحية»، كانت الدول الصناعية الثماني (G8) (أميركا، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليابان، كندا، وروسيا) تدرس مشروعاً إصلاحياً للشرق الأوسط الكبير[١]. وقد أكد وزير الخارجية الأميركي

(١) انظر: اللواء، ٢٩/٥/٢٠٠٤م.

كولن باول أن المبادرة الإصلاحية ستكون «مشروع الشرق الأوسط الأكبر وشمالي أفريقيا» لأن الكثير من دول العالم، فضلاً عن العالم العربي تحتاج إلى الإصلاح والتحديث، وأن هذا الرأي ليس حكماً أميركياً، بل هو حكم تقارير الأمم المتحدة وحكم مؤتمر مكتبة الإسكندرية، وأصوات كثيرة في المجتمع العربي تطالب بالإصلاح. . . إن هذه المبادرة ليست محاولة لوضع الناس في صندوق، إنها جهد لإخراج الناس من صندوق، إنها جهد لمساندة الناس الذين يريدون أن يروا التحديث والإصلاح في مجتمعهم. . . هذا هو الطريق نحو المستقبل. الديمقراطية والحرية والتحديث والإصلاح، وهذا يمكن تطبيقه على كل الدول. . .[١].

وحول رأي باول في قرارات القمة العربية في تونس، فقد رحب بما تحقق في القمة من قرارات وبيانات واصفاً إياها بأنها تعد خطوة كبرى لجامعة الدول العربية، وتتوافق مع أشياء قلناها.

وبالفعل ففي ٨ ـ ٩ حزيران (يونيه) عام (٢٠٠٤م)، عقدت الدول الصناعية الثماني في «سي ايلاند» قبالة سواحل جورجيا في الولايات المتحدة الأميركية، قمة شارك فيها المسؤولون في الدول الثماني[٢] وقد تبنت القمة في ٩ حزيران (يونيه) (٢٠٠٤م) شراكة للتقدم ولمستقبل مشترك تهدف إلى تسريع الإصلاحات في الشرق الأوسط الكبير وشمالي أفريقيا، وهي تمثل تعديلاً لمبادرة الرئيس الأميركي جورج بوش بعدما عارضها عدد من الدول العربية والأوروبية لا سيما فرنسا لأنها تتضمن فرض التغيير من الخارج. وجاء في نص المبادرة[٣].

---

(١) النهار، ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٤م.

(٢) المشاركون في القمة: الرئيس الأميركي: جورج بوش، الرئيس الفرنسي: جاك شيراك، الرئيس الروسي: فلاديمير بوتين، رئيس وزراء بريطانيا: طوني بلير، رئيس وزراء اليابان: جونيشيرو وكيوزومي، رئيس الحكومة الكندية: بول مارتين، المستشار الألماني: غير هارد شرودور، رئيس الوزراء الإيطالي: سيلفيو برلسكوني، بالإضافة إلى رئيس الوزراء الإيرلندي: بيرني أهيرن، ورئيس المفوضية الأوروبية: وومانو برودي، فضلاً عن اجتماعات عقدت على هامش القمة مع الرئيس العراقي الجديد: غازي عجيل الياور، وملك الأردن: عبد الله الثاني، والرئيس اليمني: علي عبد الله صالح، وملك البحرين: حمد بن عيسى آل خليفة، والرئيس الجزائري: عبد العزيز بوتفليقة، ورئيس الوزراء التركي: رجب طيب أردوغان، والرئيس الأفغاني: حميد قرضاي.

(٣) مبادر قمة الدولة الصناعية الثماني (G8) في منتجع سي إيلاند في ولاية جورجيا الأميركية في =

«نحن زعماء مجموعة الثماني ندرك أن السلام والتطور السياسي والإقتصادي والإجتماعي والرخاء والاستقرار في دول الشرق الأوسط الكبير تشكل تحدياً لنا وللمجتمع الدولي كله. ومن ثم نعلن دعمنا لإصلاحات ديمقراطية واجتماعية واقتصادية نابعة من هذه المنطقة».

إن هذه الشراكة ستقوم على تعاون حقيقي مع حكومات المنطقة، ومع ممثلي القطاع الاقتصادي والمجتمع الأهلي لترسيخ الحرية والديمقراطية والازدهار للجميع.

إن حل النزاعات الدائمة التي غالباً ما تكون مريرة، ولا سيما منها النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، عنصر مهم للتقدم في المنطقة وأن النزاعات الإقليمية يجب أن لا تشكل عقبة في وجه الإصلاحات، وسيمضي دعمنا للإصلاح في المنطقة خطوة خطوة مع تأييدنا لتسوية عادلة وشاملة ودائمة للصراع العربي ـ الإسرائيلي تقوم على قرارات الأمم المتحدة.

كما اتفقت «مجموعة الثماني» على الأعداد والمساعدة فيما يلي[1]:

١ ـ إقامة منتدى من أجل المستقبل سيجمع معاً في منتدى واحد وزراء الخارجية والاقتصاد ووزراء آخرين من مجموعة الثماني ومن المنطقة لمناقشة دورية للإصلاح، مع مشاركة رجال الأعمال والمجتمع المدني في حوارات متوازية. وقد عقد الاجتماع الأول لهذا المنتدى في خريف (٢٠٠٤م).

٢ ـ تبني خطة للدعم وتقديم المساعدات من خلال مبادرات جديدة.

٣ ـ حوار مساعدة الديمقراطية الذي سيجمع معاً مؤسسات ديمقراطية، وجماعات المجتمع المدني. وحكومات من مجموعة الثماني والمنطقة العربية، ودول أخرى لتشجيع المؤسسات الديمقراطية، وتنسيق المعلومات وتبادلها في ما يتعلق ببرامج ديمقراطية، وإيجاد برامج ديمقراطية جديدة، وسترعى تركيا واليمن وإيطاليا حوار مساعدة الديمقراطية، وقد شاركت في استضافة الاجتماع الأول سنة (٢٠٠٤م).

---

= ٩/٦/٢٠٠٤م. انظر: النهار، اللواء، ١٠/٦/٢٠٠٤م، L'orient - Le Jour, 10/6/2004.
انظر أيضاً: النسخة المعدلة لمشروع الشرق الأوسط الكبير في: اللواء، ٢٩/٥/٢٠٠٤م.

(١) انظر: النهار، ١٠/٦/٢٠٠٤م.

٤ ـ مبادرة التمويل الصغير لمساعدة مليونين من أصحاب المشاريع الاقتصادية على «الفرار من الفقر» عن طريق قروض تمويل صغيرة مدى السنوات الخمس المقبلة.

٥ ـ مبادرة محو الأمية لمساعدة جهود المنطقة على خفض نسبة الأمية إلى النصف مدى العقد المقبل، وتتضمن مبادرة لتدريب مئة ألف مدرس حتى سنة (٢٠٠٩م)، وسترعى أفغانستان والجزائر هذه المبادرة.

٦ ـ مبادرة لتدريب رجال الأعمال بهدف مساعدة نحو (٢٥٠) ألف مستثمر شاب، وخصوصاً النساء على تعزيز فرصهن في التوظيف.

٧ ـ مشروع الاستثمار الخاص بمؤسسة التمويل الدولية من أجل استثمار مئة مليون دولار تستخدم في تمويل استثمارات صغيرة ومتوسطة الحجم.

٨ ـ شبكة صناديق تمويل لتنشيط عمل مؤسسات التنمية ومؤسسات التمويل الدولية في المنطقة.

٩ ـ فريق عمل للاستثمار يساعد جهود المنطقة لتحسين المناخ الاقتصادي.

هذا وترى الباحثة التركية الدكتورة دويغو بازوغلو سيزر ـ أستاذة العلاقات الدولية في جامعة أنقرة ـ «فإذا تمكنا من تحريك الطاقات الجماعية للمنطقة لبناء قوس من الاستقرار أكثر ديمقراطية وازدهاراً من أفغانستان إلى شمالي أفريقيا، أمكن خدمة قضيتي السلم والأمن الدوليين، لكن مرة أخرى يجب أن يتجه النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني نحو الحل قبل تحريك طاقات وإرادات المنطقة نحو هذا الهدف»(١). هذا، وقد عقد بين ١٤ ـ ١٦ تموز (يوليه) (٢٠٠٤م)، «مؤتمر استانبول»(٢) بدعوة من المؤتمر الوزاري لمنظمة المؤتمر الإسلامي، الذي أصدر قرارات أكدت على دعم الاستقلال السياسي للعراق وحكومته المؤقتة، كما أكد المؤتمر على دعم الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وطالب بنشر قوات دولية لحمايته من الممارسات الإسرائيلية العدوانية، كما أكد المؤتمر دعمه للملكة العربية السعودية في مواجهة الهجمات الإرهابية التي تتعرض لها، وتمت إدانة

---

(١) د. دويغو بازوغلو سيزر: مبادرة الشرق الأوسط الكبير... وجهة نظر تركية. انظر: اللواء، ١٥/٦/٢٠٠٤م.

(٢) اللواء، ١٧/٦/٢٠٠٤م.

العقوبات الأميركية على سوريا، كما حث المؤتمر الدول الأعضاء في المنظمة وعددها (٥٧) دولة على تقوية علاقات الأخوة مع سوريا في كافة المجالات ودان المؤتمر بشدة أعمال التعذيب الوحشية التي مارستها قوات الاحتلال ضد المعتقلين العراقيين.

ومما يلاحظ أن «مؤتمر استانبول» استنكر الأعمال الإرهابية في العالم الإسلامي والعالم أجمع، وتعهد المؤتمرون بمواصلة مساعي الإصلاح والتقدم «وندين بشدة الإرهاب في جميع أشكاله، ونعرب عن تعاطفنا العميق، وتأييدنا للبلدان التي وقعت ضحية للهجمات الإرهابية، ونتفق على مضاعفة جهودنا لمكافحة هذا الوباء العالمي» كما أكد المشاركون في بيانهم عزمهم على مواصلة التقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي كدول ذات سيادة، ومواصلة مساعي الإصلاح النابعة من الداخل، والعمل على المساواة بين المواطنين، وتوطيد مبادئ التمثيل النيابي، والممارسات الديمقراطية لحكومات منظمة المؤتمر الإسلامي.

وأكد «مؤتمر استانبول» على مفهوم «الوسطية المستنيرة» وعلى أهمية توفير التعليم العصري للجيل الجديد، وبذل الجهود من أجل القضاء على الفقر.

ومما يلاحظ على «مؤتمر استانبول» مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي، أنه بالرغم من توجيه النقد للولايات المتحدة الأميركية لسوء معاملتها الأسرى العراقيين، وبالرغم من تأييد الحق الفلسطيني والعراقي في الحرية والاستقلال، غير أن البنود المتعلقة بإصلاح العالم العربي، ليست سوى بنود المشروع الأميركي والبريطاني، ومن ثم مشروع قمة الثماني بشكل أو بآخر، خاصة وأن هذا المشروع سبق أن وزع على جميع دول «الشرق الأوسط الكبير» من أفغانستان حتى شمال أفريقيا، وقد نشرت بعض الأوساط العربية ـ بواسطة وزارات الخارجية ـ نص المشروع الأميركي الإصلاحي.

ويبدو أن أوساط الأمم المتحدة ـ التي يفترض أن تكون حيادية ـ كانت تعمل على تسويق المشروع الإصلاحي الأميركي، ومشروع الشرق الأوسط الكبير، وذلك بواسطة نشر تقارير مضخمة عن تخلف العالم العربي. فبين ١٢ ـ ١٤ تموز (يوليه) (٢٠٠٤م)، عقد مؤتمر برنامج للأمم المتحدة للإنماء في الرباط»، وبشكل موازٍ لمؤتمر استانبول، فقد تضمن تقرير برنامج الأمم المتحدة

للإنماء[1] عن تأخر كبير ومتواصل للتنمية في الدول العربية لتحقيق أهداف الألفية التي حددت لسنة (٢٠١٥م) «انجازات وتطلعات». ورأت المنظمة أن الفقر والجهل والمرض والجوع ظواهر ما تزال متفشية في العالم العربي، مما يستوجب إجراءات عاجلة لا سيما لجهة تخفيض عدد الفقراء بمعدل النصف بين (١٩٩٠ ـ ٢٠١٥م).

وتضمن التقرير أيضاً بأن نسبة الفقراء تزداد في بعض الدول العربية مثل جيبوتي بين أعوام (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٢م)، إذ يعيش نحو ٧٥٪ من السكان بأقل من دولار يومياً. وتزايد الفقر في المغرب بين أعوام (١٩٩٠ ـ ١٩٩٨م)، وفي الجزائر بين أعوام (١٩٨٨ ـ ١٩٩٥م).

أما فيما يختص بالتعليم المدرسي، فالتقدم النسبي ليس كافياً، غير أن الأردن وقطر تجاوزت نسبة التعليم المدرسي ٩٠٪ كما أظهر التقرير أن النساء يمثلن ثلثي الأميين البالغين، علماً أن أهداف الألفية تقضي بإزالة التفاوت في التعليم بين الرجال والنساء بحلول عام (٢٠١٥م) على أبعد تقدير.

وذكر تقرير «برنامج الأمم المتحدة للإنماء» بأن أكثر من ١٠٪ من الأولاد في العالم العربي يموتون قبل بلوغ سن الخامسة من العمر، وأن ٣٠٪ من سكان المدن في موريتانيا و٤٠٪ في سلطنة عُمان كانوا ما يزالون محرومين من مياه الشفه حتى عام (٢٠٠٠م). وسجل التقرير بأن الدول العربية أحرزت تقدماً ملموساً على صعيد التنمية البشرية خلال السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، غير أن وتيرة التغيير أخذت تتباطأ في التسعينات.

وبالرغم من ردود فعل بعض المسؤولين العرب الرافضين التدخل الأجنبي لفرض الإصلاح في العالم العربي، غير أن جميع المؤتمرات المحلية والإقليمية العربية بما فيه مؤتمر القمة العربية السادسة عشرة في تونس في أيار (مايو) (٢٠٠٤م)، وبما فيه مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي في تموز (يوليه) (٢٠٠٤م) «مؤتمر استانبول» فإن كلها أخذت بعين الاعتبار مضامين المشروع الأميركي ـ البريطاني الذي عرف باسم «مشروع الشرق الأوسط الكبير» للإصلاح والتطوير والتحديث وإرساء الديمقراطية والحرية، كما أخذت تلك المؤتمرات بعين

---

(١) تقرير «برنامج الأمم المتحدة للإنماء» بين ١٢ ـ ١٤ تموز (يوليه) عام ٢٠٠٤م، الرباط، المغرب. النهار، ١٥/٧/٢٠٠٤م.

الاعتبار تقارير منظمة الأمم المتحدة للإنماء، بما فيه تقارير منظمة الأسكوا.

واستناداً إلى ما طرح من مشاريع إصلاحية وإنمائية للعالم العربي، كان لا بدّ للمجتمع المدني من إبداء رأيه في المشكلة الإصلاحية الراهنة، لهذا دعت «المنظمة المصرية لحقوق الإنسان» ومجلة «السياسة الدولية» و«مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان» إلى عقد مؤتمر في القاهرة بين ٥ ـ ٧ تموز (يوليه) (٢٠٠٤م) تحت عنوان «مؤتمر أولويات وآليات الإصلاح في العالم العربي» شارك فيه نحو مئة شخصية من المثقفين والناشطين السياسيين المصريين والعرب من نحو (١٥) دولة عربية.

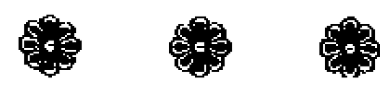
ناقش المؤتمر المبادرات الدولية للإصلاح في العالم العربي، وما توصلت إليه القمم الدولية الثلاث: (قمة الثماني، قمة الاتحاد الأوروبي، الولايات المتحدة الأميركية، وقمة الحلف الأطلسي) التي عقدت خلال شهر حزيران (يونيه) من عام (٢٠٠٤م) كما ناقش المؤتمر «وثيقة الإسكندرية» ومبادرة «الاستقلال الثاني» للإصلاح السياسي في العالم العربي، وما توصلت إليه قمة ملوك ورؤساء دول جامعة الدول العربية بخصوص قضية الإصلاح، وتقييم منظمات حقوق الإنسان في العالم العربي لنتائج القمة، كما ناقش المؤتمر رؤى وأولويات الإصلاح السياسي في ثماني دول عربية هي: مصر، سوريا، تونس، الأردن، البحرين، السعودية، العراق، والجزائر. كما توقف المؤتمر عند مسار التجربة المغربية في الإصلاح من خلال وثائق وأوراق ومداولات «مؤتمر أولويات وآليات الإصلاح في العالم العربي»[(١)]، لذا فقد تبين للمؤتمرين: إنه رغم التحفظ على بعض الدوافع الكامنة خلف المبادرات الدولية للإصلاح في العالم العربي، إلّا أنه يلاحظ أنها اشتملت على عدد من أهم مطالب الإصلاح التي تضمنتها برامج المصلحين والحركات السياسية والمنظمات الحقوقية في العالم العربي، وتصلح الرؤى المتضمنة في مبادرة مجموعة الثماني كبداية للمناقشة والحوار، على أن تتسع للمجتمع المدني في العالم العربي كشريك متكافئ في هذه الشراكة، باعتباره طرفاً أصلاً في أية عملية إصلاح جادة في كل دولة. كما رأى المؤتمر أن إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية المحتلة والاعتراف الكامل بالحقوق السياسية للشعب الفلسطيني،

---

(١) مؤتمر أولويات وآليات الإصلاح في العالم العربي، القاهرة، ٥ ـ ٧، تموز (يوليه) ٢٠٠٤م.

هي مطالب أساسية تعزز قوة الدفع نحو الإصلاح السياسي والدستوري في العالم العربي وقوى الاعتدال وتكبح الميل للتشدد الديني والتطرف والعنف السياسي في العالم العربي، لكن لا يمكن توظيف معاناة الشعب الفلسطيني لتعطيل الشروع في الإصلاح أو لتبرير انتهاكات حقوق الإنسان.

وبكلمة موجزة، فإن شعوب المنطقة العربية آمنت منذ مئات السنين بالإصلاح والتحديث، وهي التي قادت العالم ردحاً من الزمن إلى التنوير والعلم والتقدم. وما تزال اليوم تؤمن بالإصلاح الذاتي وغير المؤقت، وترفض الإصلاحات المتأمركة المفروضة من الخارج، لا سيما إذا كان هدفها السير في ركاب إسرائيل والسياسة الأميركية، مع اعترافنا بأهمية الإصلاح والتحديث والقضاء على الجهل والأمية والفقر ومشاركة المرأة العربية في تقدم مجتمعها وإنصافها. فالإصلاح كان ـ وما يزال ـ هدفاً وعاملاً أساسياً في تقدم العرب والمسلمين. ولكن، الأمر اللافت للنظر، إنه في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل تشن حرباً على لبنان في صيف عام ٢٠٠٦م، كانت وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس تبشر اللبنانيين والعرب، بأن هذه الحرب الإسرائيلية ستنتهي بنتائجها إلى «شرق أوسط جديد». ويبدو أن الولايات المتحدة الأميركية باعتمادها سياسة «الفوضى الخلّاقة» في العالم العربي، تريد إعادة رسم خريطة العالم العربي عن طريق الفوضى والتفتيت والتقسيم، على غرار ما اعتمدته من سياسة في العراق تحت ستار نشر الديمقراطية في العالم، وهذا الأسلوب أحد أوجه حرب الغرب ضد الإسلام والعروبة.



من خلال ما تقدم من دراسات وفصول، ندرك كم هي أساليب الغرب المدمرة للإسلام وللعروبة، وذلك منذ فجر التاريخ حتى اليوم. وتبين لنا، إنه بالرغم من تعدد أساليب الغرب سواء عن طريق: الاستعمار أو الاستشراق أو التبشير، أو الصهيونية، أو الماسونية، أو التهويد أو التغريب، أو مشروع الشرق الأوسط الكبير أو الجديد، فإنما تعددت الأساليب، غير أن الغايات والأهداف واحدة، وهي تتمثل بمحاربة الإسلام والمسلمين والعرب، باعتبارهم قوة مستقبلية واعدة، ستؤثر حكماً على مسار العالم والمنطقة، مما سيؤثر حكماً على أطماع الغرب والصهيونية في العالمين العربي والإسلامي.

# فهرس الموضوعات